

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ ۖ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾
 ﴿[العمران] ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۗ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ۖ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾
 ﴿[النساء] ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب].

أما بعد:

فمنذ عقدين ونصف العقد والأصدقاء يطلبون مني كتابة مذكراتي، وكنت أعتذر ثم أكرر الاعتذار، فمن أنا وماذا صنعت حتى أكتب مذكراتي؟!، وإذا كنت قد عملت خيراً فلماذا أتحدث عنه، وقد تدفعتني العاطفة إلى توضيحه أو نحو ذلك.. ولماذا لا أدخر عملي الصالح ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، وفضلاً عن هذا وذاك فأنا من جيل أكرمه الله بهزيمة خصومه من اليساريين الاشتراكيين والقوميين العلمانيين شر هزيمة في حرب حزيران ١٩٦٧م، ثم شهد عودة الأجيال من أبناء أمتنا إلى كنف ربها تائبين مستغفرة، فما رعيننا هذه الصحوة حق الرعاية، وكّرّسنا

عقلية الأحزاب والجماعات المتنافرة المتخاصمة، وبرزت جماعات جديدة، وكل جماعة تزعم أن طريقها هو الطريق الصحيح، وأنها دون غيرها هي القادرة على حل مشكلات الأمة الإسلامية، وأسأل الله أن لا تصل بنا الأمور إلى مستوى الأمم التي وصفها جلّ وعلا في كتابه الكريم:

﴿ فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون].

ماذا تراني سأقول في مذكراتي؟! هل أقول لقد هُزمتنا أمام القرامطة الجدد، وأبناء عمومتهم الرافضة بعد أن قتلوا خيارنا، وأرغموا أعداداً كبيرة منا على مغادرة ديارهم ومرايح صباهم؟!.

أم أقول: ها نحن بعد مضي قرابة نصف قرن من التنكيل والتشريد لم نضع أمورنا في نصابها الصحيح، فالفرقة تزداد، ويكثر بيننا تميع الدين أو الغلو فيه، وإعجاب كل ذي رأي برأيه.

قال أهل الرأي من الأصدقاء: دع عنك جلد الذات، ولا تقسُ على نفسك وأهل جيلك. نعم هناك أخطاء وقعت، ولكن هناك أعمال جليلة قد صُنعت، فكن أميناً في تسجيل هذا وذاك في مذكراتك، ولا تترك البعض يهرف بما لا يعرف. كلام هؤلاء الأصدقاء وجيه ويستحق الاهتمام، ولكن كيف أدع الأهم إلى المهم؟!، وأخذت أفكر بالكتابة، ولكن من غير البدء في التنفيذ. وحدث ما لم يكن في الحسبان، ففي حرب الخليج الثانية عام ١٩٩١م شنّ جهاز أمن عربي حرباً ضروساً على [الجماعة السرورية] وهذا اسم صنعه من يخاصمنا ولا يخشى الله في

خصومته، وحرّك هذا الجهاز بعض وسائل إعلامه ، كما تعاطفت معه بعض الأجهزة العربية الأخرى. وبالتأكيد فقد كانت المعركة غير متكافئة، وأصبحت -أنا الذي أحذّر طوال عمري من الإرهاب والإرهابيين- في نظر من يستمع إلى وسائل إعلام القوم أستاذ الإرهابيين والمتآمرين، ثم أضافوا اتهامات أخرى، وكلها افتراءات صنعوها في مصانعهم التي لا تنتج إلا إشاعات السوء.

كثر اتصال من أعرف ومن لا أعرف بي، فالبعض محب مشفق، ويعلم أن ما يقال عنا هراء بهراء، ويريد أن يعلم الناس كل الناس وجهة نظرنا. ومنهم من يدفعه إلى ذلك الفضول وحب المعرفة.

استجبت لرغبة الأصدقاء فكتبت مقالات في مجلة السنة شرحت من خلالها النهج الذي أنتهجه في الدعوة إلى الله، وفنّدت أقوال من أسميتهم حزب الولاية، وكان عنوان السلسلة: [السلفية بين الولاية والغلاة]، كما فنّدت أقوال ومواقف حزب الغلاة وسوف يصدر قريباً -إن شاء الله- في كتاب سمّيته [خوارج العصر].

وإضافةً إلى هذه المقالات فقد ألقى عدداً غير قليل من المحاضرات في هذا الشأن ، كما كان هذا الموضوع حاضراً في الندوات التي تُعقد في منزلي. وكان نشاطي هذا مفيداً، ولكنه بقي محدوداً، فالخصوم -وليس ما نواجهه خصماً واحداً- يخاطبون من خلال فضائياتهم الملايين، وأنا الذين خاطبتهم لا يتجاوزون بضعة آلاف، فكيف أفعل؟!.

من ها هنا أصبحت مقتنعاً أنه لا بد من فضائية أتحذث إليها ودون ذلك عوائق:
منها: مما اعتدته في حياتي كره الارتجال، والتفكير في كل كلمة أقولها وما هي
أبعادها، وهذا يتطلب الوقوف عند كل سؤال يُوجّه إليّ فيظهر المتحدث وكأنه في
حالة ارتباك وهو ليس كذلك.

ومنها: أين هي الفضائية التي تسمح لي أن أقول ما أريد لا ما يريد المذيع
المحاور، لاسيما ونحن في عصر يقلّد فيه المذيعون العرب أمثالهم الغربيين،
فيحاولون انتزاع ما لا يريد الضيف البوح به، ويباغته بأسئلة لم تكن واردةً عنده،
بل تصل الأمور عند بعض الإعلاميين إلى حد الوقاحة.

ومنها: أن بعض فضائيات الخصوم حاولت استدراجي فأرسلت بعض
فرسانها!!، فرفضتُ مجرد زيارتهم لي، وعندما يئست حاولت استخدام من ليس
محبوباً عليها، فوافقتُ على الزيارة واعتذرت عن إجراء أي مقابلة. وهذا زاد من
حذري من الإعلاميين.

وذاذ يوم اتصل بي الأخ الدكتور عزام التميمي وعرض علي استضافتي في
برنامج [مراجعات]، ولما كنت أعرف الأخ عزام جيداً، وأعرف أنه ليس من
الإعلاميين الفضولين الذين يبحثون عن الشهرة، وفضلاً عن ذلك فإني أعرف أنه
سيتركني أقول ما أريد، فقد وافقت، وسجّل معي ست حلقات، كل حلقة ساعة.

تحدثت في هذه المراجعات عن أهم مراحل حياتي، وأجبت عن كل ما يثار من
شبهات.. وعندما أذاعت قناة [الحوار] التي يشرف عليها الأخ عزام، كان عدد

المشاهدين كبيراً وكبيراً جداً، وكان الحديث والله الحمد موضع ارتياح عام، وحتى العقلاء من الخصوم تغيّرت الصورة عندهم، وأدركوا أبعاد هذه الحملة المسعورة ضدي وضد إخواني.

استمعت لهذه الحلقات مرّتين، فلم أندم عليّ كلمة أو رواية ذكرتها، فاطمأنت نفسي، وكانت هذه المقابلة هي أول محاولة لي رغم تقدمي في السن، إلا أنها كانت موجزةً، وتجاوزت الحديث عن أمور مهمة لما قد تثيره من حساسية، لأن ما كل شيء حدث يقال، وما كل ما ينبغي قوله يقال في فضائية يستمع إليها الملايين. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فالأخ الدكتور عزام كان مهتماً بمرحلة متأخرة من حياتي، ومن حقه هذا، ولكن حياتي الدعوية بدأت منذ المنتصف الأول من الخمسينيات أي قبل ذلك بعشرين عاماً، ولهذا فقد كتب إليّ كثير من الناس يطلبون كتابة مذكرات تشمل كل مراحل حياتي، والإجابة عن أسئلة كثيرة يرون أنني لم أعطيها حقها من الاهتمام.

لم أكن بعد هذا الذي عاينته بحاجة إلى من يقنعني بكتابة مذكرات، فأنا لست لغزاً من الألغاز.

إنني واضح غاية الوضوح في اعتقادي ومنهجي وطريقي في الدعوة، والرجل الحر لا يقبل الظلم، ويجب عليه أن يدفعه عن نفسه وعن إخوانه. وإذاً فلقد قررت أن أفعل ولكن متى؟! فالأمراض تنهشني من كل جانب من أعضاء جسمي، وقد أصبح معافى ثم يطراً عليّ طارئ صحّي فينقلني

أهلي إلى المستشفى وأنا في حالة يرثى لها، وإذا تعافيت فتنظرنني واجبات دعوية -ودائماً دعوية- كثيرة، وأمضيت على هذه الحال أكثر من ثلاث سنين، وعندما بدأت سألت نفسي من أين أبدأ، فالبعض مهتم بالجانب الدعوي دون سواه، والبعض الآخر يبحث عن كل شيء في سيرتي الذاتية، وبعد طول تردد قرّرت أن تكون البداية منذ الطفولة، فمن حق أبنائنا ومن هم في مثل سنّهم أن يعلموا كيف كنا نعيش، ومن حق شباب قريتي [تسيل] أن أحدثهم عن آبائهم وأجدادهم، وعن الروابط القوية التي تشدّ الناس بعضهم إلى بعض.. ومن حق أهلي في حوران أن أكشف لهم صفحات من تاريخهم المجيد الذي حاول البعض طمس معالمه، وإني أتهم في ذلك كُتّاب التاريخ الحديث وأصحاب المذكرات، ومن حق الدعاة إلى الله في كل مكان أن أحدثهم عن الجذور، وعن أخلاق القرية التي تُعلم أبناءها: الشجاعة، والكرم، وإغاثة الملهوف، والرضى بالقليل.

وفي ذلك كله أعتمد على الذاكرة، ولا زالت والحمد لله تسعفني حتى بدقائق الأمور، وقد أستعين ببعض الشواهد والعودة إلى ما كتبه غيري من أصحاب المذكرات.

وعندما أمسكت القلم تداعت الأخبار والأفكار والمشاعر، رأيت نفسي طفلاً تحيطه أمه بعطفها وحنانها، تمرض لمرضه، وتحزن لحزنه، وتفرح لفرحه.

ورأيت والدي وأنا رديفه في الأسفار التي يحرص على أن يصطحبني فيها،

كما يحرص على أن أكون معه في مجالسته للكبار، واعتزال السفهاء من أقراني.. ثم رأيت يعاقبني عقاباً شديداً على أخطاء ارتكبتها. لقد كان رحمه الله يريد لأبنائه أن يكونوا نماذج طيبة.

ورأيت عمي حمزة شيخ [تسيل]^(١) وأحد وجوه حوران يرعاني أنا وحدي من بين الأقران من أبناء العمومة، فيقدمني في مضافته، وعندما يزور المحافظ أو الوزير القرية يختارني لإلقاء كلمة^(٢) ترحيب به، وكان عمري لا يتجاوز العاشرة، وعندما انتقلت المشيخة لابن عمي ناجي، كان حرصه على الاهتمام بي مثل أبيه. ومن هذه المدرسة الأسرية تريت على الجرأة، ورفض الظلم.. وتريت على اعتزال السفهاء وأحبيبتهم.

ورأيت نفسي طالباً في صف كانوا يسمونه [الشعبة] في غرفة متواضعة يسمونها مدرسة تتسع لجميع طلابقرتي [تسيل] و[عدوان] وعددهم لا يتجاوز العشرين، وكنت من أصغر الطلاب سنًا.

ورأيت نفسي خيالاً أمتطي ظهر الفرس، وأسابق أقراني، وأحياناً نقسم إلى

(١) شيخ البلدة كان بمثابة الحاكم وله هيبه واحترام، وكان يحل كثيراً من المشكلات فيرضي بها

المتخاصمين، ولا يجدون حاجة إلى المحاكم.

(٢) الكلمة يكتبها والدي أو ابن عمي حمزة رحمه الله.

قسمين حسب الحارات على ظهور الخيل وسلاحنا [المقارع]^(١)، ثم يتدخل الكبار ويجبروننا على إنهاء المعركة.

أنا الآن أعيش قبل حوالي سبعين عاماً.. أتذكر كل شيء أو أكاد.. غبت عن المكان والزمان.. لا أرى أمامي الآن إلا بيتنا القديم، وأزقة [تسيل] وبيوتها التي كنا نعرفها بيتاً بيتاً، ونعرف سكانها لا يغيب عني أحد.. أعيش في ذكرياتي مع والديّ وأشقائي وأعمامي.

لي ذكريات في ربوعهم هن الحياة تألقاً وسنا

إن الغريب معذبٌ أبداً إن حلّ لم ينعم وإن ظعنا

يكتب قلبي قبل قلمي.. تنهمر الدموع من عيني مدراراً.. لا أبالي بمن يقترب مني أو يسمعني فأنا في مكان وزمان، ومشاعري وعواطفي في مكان وزمان آخر.. مات هؤلاء الذين عشت معهم أحلى أيام عمري، وحالت الغربة المريرة بيني وبينهم، وعندما يزورني أحد أبناء هذه القرية فأنا لا أعرفه ولا أعرف أباه أحياناً وحتى أتعرّف عليه لا بدّ لي من سؤاله عن جده.

كنا نعيش حياةً خشنةً يستغربها أبناؤنا عندما نحدثهم عنها.. وكنا نأكل البسيط من الطعام لكنه كان لذيذاً، وكذلك كان لباسنا وشرابنا.. إني مدين في حياتي كلها للقرية وأخلاق القرية.. مدين للجذور وعجبت والله لمن يتنكّر لها ولا يجب

(١) مفردها مقرعة وهي عصا يربط بها حبل لضرب الدابة لدفعها إلى الجري بسرعة.

ذكرها.. ومن هذه القرية المتواضعة سأبدأ مذكراتي.

ربي اغفر لي ولوالدي، ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً، وارحم اللهم عمي حمزة وابنه ناجي وجميع أعمامي وأبناء عمومتي وكل من توفاه الله من أهل [تسيل]، وأسألك اللهم بأسئلك الحسنى وصفاتك العلى أن تهب لي من الوقت والعمر ما أنجز فيه هذه المذكرات، فإني أرجو أن يكون فيها نفع لجيل أبنائنا وللأجيال القادمة، وسبحانك اللهم وبحمدك أستغفرك وأتوب إليك.

محمد سرور زين العابدين

عمان - عصر يوم الأربعاء

٤/٧/٢٠١٢م

الموافق ١٤/٨/١٤٣٣هـ

هذه المذكرات

هذه المذكرات

قارئ الكريم: قد تُقبل على قراءة هذه المذكرات وفي ذهنك شيء تبحث عنه، وتريد الحصول عليه بأقصر الطرق أو لأنك متأثر بطبيعة عصرنا هذا الذي يسمونه عصر السرعة، فلا تجد ما تريده إلا بشق الأنفس أو أنه في جزء آخر، ولا تدري متى سوف يصدر، وحتى تكون على بينة من أمرك، فتعال أحدثك عما أريده في هذه المذكرات، فإن أرضاك هذا فتوكل على الله واصبر لأن مشواري معك سيكون طويلاً، وإلا فهذا فراق بيني وبينك من بداية الطريق:

أولاً: أنا ابن الشام رضعْتُ من ثديي أمي لبن الاهتمام بأمر المسلمين مهما تباعدت ديارهم، واختلفت لغاتهم، وأول ما تعلمته من أهلي كلاماً جميلاً عذباترجمه أحد المؤرخين ترجمةً أمينةً صادقةً، فكان مما قاله عن شامنا:

" جاء الفاتحون الشام بحرراً وبراً بل جاؤوها من جهاتها الأربع، فجاءها الفراعنة من البحر والبر، والبابليون والفرس من الشرق والشمال، والاسكندر والصلبييون والعثمانيون من الشمال، وغازان وهولاكو وتيمورلنك من الشرق، والعرب والفاثون من الشرق والجنوب، ونابليون من الجنوب ومن الغرب بحرراً، وإبراهيم باشا المصري برأ وبحراً أي من الغرب والجنوب الغربي، وجيوش الحلفاء من الإنكليز والفرنسيين والعرب من الجنوب والغرب.".

وأضاف: " رأى الشام طلعة موسى وعيسى وأحمد من النبيين، وأمثال الاسكندر وابن الخطاب ونور الدين وصلاح الدين وسليم ونابليون وإبراهيم من

الفاحين، وعمر بن عبد العزيز والمأمون وابن تيمية وأبا الفداء من المجددين. وبُخْتَنْصَر وهو لاکو وجنکيز وغازان وتيمورلنک من المخريين، وقلّ في الممالک كما قال کورتيوس ما اندمج فيه كثير من التواريخ في بقعة ضيقة كهذه.

الشام مهوى أفئدة الشعوب المسيحية، ومجاز حجاج المسلمين إلى الأماكن الطاهرة الحجازية، بل نقطة الاتصال القريبة بين آسيا وإفريقية، وآسيا وأوروبا، بل بين القارات الثلاث القديمة آسيا وأوروبا وإفريقية.^(١)

لقد شهدت بعض هذا الذي ذكره صاحب خطط الشام. كانت ولادتي أيام احتلال فرنسا لسورية، ثم شهدت الحرب الكونية الثانية في عامها الأخير وكانت رحي المعارك بين الحلفاء والمحور مشتدة على بُعد بضعة أميال من قريتي.. وعشت فرحة قومي بانتصارهم على فرنسا وإجبارها على مغادرة سورية وكانوا يشعرون أن استقلالهم ناقص، لأن الشام أصبح أربع دول حسب اتفاقية سايكس بيكو.

وعشت نكبة فلسطين عام ١٩٤٨م، ونكبة القدس وسيناء والضفة الأردنية الغربية والجولان عام ١٩٦٧م، ونكبات أخرى كثيرة فيما بعد.

ورأيت شامنا ملاذاً للمنكوبين: كالشيشان، والألبان، والشركس، والداغستان، والبلقان، والجزائريين، والمغاربة، وصاروا مواطنين ولهم كل الحقوق التي يتمتع بها قدامى أهل الشام.

(١) خطط الشام، محمد كرد علي. دار النوادر: ٥٢/١.

وحفّلت المعاهد والجامعات بطلاب العلم من مختلف البلدان العربية والإسلامية، ويتكفّل أهل الخير بالنفقة على كثير منهم.

وفضلاً عن هذا وذاك، فلقد رأيت شامنا موثلاً لثورات التحرر من الاستعمار والاستبداد، ولهذا فقد استحقت وصف الناس لها بقلب العروبة النابض.

وشامي الذي هذا هو شأنه لا بد لي في هذه المذكرات أن أخصّه بنصيب وافر من الاهتمام.

ثانياً: أنا ابن قرية من قرى حوران. وكما قلت في المقدمة، فهذه القرية ذكريات وذكريات يصعب أن يمحوها مرور الأيام وتقدّم السن، وتغيّر الأحوال. وهذه واحدة، أما الثانية فالقرى متشابهة في عاداتها وطبائعها سواء كان ذلك في حوران أو في الشام أو في الوطن العربي، ولا يُحسّن الحديث عن واقعها وعاداتها وضرورة التغيير البناء فيها إلا من كان من أبنائها. أما الثالثة فلقد رأيت صنفاً من أهل القرى هجروها واتخذوا لهم عملاً في المدينة، وصاروا ينجلون من أن يُنسبوا إليها، ولهذا قلّدوا أهل المدن في كل شيء حتى في اللهجة، ولهجة أهل المدن في الشام لا تخلو بعض كلماتها من أثر العُجْمة.. هؤلاء لا ينجلون من عقدة النقص، لأنهم يعيشون في وسط متهمك يُكثر من السخرية والاستهزاء بأهل القرى.

هذا عن القرية، أما حوران فهي منطقة عريقة ولها تاريخها قبل النبوة، وبعد أن منّ الله علينا بنعمة الإسلام وبرسالة المصطفى ﷺ، وأهلها مسلمون سنّة، تعرّضوا للظلم أيام الدولة العثمانية، ثم في مختلف العهود التي تلت الدولة العثمانية. ومن

هذا الظلم اغتصاب الدروز لجلبها الأشم، وبطشهم وتهجيرهم للقرى الحورانية، وقابل العثمانيون ذلك بالصمت إرضاءً للإنجليز الذين كانوا يرعون الدروز ويتولون حمايتهم.

وظلمت الحكومات الوطنية في العهد الوطني حوران من كافة الوجوه: كالزراعة، والتعليم، والشؤون الصحية، وتجاهل المؤرخون والسياسيون تاريخ حوران في مقارعة الاستعمار، وضخّموا دور الدروز نفاقاً لهم واتقاءً لشرهم فجعلوا من حبتهم قبة، ثم سكتوا عن ارتباطهم بالإنجليز وبالفرنسيين الذين صنعوا لهم دويلة. فأُنصفتُ قومي في هذه المذكرات، وبيّنت تاريخ ما تجاهله المؤرخون والسياسيون الذين كتبوا مذكراتهم، ولا خير في رجل لا ينصف قومه.

ثالثاً: اخترت طريق الدعوة والعمل الإسلامي منذ كنت طالباً في الصف الثامن الإعدادي عام ١٩٥٣م، وكان هذا الاختيار أهمّ وأفضل قرار اتخذته في حياتي، والفضل في ذلك لله سبحانه وتعالى، فهو جلّ وعلا الهادي إلى سبيل الرشاد. ولم يكن هذا الاختيار بالأمر اليسير، فأنا ابن منطقة خالية من المدارس الشرعية، ولولا دعاة [ليسوا بالمستوى المطلوب] لا يبلغون أصابع اليد لقلت: إنها قفر من الدعاة. وعلى نقيض ذلك فحوران غنية بدعاة الضلالة والغواية والفساد، وقد سبقنا إليها: الحزب القومي السوري، وحزب العربي الاشتراكي، والحزب الشيوعي، وكان من أبرز العاملين في صفوف هذه الأحزاب نصارى حوران، ويأتي بعدهم من أضل الله سعيه من ذراري المسلمين.

كنا في الإعدادية الوحيدة في حوران في صراع دائم مع العاملين في صفوف هذه الأحزاب العلمانية، ويبدأ الصراع بمناقشات فكرية نخوض فيها في أدق القضايا، وكانت بضاعتنا من المعرفة مزجاءً، ويتطور الحوار أحياناً إلى صراع بالأيدي في باحة الإعدادية، ويتطور أحياناً إلى معركة وكان سلاحنا فيها الحجارة والمقلاع.

أعطيتُ الدعوة إلى الله معظم وقتي منذ بداية الطريق، وتعلقتُ بها أشدّ التعلق، وكانت مقدّمةً في حياتي على كل شيء، وكتب الله لي القبول في صفوف أقراني، ومن هم دون ذلك. أسأل الله تعالى أن تكون أعمالنا خالصةً لوجه الله تعالى، مجردةً من الرياء والشقاق والنفاق.

كانت بداية الطريق وحتى نهاية الستينات مع الإخوان المسلمين، ولهم فضل عليّ وأخصّ بالدعاء أساتذتي وشيوخي، لقد كان معظمهم متجرّداً في دعوته من الحزبية الضيقة، منفتحاً على أهل الخير والفضل.

وفي عام ١٩٥٨م انتقلتُ إلى دمشق وأتممتُ دراستي الجامعية فيها، ودمشق غنيةٌ بالدعاة المشهورين، والعلماء الكبار المؤثرين، والمفكرين من أصحاب الاتجاهات المختلفة، والضيوف الذين يفدون إليها من مختلف بقاع العالم الإسلامي.

كنت لا أدع محاضرةً أو ندوةً مهمةً إلا وأشهدها، كما كنت كثير التردد على مساجد دمشق، وحضور دروس علماء قلما يوجد الزمان بمثلمهم. دمشق نقلتني من عالمٍ إلى عالمٍ آخر، زوّدتني بالعلم النافع الذي كنت أفتقده، ووسّعت معارفي،

وضاعفت من خبرتي الفتية لاسيما بعد اتصالي ببعض أهل العلم والفضل فيهم ومصاحبتهم في حلّهم وترحالهم. سقى الله أيام دمشق العامرة، وأمطرها من شآبيب رحمته، وطهر أرضها من رجس الغزاة المحتلين أحفاد وأفراخ القرامطة، وكتب لنا عودة حميدة إليها، وأشهد أنني في غربتي الطويلة ما شهدت مدينة كمدينة دمشق ولا أياماً كأيام دمشق.

وفي صيف عام ١٩٦٥م بدأت رحلة الغربة المريرة والتي لا تزال حتى كتابة هذه السطور، وإلى أن يشاء الله، ورحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية في قوله: "إن سجنني خلوة ونفسي سياحة". لقد تنقلت في هذه الغربة بين عدد من المدن والدول، وزرت بلدان المشرق والمغرب العربي، وأقمت في لندن عشرين عاماً، وزرت الدول العربية، والولايات المتحدة الأمريكية، وباكستان وتركيا، ورأيت في هذه السياحة كلها عدداً من العلماء والدعاة والمفكرين قلماً^(١) يلتقيهم غيري.

وفي نهاية الستينات من القرن الماضي تجمّعت لدي أسباب دعنتني إلى فكّ ارتباطي بجماعة الإخوان المسلمين، ثم قمت مع بعض الشباب الذين لم يسبق لهم العمل مع الإخوان بتأسيس جماعة جديدة، فاستشاط غضب الإخوان مني، وأعلنوا حرباً شعواء ضدي، وهذا هو موقفهم من كل من يتركهم، فكيف إذا كان نشيطاً وأسس جماعةً جديدةً، يرون أنها تضادهم، ولم يكن الأمر عندنا كذلك.. ثم جاء فيما بعد من يسمّي هذه الجماعة "بالسرورية" ولي شرف الانتساب إليها لكننا لم

(١) قلماً: أعني أن عدد الذين تنطبق عليهم هذه المواصفات كان قليلاً.

نتخذ هذا الاسم ولا رضينا، ونحن واضحون كل الوضوح في منهجنا ومواقفنا، ولسنا لغزاً من الألغاز كما يظن البعض... هذه الرحلة الطويلة القاسية بما فيها من علماء عرفتهم، وصعوبات واجهتها، وبلدان زرتها أو أقمت فيها، وجماعة تركتها وأخرى أسستها سوف أحرص على تغطيتها في هذه المذكرات.

رابعاً: بدأ اهتمامي بدراسة الفرق منذ وقت مبكر وكانت دوافع هذا الاهتمام تزداد وتلح عليّ في البحث مع مرور أيام عمري وتقدّمي في السن، وبعد صدور عدد من كتبي، واحتدام النقاش بيني وبين السذج أو أصحاب الأهواء الذين لا ينظرون إلى أبعد من أرنبه أنوفهم، ولا أدلّ على ذلك من مخالفة الناس لي واستنكارهم للنتائج التي قررتها في كتابي "وجاء دور المجوس"، ثم عودتهم بعد ثلث قرن إلى قراءته وإقرارهم بصواب ما كنت أراه.. بعد هذا وذاك واجهتني أسئلة كثيرة:

ما هي الأسباب التي دعتك إلى السير في هذا الاتجاه منذ كنت شاباً؟، ولماذا كنت تتمسك بمواقفك رغم مخالفة الناس لك، وكان يستهويك السير في الاتجاه المعاكس؟!.

ما كنت أفكر في مثل هذا السؤال حتى أعدّ له جواباً. لقد رأيت نفسي أجمع معلومات من هنا وهناك، ففي عام ١٩٦٠م زرت الشيخ محمد المجذوب في منزله باللاذقية، والشيخ المجذوب من أوسع الناس معرفةً بالنصيرية والنصيريين فزودني بمعلومات نادرة في ذلك الوقت، وأجاب برحابة صدر على كل ما سألته رحمه الله

رحمةً واسعةً، ثم زرت جبال النصيرية لأرى القوم عن كثب، واخترت بلدة القرداحة التي كان أحد أصدقائي موظفًا في الشؤون الزراعية ويقيم فيها.. وكانت القرداحة في حالة من التخلف قد لا تشبهها في سوئها أية بلدة في ريف سورية، وما كنت أعلم، ولا العالم يعلم أنه سيخرج فيها إبليس الأبالسة [حافظ الأسد] ويصبح رئيس جمهورية سورية ثم يُورث الحكم من بعد هلاكه لابنه المعتوه بشار الأسد ويستمرّ حكمهم وطغيانهم نصف قرن، ويرتكبوا من الفظائع ما ليس له مثل في تاريخ الشام القديم والحديث. نسأل الله فرجاً عاجلاً، ولكنني بعد هذه الزيارة كنت أشعر أن سورية لن تسلم من غدر هذه الطائفة وكيدها، وكنت أتساءل أين من يستشرفون المستقبل، ويحذرون أمتهم من مصيبة قادمة، ويطالبون بالإعداد لمواجهةها؟!.

أعود إلى السؤال: كيف بدأ عندي هذا الاهتمام؟!

١- كانت البداية في حوران، وعمري لم يكن يتجاوز العاشرة. لقد أُتيح لي مجالسة كبار السن من العامة والأعيان، وكنت أستمع بشغف إلى أحاديثهم الطويلة المريرة عن:

- معاناتهم أيام الدولة العثمانية.

- ثورة الشريف: أي الثورة العربية وقيادة الحسين بن علي لها والدور

الإنجليزي الفرنسي عام ١٩١٦ م.

- ثورة أهل حوران ضد الاحتلال الفرنسي عام ١٩٢٠ م، وهؤلاء هم الذين

صنعوها وهم شهودها.

- اشتباكاتهم المستمرة مع دروز جبل حوران وما حوله، وارتباط الدروز مع كل من بريطانيا وفرنسا.

- نصارى حوران، وانحيازهم لفرنسا أيام الاحتلال، ثم تبني فرنسا لهم في كل شيء.

كان هذا الذي سمعته من أهلنا في حوران أحسن وأصدق مادةً أوليةً لكتابة تاريخ الشام وتاريخ الفرق فيها، ولكنه يحتاج إلى تصفية وتوثيق.

وخلال إقامتي في دمشق أقمت علاقات جيدة مع عدد كبير من الدعاة والعلماء والمفكرين سواء كانوا من دمشق أو من العرب الذين يزورون دمشق ويلقون محاضرات فيها.. كنت أسمع من هؤلاء كلاماً مشابهاً للذي كنت أسمعه في حوران، لكنه أكثر دقةً وموضوعيةً، وإن كان لا بدّ للمتحدّث من مراعاة سياسة الدولة العامة التي لا تجيز إثارة النعرات الطائفية.

أما في الجلسات المغلقة لخواصّ هؤلاء من أساتذتنا فكنت أسمع معلومات وحقائق خطيرة، وكان المتحدّث يختم حديثه بقوله: هذه معلومات خاصة لا ينبغي الجهر بها حتى لا تكون سبباً في تفرّق الأمة، وإشاعة الفوضى.. وليت الأمر يتوقف عند هذا الحدّ إذا كان المتحدّث يلقي محاضرةً عامةً، كنت أسمع منه ومن غيره^(١)

(١) أرجو أن تُفهم في حدود القليل من هؤلاء.

نقيض ما كانوا يقولونه في الجلسات المغلقة، وكان النفاق للنصارى وسائر الفرق سمةً من سمات تلكم المرحلة.

٢- كنت وأقراني من الشباب نناقش أقوال شيوخنا في هذه المسألة، وكان بعضنا يتمسك بها أشدّ التمسك ويرى بها الحكمة لا سيما وهم علماء وكبار، وأهل خبرة، ويرون ما لا نرى. وكنت أعبر دائماً عن عدم قناعتي، وتبلغ بي الجرأة أحياناً فأجهر برأيي أمام شيوخنا، فأعرض لتأنيب أقراني لأنني خرجت على العرف الذي نتبعه في أدبنا معهم. وكان البعض يقول لي: تمهّل فإن شيخنا [ويسمّي لي أغزر أساتذتنا علماء] ألّف كتاباً وأوصى بنشره بعد وفاته، وتوفّي الله شيخنا رحمه الله، وبحثنا عن هذا الكتاب فلم نجد له أثراً.

حفظت ذاكرتي والحمد لله أقوال شيوخنا في الغرف المغلقة، وكنت ألقى فلاناً بعد خمسين أو ستين عاماً فأذكره بما كانوا -رحمهم الله- قد قالوه لنا عن الفرق ودورها الهدام في لقاءات مغلقة -وليس في لقاء واحد، فأجده قد نسي ذلك كله، ثم تتكرر الصورة مع زملاء آخرين، وهذا -كما أرى- يعني أن شيئاً مهماً من تاريخنا قد أضعناه.

٣- في [٨/٣/١٩٦٣م] قاد التحالف النصيري البعثي انقلاباً عسكرياً أطاح بحكومة خالد العظم، ورفع شعار عودة الوحدة بين سورية ومصر، وهو الحلم الذي يدغدغ عواطف شعوبنا العربية، ويمنّيها بعودة أمجاد العرب في قرونهم المفضّلة، وبعد مرور أيام حالكة الظلام تبين للمبصر والأعمى أن

النصيريين ركبوا بغلاً^(١) اسمه الناصرية، وحاول المسكين أن يرفسهم فقتلوه شرّ قتلة، واستعاضوا عنه بحمار اسمه حزب البعث، سار بهم رغم ثقل الحمولة التي يئن تحت وطأتها حتى عام ١٩٦٦م ففكّر الغبي أن يرفسهم، فكان مصيره أشدّ من مصير صاحبه البغل. ثم استأنفوا طريقهم التأمري الخطير مع بقية شركائهم ممن أطلق عليهم السوريون مصطلح "عدس"^(٢) أي العلويون والدرّوز والإسماعليون، وأعلنوا حرباً على دين الأكثرية المطلقة [الإسلام]، ولكنهم كانوا يسمّون الأمور بغير أسمائها. كقولهم: الصراع بين التقدمية والرجعية، وصراع أهل الرّيف مع أهل المدن.

وفي عام ١٩٦٧م ورّطوا العرب بحرب مع إسرائيل هم أول من يعرف نتائجها مسبقاً وسلّموا الجولان للعدوّ الصهيوني، وكما قال السوريون "سلّموها مفروشة"، وكانوا سبباً في كارثة القدس والضفة الغربية وسيناء ثم تأتي الأيام لتكشف أنهم كانوا في كل جرائمهم التي ارتكبوها ينفذون مخططات إسرائيلية أمريكية، وتحديث عن هذه المسألة مع أدلتها في مواضع متفرقة من مؤلفاتي.

وفي ١٩٧٠م بطش الضابط الخجول المتردد حافظ الأسد بجميع شركائه، وكان أصغرهم سناً، وانفرد الجناح الذي يقوده بقيادة طائفته، ثم بحكم سورية

(١) أعتذر للقراء لأنني لم أجد أكثر دقة من هذا الوصف.

(٢) النصارى مع كل صاحب شوكة إذا ضمن لهم مصالحهم، والنصيريون قدّموا لهم أكثر مما طلبوا منهم، فأصبحوا شركاء لهم في المغنم دون المغرم.

التي استعصت على كل من سبقه، ثم أقام تحالفاً عربياً مع بعض الدول التي ضمن لها مصالحها، وهذه هي زكّته عند الأميركيان، ومن جهة ثانية فقد أقام حلفاً باطنياً مع إيران ومشتقاتها من شيعة العالم. وذاق السوريون ومعهم العرب ويلات هذا الحلف الدنس التي يعجز عن وصفه خيال أديب مبدع.

وخلال ثلاثين عاماً من حكمه ارتكب مجازر في كل من سورية ولبنان لا يعرف تاريخ سورية الحديث مثيلاً لها. وعندما داهمه المرض وأدرك أن مصيره قد اقترب. اختار أحد المعتوهين من أبنائه ليرث حكمه، وكان له ما أراد.

بشار بن حافظ الأسد الذي تولّى حكم سورية عام ٢٠٠٠م جعل من سورية ولايةً إيرانية، وصار الحاكم النهائي في كل من إيران والعراق وسورية ولبنان مرشد الثورة الإيرانية علي خامنئي، فنشر الفرس التشيع في مختلف أرجاء سورية، وأخذوا يعملون ليل نهار من أجل أن تصبح بلدة الست زينب ضاحيةً جنوبيةً لدمشق مثلها مثل الضاحية الجنوبية لبيروت، وبنوا حسينيات وحوزات ومقامات في شتى المدن السورية.

أما الحرب التي شنها التحالف النصيري الفارسي الروسي ضد شعبنا الآمن في سورية، فلا يعرف تاريخنا القديم والحديث مثيلاً لها في الوحشية والهمجية.

٤ - وإذا فأننا لم أكن غافلاً، ثم جاءت أحداث الثمانينيات الدّموية أو الجرائم التي ارتكبتها النظام في الستين الماضيتين فأيقظتني من غفلتي. كنت والحمد لله متيقّظاً أبحث وأقرأ وأحلّل، لم أقتنع في يوم من الأيام بأن تبقى أحاديثنا في غرف

مغلقة، ولا تتجاوز الهمسات.

بدأت بوضع "أرشيف" لأهم الموضوعات سواء كانت في الفرق أو في غيرها، ثم كوَّنتُ مكتبةً أحسبها من أغنى المكتبات الخاصّة، وأهم ما فيها كتب التاريخ والعلوم السياسية، والمذكرات. كنت أغشى المعارض ودور النشر، ولا أدع كتاباً في المذكرات إلا وأشتريه. وكانت هذه المكتبة بكل ما فيها ترتحل معي، يصيبيها ما يصيبي، تنقلت بها من السعودية إلى الكويت، ثم إلى بريطانيا، فالأردن، وكوَّنت فرعاً لها في قطر، وعمرها الآن يقترب من خمسين عاماً، وأسأل الله أن تعود معي إلى سورية لأجعلها مكتبةً عامة. ومما يجدر ذكره أن التأليف عندي وسيلةٌ لإيقاظ الهمم، وتوحيد الأمة على المنهج الحق لتحرير شامنا من الاحتلال النصيري - الفارسي.

٥- قالوا: إن أسلوبك فيما كتبتَه عن الفرق كان شديداً، وفيه تجاوز واضح للخطوط الحمراء، وتهديد للعيش المشترك.

قلت: يا قوم لقد انحاز هؤلاء لكل عدوٍّ يحتلُّ أرضنا ويستبيح بيضتنا، وأنا أكتب من خلال وثائق، فلا تنظروا إلى ما كتبت بل انظروا إلى ما فعلوا، إن الذي كتبتَه وصف دقيق لما حدث، ولعل في ذلك فائدة لهم ليتدبَّروا أمرهم، وليراجعوا حساباتهم، فهم يعيشون وسط بحر متلاطم من المسلمين، ولن يجدوا نظاماً ينصفهم مثل نظام الإسلام، فلماذا يغدرون بنا ويتآمرون علينا؟!.

هؤلاء من أحوج ما يكون إلى مؤرخ يضع تاريخهم بين أيديهم، ثم يقول لهم:

لسنا مغفلين كما يظن بعضكم، ولا يغرتكم الذين ينافقون لكم من بني جلدتنا، ويتحالفون معكم من أجل مصالحهم، ففي غرفهم المغلقة يقولون نقيض ما يقولون في العلن، وهم أخطر عليكم من الذين يخشون ربهم ويتعبونه جلّ وعلا بقوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾.

يا قومنا: إن التاريخ شيء، والعفو وحسن المعاملة شيء آخر. فالمؤرّخ يجب عليه ذكر الحقائق كما هي ويجب عليه أيضاً تجنب الظلم والتزوير والكذب. أما العدل والصفح والمساواة فهي سمة ناصعة من سمات ديننا، ولا يجوز خلط هذا بذلك.

خامساً: أعود إلى الحديث عن الهجرة القسرية ولكن من زاوية أخرى:

لقد انتقلت فجأةً من دمشق التي كانت من أهم العواصم العربية مدنيّةً واهتماماً بالشأن السياسي، وكان كل فرد فيها يمارس حرّيته كما يشاء ويتنقّد من يشاء ولو كان رئيس الجمهورية السورية، إلى البكيرية وبريدة حيث كان الراديو من المنكرات، وكانت الأرض فيها واقفةً لا تدور، وعندما زعم أحد المدرسين السوريين أنها تدور، وأصرّ على ذلك كان مصيره التسفير الفوري لأنه مبتدع ضالّ مُضَلّ.

وانتقلت من قرّيتي تسيل إلى لندن، وحسبك من قرّيتي أنني أول ما شهدت سيارة تصلها، هرعت أنا وأقراني لنشدها، وكانت في نظرنا إحدى عجائب

عصرنا، ثم وقفنا ننظر إليها عن بُعد لأننا خشينا على أنفسنا من الاقتراب منها، فضلاً عن لمسها بأيدينا، ومن منا يجرؤ على الإلقاء بنفسه إلى التهلكة؟!.

ابن تسييل أصبح من سكان لندن، وعاش فيها عشرين عاماً. أما السيارة فقد امتلكها قبل لندن، ولم يعد يخشى الاقتراب منها، بل صار يقودها كما كان يركب حماراً أو بغلاً، وصار يتنقل بين دول أوروبا الغربية من فرنسا إلى ألمانيا، فبلجيكا، فهولندا، فإيرلندا، فالدانمرك، فالسويد، فاليونان.

وخلال إقامتي في البلاد العربية، كنت سعودياً مع السعوديين، كويتياً مع الكويتيين، قطرياً مع القطريين، يمنياً مع اليمنيين، جزائرياً مع الجزائريين لولا أن كثيراً من الجزائريين يفهمون القضايا كما يجبون أن يفهموا وليس كما ينبغي أن يفهموا، ثم يتمسكون بمواقفهم الخاطئة لا يحدون عنها.

وعندما أقول كنت سعودياً مع السعوديين فإنما أعني أنني كنت أعيش بينهم كواحد منهم، وكانوا يبادلونني هذا الشعور، وكنت أعرف بلدانهم وعشائرتهم وعاداتهم كما يعرفها خاصتهم، وأحن إليهم وإلى ديارهم إن غبت عنهم وعنهم، وأغار عليهم وأدافع عنهم، وقل مثل ذلك في كل بلد عربي سكنته، أو كنت أتردد عليه، ولي نشاط دعوي مع أهله.. وفي كل الحالات كنت صريحاً واضحاً معهم جميعاً، لا أغير شخصيتي، ولا أقلد مواقف وأساليب أحدٍ مهما علا شأنه وتعلق الناس به، فسبحان^(١) الذي فطرني على كره التمثيل والتشبه بالعظماء. قد لا أقول

(١) في هذا الموضع أنا لا أمدح نفسي ولكنني أتمدح عن طبائعي التي يعرفها كل من له صلة جيدة بي.

ما عندي لهؤلاء جميعاً دفعةً واحدة، وإنما أنتظر الوقت المناسب، بل قد أُلجأ إلى التقييد والتجزئة في عرض بضاعتي، ولكنني لا أقول الباطل.

خبرت خلال رحلة الغربية طبائع وعادات ونفسيات من تعاملت معهم، ولهذا فقد نجحتُ -بفضل من الله- في نقل الكثير منهم من عالم إلى عالم آخر دون صراخ ولا ضجيج، ومن غير مؤتمرات وندوات وخطب وأتباع يهتفون لي، ويتحدثون عن مآثري.

سادساً: قال لي الإخوة الذين قرأوا فصولاً من هذه المذكرات قبل دفعها إلى المطبعة: إن أسلوبك في هذه المذكرات يختلف عن أسلوبك في مؤلفاتك. كنا نراك جاداً، تحشد الأدلة التي تدافع من خلالها عن أفكارك، وكأنك في معركة حامية الوطيس، ثم تعلن انتصارك الكاسح في نهاية الكتاب.

أما في هذه المذكرات، فطريقتك في الكتابة أكثر رشاقة، بل ومضحكة في بعض الأحيان، ثم رأيناك تتحدث عن أمور، ما كنا نظن والله أنك تفعلها.

قلت: كنت أتحدث في مؤلفاتي عن قضايا معاصرة تبعث الحزن في معظمها، وأنا راضٍ عما كتبه وإن كنت أشعر بالتقصير، ولكن هل كنت أعلن انتصاري في نهاية الكتاب، لا أدري، ويبقى تقدير ذلك يختلف من قارئ إلى آخر؟!.

أما في هذه المذكرات فأنا أكتب سيرة حياتي، وهذه هي شخصيتي كما أعرفها: طفلاً، وشاباً، وكهلاً، وداعيةً، وربّ عائلة.. أعرضها كما هي، وأرفض كل الرفض تمثيل درو شخصية أخرى لأنني أكره الغش والتدليس والتزييف.

قرأت عدداً من المذكرات، بعضها كتبها أصحابها، وبعضها الآخر كتبها المريدون، فأنت عندما تستعرض هذه المذكرات تجد الشيخ أو الزعيم في كل موافقه: حكيماً، متزناً، صائب الرأي، غير متسرع في قراراته، يصلح دائماً أن يكون قدوةً.. ففتساءل إن كنت ممن يقرأ السطور وما وراءها. هو رجل طيب: نعم آمناً وصدّقنا، ولكن أليس له أخطاء؟ الصحابة رضوان الله عليهم، كان لهم أخطاء!! وهم من هم. رسول الله ﷺ كان له أخطاء، ثم جاء الوحي يصوّبها، فهل صاحبنا أفضل من هذا وذلك؟! أستغفر الله العظيم، لا، ليس الأمر كذلك، ولكن الشيخ أو المريدن يابون الحديث إلا عن الجانب المشرق وبشيء من المبالغة، ويسدلون الستار عن الجانب الآخر. هذه واحدة.

أما الثانية فقد رأيت الكثير الكثير من الشيوخ، ومن الكبار زعامةً يعبثون، ويتضحكون بخفة، بل وتصدر عنهم حركات وكلمات غير لائقة لمن هم في مقامهم، فإذا جاء المريدون أو من هم في حكمهم، قطّبوا جباههم، وزمّوا شفاههم، وتصنّعوا الجدّ، وصاروا يتكلمون بلغة أخرى مناقضة للأولى.

هذا الدور لا أستطيع تمثيله ولا أرضاه.

وقبل الانتقال إلى فقرة أخرى أقول:

إذا كتب الله لي العودة إلى سورية فيما تبقى لي من هذا العمر سأبقى أتشوّق للبلدان العربية التي سكنتها كشوقي إلى سورية التي حُرمت من دخولها قرابة نصف قرن.

ومما يجدر الإشارة إليه أن من أهم الأسباب التي دفعتني إلى كتابة هذه المذكرات: أبنائنا شباب هذه الأمة الذين سلكوا سبيل الدعوة إلى الله. هؤلاء هم أملي ورجائي بعد الله سبحانه وتعالى، وهم الذين فجّروا الثورات العربية المباركة في كل من اليمن، وتونس، ومصر، وليبيا، وسورية، وهم الذين سيفجّرونها إن شاء الله في كل من العراق، ولبنان وفي بلدان عربية أخرى، وأشهد بأنني تعلمت من صدقهم وعزيمتهم وحسن تنظيمهم الشيء الكثير، لقد أتقنوا ما جدّ اختراعه في هذا العصر كالشبكات العنكبوتية، وأجادوا توظيفها في الإدارة والتنظيم والتخطيط، وهذه أمور لم تكن في عصرنا ولا نستطيع اليوم منافستهم بها لو أراد بعضنا. وإذا كان لكل زمان دولة ورجال، فهم رجال هذا العصر، وهم إن شاء الله رجال الدولة القادمة التي يكون الدين فيها كله لله.

سأحدّث هؤلاء الشباب في مذكراتي عن نشاطي في ميدان الدعوة إلى الله منذ عام ١٩٥٣م، وحتى كتابة هذه السطور، أي خلال ستين عاماً. وسأحدّثهم عن أخطائي وأخطاء الجماعات ليتجنّبوها، وسيكون هؤلاء الشباب أخطاء وكل ابن آدم خطّاء، وخير الخطّائين التوّابون. وسأحدّثهم عن مدرسة الحياة التي لا أزال أتعلّم فيها، وأيم الحق أنني تعلمت فيها أموراً لا تُحصى، ولم أعد أنا اليوم الرجل الذي كنته قبل عشر سنين، وقبل عشر سنين لم أكن الرجل الذي كنته قبل ذلك.

لقد وثقنا برجال كبار لا يستحقّون هذه الثقة، وولّينا أمورنا لمتفهمين يتحدّثون

بلغتين متناقضتين، وشغلنا بخلافاتنا فتسلل إلى صفوفنا مخربون هدامون.. وشغلنا في كثير من الأحيان الحسابات المادية، فقصرنا في اعتمادنا على الله سبحانه وتعالى.

وفي المقابل: لقد نهض جيلنا بواجب الدعوة إلى الله، وصدع بكلمة الحق في زمن ظنّ فيه دعاة التغريب أن الساحة كانت خالية لهم، ولا ينبغي لنا أن ننافسهم في الشؤون السياسية والحزبية، لأننا رجال دين ولا سياسة في الدين، وزيادة في السخرية كانوا يقولون: هؤلاء يريدون أن يدخلوا المجالس النيابية بالمسواك^(١) والقبقاب.

لقد تكالبت علينا قوى الشر والطغيان المحلية والعالمية، فكنا^(٢) أشدّ رسوخاً من الجبال، وصبرنا كما صبر أولو العزم من رسل الله صلى الله عليهم وسلّم. صبرنا وصابرنا على السجون والمعتقلات وعلى التجويع والنفي، وكان منا علماء ودعاة ستذكرهم الأجيال القادمة كما تذكر سعيد بن جبير، وأحمد بن حنبل، والعزّ بن عبد السلام، وابن تيمية.

وعندما علم الله صبر الصادقين من علمائنا ودعاتنا أهلك جلّ وعلا عدونا

(١) لأستاذنا الشيخ مصطفى السباعي رحمه الله خطبة رائعة في الرد على هذه المقولة، وصار الذين شهدوا أو سمعوا بهذه الخطبة يفخرون بالمسواك والقبقاب.

(٢) أعني كان جيلنا. ومن تسلّط عليه الأضواء يضطر لتفسير عبارات هي في أصلها واضحة، لكن الذين لا يخشون الله يفهمونها كما يريدون أن يفهموا.

وهو في أبهى زينته، وهزم بفضل منه أحزاب الشيطان: كالحزب الشيوعي، وحزب البعث العربي الاشتراكي، والحزب القومي السوري، وغيرهم وغيرهم.

أيها الشباب الدعاة: أكتب إليكم لتبدأوا من حيث انتهينا، وليس من حيث بدأنا، وأوصيكم بأن تدرسوا أموركم دراسةً جيدةً، وتُمعنوا النظر في تاريخ الأمم والشعوب كيف بدأت وكيف انتهت، وإياكم والتسرّع والغرور والثقة المفرطة بالذات، وإياكم أيضاً من النقيض: كالضعف والتردد، والإحجام عن اتخاذ القرار المناسب في الوقت المناسب.

أيها الشباب: ارفعوا سقف مطالبكم، ولكن لتكن حساباتكم دقيقةً، واستفيدوا من تجربتنا، ومن تجارب غيرنا، وللعلم في النهاية لستم ملزمين إلا باتباع نهج رسول الله ﷺ، قال جلّ وعلا: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾.

وخلاصة القول: هذه هي الموضوعات التي من أجلها كتبت هذه المذكرات، وسوف أفصل القول في تغطيتها إن شاء الله، وهذا لا يعني أنني لن أخرج عنها. سيجدني القاريء الكريم حيناً أتحدّث عن أعلام هذا العصر، وحيناً آخر سيجدني أناقش أقوال بعض الفرق وأقوال بعض رموزها، وفي غير ذلك وتلك سيجدني مؤرخاً أو باحثاً ومحللاً سياسياً، ولن يكون ذلك على حساب ما ألزمت به نفسي. ليتركني القاريء الكريم حراً طليقاً وأرجو أن يكون في ذلك مزيداً من الفائدة.

الاسم والنسب

الاسم والنسب

محمد سرور بن نايف بن عبد الغني بن عبد الفتاح بن حسين بن زين العابدين بن عبد الرحمن بن زين الحريري ... وتنتهي هذه السلسلة بالحسين بن علي بن أبي طالب، ومن أسماء الجدود التي ترد في شجرة النسب: زين وزين العابدين وسرور وهو الجد الذي يلي العاشر، ثم إبراهيم المرتضى وموسى الكاظم وجعفر الصادق.

كان أهلنا يسكنون مكة المكرمة، وفي سنة ٣١٧هـ الموافق ٩٢٩م ارتحل جدنا حسن رفاعه بن المهدي بن محمد بن حسن القاسم من مكة ميمماً نحو الغرب، وكان ذلك في عهد الخليفة العباسي المقتدر بالله فراراً من القرامطة الذين عاثوا في الأرض فساداً، واستهدفوا بالمقام الأول أشراف مكة فأوقعوا فيهم مذبحه كبيرة، وتفصيل ذلك معروف في كتب التاريخ.

حطَّ جدنا رحاله في مدينة اشبيلية بالأندلس بعد عناء رحلة طويلة وشاقة، وكانت الأوضاع في الأندلس أفضل مما هي عليه في العراق والحجاز، حيث كان عبد الرحمن الناصر قد أعلن تأسيس الخلافة فيها سنة ٣١٦هـ الموافق ٩٢٨م وكان حازماً ذكياً عادلاً.

تدهورت الأوضاع الأمنية في إشبيلية إثر انهيار دولة الخلافة، وقيام عهد الطوائف (٤٠٠-٤٨٤هـ) الموافق (١٠٠٩-١٠٩١م)، فاضطرت مجموعة من الأشراف خلال النصف الثاني من القرن الخامس الهجري إلى الهجرة نحو الشرق وكان بينهم جدنا حسن بن محمد عسلة الذي نزل في مدينة البصرة، وكانت أوضاع

العراق مستقرةً بفضل هيمنة السلاجقة وتغلبهم على البويهيين في عهد الخليفة العباسي القائم بأمر الله الذي أعاد للخلافة هيبتها، وتمكّن من القضاء على الفتن والقلاقل.. واستمرّ وضع العراق على هذه الحال إلى أن اجتاحت التتار بلدان العالم الشرقي التي تدين بالإسلام، وأخذت الممالك تتهاوى أمام الغزو المغولي وانتشر الرعب بين الناس ففرّ كثير منهم طلباً للأمن والاستقرار، وكان من هؤلاء جدّنا علي برهان الدين أبو النصر الحريري (٦٢٠هـ/١٢٢٣م) بن عبد المحسن بن عبد الرحيم بن سيف الدين عثمان بن حسن المهاجر من إشبيلية، ولُقّب علي برهان الدين بالحريري نسبة إلى حرير وهي بلدة قريبة من البصرة وهو الذي اتجه نحو الشام ونزل في بصر وهي قرية من قرى حوران وصارت تسمى بصر الحرير، وأعقب ذرية انتشرت في بصر الحرير ثم في العديد من قرى حوران^(١).

(١) انظر إن شئت كتاب: أنساب السادة الحريرية، دراسة وتحقيق الدكتور بشير زين العابدين، دار الجابية.

وقفات:

الوقفة الأولى: اهتم العرب بالأنساب قبل الإسلام وبعده، وكان أبناؤهم يحفظون نسبهم وهم لم يبلغوا الحلم، ومن مزايا أبي بكر الصديق الكثيرة التي تفوق بها على غيره أنه - وكما تقول كتب السيرة النبوية - كان من أعرف العرب بالأنساب العرب، وعن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال:

«تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثرة في المال، منسأة في الأثر»^(١).

وامثالاً لأمر رسول الله ﷺ، فقد اهتم علماءنا بالنسب في القديم والحديث، ولهم في ذلك مؤلفات قيمة.

وما كان لي وأنا أدون سيرتي الذاتية أن أتجاهل الحديث عن نسبي، ولكنني أعلم جيداً أن تكلفة الانتساب لآل بيت رسول الله ﷺ باهظة الثمن، إذ لا بد لمن كان هذا نسبه أن يتأسى برسول الله ﷺ وعلى آله وصحبه وسلم في أخلاقه، وأدبه وعبادته وفي سائر أمور حياته، والناس ينظرون ويراقبون، فإذا استوى رجلان في المعصية كان نقدهم لمن ينتسب لآل البيت أشد.

وأعلم كذلك أن الانتساب لآل البيت لا يُدخل المرء الجنة، ولا ينقذه من النار إن كان من أهلها، وهذا ما حرص رسول الله ﷺ على توضيحه لعشيرته الأقربين

(١) رواه الترمذي في السنن، وأحمد في المسند.

في أول بيان له عند الجهر بالدعوة. عن أبي هريرة: قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عليه: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٣١٤) [الشعراء] فقال: «يا معشر قريش، اشتروا أنفسكم لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا بني عبد المطلب لا أغني عنكم من الله شيئاً، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً، يا صفية عمه رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً، يافاطمة بنت رسول الله سليمان ما شئت من مالي لا أغني عنك من الله شيئاً» (١).

وكان أبو طالب من أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ يحيطه بجميل عنايته، ويذود عنه الأذى، ويعرف صدقه فيما يدعو إليه، ولكن مكانته في قريش، ووفاءه للآباء والأجداد، وخشيته من دعاية المشركين وهم أعيان أهل مكة.. كل هذه الأعراف والتقاليد حالت بين أبي طالب وبين إعلان الإسلام، فحزن رسول الله ﷺ على عمه أشد الحزن، فكان يستغفر له بعد موته، فأنزل الله قوله تعالى: ﴿مَا كَانِ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة].

وقوله تعالى:

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (٥٦) [القصص].

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

وفي صحيح البخاري عن العباس بن عبد المطلب، قال للنبي ﷺ: ما أغنيت عن عمك كان يحوطك ويغضب لك، قال: «هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار»^(١).

والضحضاح ما يبلغ الكعب والمعنى أنه خفف عنه العنف، وفي رواية لمسلم: «إن أهون أهل النار عذاباً أبو طالب له نعلان يغلي منهما دماغه».

وفي حديث رواه مسلم في صحيحه أن رجلاً قال يا رسول الله أين أبي؟ قال: «في النار»، فلما ولى دعاه فقال: «إن أبي وأباك في النار»، وهكذا لما أراد رسول الله ﷺ أن يستغفر لأمه نُهي عن ذلك، ولكنه أذن له أن يزور قبرها. ومن جميل الشعر:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه فلا تترك التقوى اتكالا على النسب
فقد رفع الإسلام سلمان فارس وقد وضع الشرك الشريف أباهب

الوقف الثانية: ما أشبه اليوم بالبارحة:

ففي البارحة: اجتاحت القرامطة المشرق العربي في بداية القرن الرابع الهجري وما تركوا قبيحاً إلا وفعلوه، ومن ذلك قتلهم الحجاج في المسجد الحرام، وقلع الحجر الأسود وإنفاذه إلى مركزهم في هجر، وقلع باب البيت ثم أخذ كسوته وتقسيمها بين قائدهم أبي طاهر الجنابي وكبار قادة جيشه.

(١) صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قصة أبي طالب.

وخرج إليهم أمير مكة في جماعة من الأشراف، فقاتلوهم، وأسفرت المعركة الشرسة عن قتل القرامطة للغالبية العظمى من الأشراف. والذين ارتحلوا إلى الأندلس وغيرها هم البقية الباقية التي سلمت من القتل.

وفي يومنا هذا: رفع ثوار الخميني منذ استلامهم حكم إيران في عام ١٩٧٩ م شعار [تصدير الثورة] بطريقتهم المشهورة، فهذا يثبت وذاك ينكر، وكان العراق أول بلد حاولوا ابتلاعه.. وهُزموا بعد حرب دامية استمرت منذ عام ١٩٨٠ م وحتى عام ١٩٨٨ م.. وفرحنا بهزيمتهم ثم شُغلنا بأنفسنا وأمور دنيانا، وبعضنا من شدة غبائه وعظيم غفلته اعتبر حربهم مع العراق خلافاً بين دولتين، والحق كل الحق مع إيران الإسلامية التي تواجه نظاماً علمانياً بعثياً، وما أكثر هؤلاء الذين لا ينظرون إلى أبعد من أرنبه أنوفهم.

رافضة إيران بلعوا الهزيمة ثم انصرفوا إلى معالجة أسبابها والتخطيط الجاد لما بعدها، وكنا نبصر تخطيطهم وتحالفهم مع الأمريكان وحلفاء الأمريكان!! وكان هؤلاء الأمريكان يطمئنون أصدقاءهم من ولاية الأمور في بلادنا ويقولون لهم: صدام حسين ونظامه لا يزال يشكل خطراً على دول الخليج ولم يعتبر من هزيمته في الكويت، ونحن نعمل من أجل قصصه أجنحته وتدمير الأسلحة الخطيرة التي يمتلكها.

وجاءت الظروف المناسبة عندما أقدمت [القاعدة] على تدمير مركز التجارة العالمي، وضرب الولايات المتحدة في عقر دارها، فهياً النظام الإيراني الوسائل التي

يحتاجها الأميركيان منهم - في تحالف مكشوف اعترف به قادة الآيات - لاحتلال أفغانستان، وسقط نظام طالبان عام ٢٠٠١ م الذي يعتبر أكبر عدو لإيران، ولم تكن طالبان شريكاً للقاعدة، ولكنها رفضت تسليم قادة القاعدة، كما رفضت طردهم من أفغانستان.

وقويّ التعاون الإيراني الأمريكي واشتدّ عودته، وكانت إيران ممثلةً في المؤتمرات التي تعقدها المعارضة العراقية، وشيعة العراق ومراجعهم كانوا مركز الثقل في هذه المعارضة التي شاهدناها تسير أمام قوات التحالف الأمريكي وتدلها على مواطن الخطر، ثم شاهدناها ترتكب أبشع الجرائم بأهل سنة العراق دون أدنى مراعاة لروابط القرى والمواطنة والجوار.. إنها أيام كأيام التتار فلا هم تغيّروا، ولا أهل السنة استيقظوا من سبات نومهم العميق واستفادوا من أخطائهم... ومنذ عام ٢٠٠٣ م والحكم الفعلي في العراق لشركة إيرانية أمريكية، وأسهم الإيرانيون أكثر عدداً. وبعد خروج قوات الولايات المتحدة الأمريكية النسبي، انفردت إيران وشيعتها بحكم العراق مع مراعاة تامة للمصالح الأمريكية.

ومن المعروف أن بغداد مدينة سنّية وكذلك الحزام الذي يحيط بها من المدن والأرياف، إلا أن الرئيس العراقي السابق عبد الكريم قاسم جاء بمجموعات منهم وبنى لهم حياً واسعاً في شرق بغداد، وكانوا من قبل قلةً فيها فتضاعف عددهم، وبعد الاحتلال بدأ الإيرانيون وشيعتهم بالعمل الحثيث من أجل تغيير الخريطة السكانية للعاصمة وما حولها، وكان أول ما فعلوه شراء العقارات في

أحياء السنة بأسعار مضاعفة.. وإجبار الأقلية السننية في الأحياء الشيعية على بيع منازلهم بأسعار مغرية.. ومخططهم هذا ليس قاصراً على بغداد وما حولها، وإنما يشمل العراق كله.

وفي لبنان أصبح شيعتها يتحكمون بنظامها وشؤون الحكم فيها منذ أكثر من ثلاثين عاماً بعد أن كانوا من قبل نسياً منسياً، وعندما قويت شوكة الحزب الإيراني منذ عشرين عاماً [حزب الله]، وأصبح جيشه أقوى من الجيش اللبناني بعدده وعتاده، صار لبنان كله ألعوبة بيده، وقرار هذه الدولة الضعيفة بيد آيات طهران، ويُطبَّق في بيروت بعد نقاش ديمقراطي مزيف.

أما سورية ويا لهول ما يرتكبه الجناة فيها، فلقد سيطر القرامطة الجدد [النصيريون] على شؤون الحكم منذ قرابة نصف قرن، وفي مطلع السبعينيات من القرن الماضي، تحالفوا مع إيران بعد حوار بين الطائفتين أعلنوا في نهايته بأنهم أبناء طائفة واحدة، وليس هذا بصحيح، وإنما هو تحالف سياسي بثوب طائفي. وبعد مضي أربعين عاماً، فقد ثبت أن هذا التحالف تترسخ عراه يوماً بعد آخر، ولا أدري كيف غفل قومي عن هذا الأمر ولم يقدره حق قدره.

وإذاً: فقد أصبحت إيران صاحبة القرار في كل من العراق وسورية ولبنان، وأصبح حسن نصر الله زعيم حزب الله يقول في تصريح له تناقلته وسائل الإعلام: نحن [حزبه وشيعته] في لبنان ننفذ ما يأمرنا به الولي الفقيه خامنئي... وأصبح أهل السنة في هذه الدول الثلاث مستضعفين لا حول لهم ولا قوة مع أنهم الأكثرية

فيها، وفضلاً عن ضعفهم فهم متفرقون ولم تبرز فيهم قيادة في مستوى حاجتهم إلى توحيد صفوفهم، ثم مواجهة الأخطار التي تحيط بهم.. وأصبح الهلال الشيعي الذي يبدأ من إيران وينتهي بالبحر الأبيض المتوسط أكبر خطر يهدد العرب كلهم، كما يهدد كل أهل السنة.

ولتذكير من ينسى وينسى أنه ينسى، فإن إيران خلال القرن الماضي وبالتعاون مع الإنجليز سيطرت على الأحواز العربية الغنية بالنفط، كما سيطرت على جزر عربية هي جزء لا يتجزأ من اتحاد الإمارات العربية، وتعمل دون كلل أو ملل من أجل احتلال البحرين، ومبعث الخطورة في هذا الأمر شيعة البحرين الذين يقارب عددهم نصف السكان، ويرتبطون بنظام الآيات أشد الارتباط، ويعملون بكافة الوسائل غير المشروعة من أجل أن يكون بلدهم مقاطعة إيرانيةً ويحكمه الأكاسرة الجدد، ولا أدري والله من أستثني من شيعة البحرين، فهل أقول: ١٠٪ أو ٥٪؟ مرة أخرى أقول لا أدري، غير أن الانتخابات النيابية لا تشير إلى وجود مثل هذه النسبة.

وأما في الحجاز فأبى الإيرانيون إلا تذكيرنا بما فعله بنو عمومتهم القرامطة، وذلك عندما اتخذوا من حج بيت الله الحرام مناسبةً لأعمال شغب ليس لها أدنى علاقة بشعائر الحج، وأخذ شغبهم يزداد عاماً بعد آخر، حتى جاء عام كان معظم الحجاج الإيرانيين من الحرس الثوري، وفي اليوم الموعود خرجوا بمظاهراتهم التي ابتدعوها وسموها [البراءة]، وانضم عدد كبير من الشيعة غير الإيرانيين إلى المظاهرة، وكانوا في هتافاتهم الصاخبة يتحدثون مشاعر الحجاج السنة ومشاعر

الدولة المضيئة، وكان لا بد من الاشتباك بالأسلحة البيضاء الذي أسفر عن وقوع مئات القتلى والجرحى... وكان شغبهم هذا الفرصة المناسبة ليطالبوا المحافل الدولية بتدويل الحرمين لأنهما للمسلمين جميعاً وليس لآل سعود، ولكن الله جلّت قدرته أبطل سعيهم وكفانا شرهم، وحسى بيته الحرام.. ومسرف في الخطأ من يظن أنهم لن يعيدوا الكرة أو أنهم لا يخططون لهذا ولغيره.

وقصارى القول: فإن مبدأ تصدير الثورة قناعة مطلقة تجري في دماء الأكاسرة الجدد من آيات طهران وقم، وفي دماء تابعيهم من رافضة العالم الإسلامي. وعدوهم الأول الذي لا يُقدّم عليه أي عدو أهل السنة والجماعة. ولهذا فهم لا يترددون في تعاونهم مع كل من يعادي العرب وأهل السنة من غير العرب.

إن القوم يحيطون بنا من كل جانب، ويمكرون بنا مكر الليل والنهار، وبلغوا مبلغاً خطيراً في امتلاك الأسلحة الحديثة والخطيرة... وواهم من حكامنا من يظن أنه سيحل مشكلته معهم بالمداينة. وليعلم جميعنا أن معركةً فاصلةً ستجري بيننا وبينهم وهم المعتدون فيها، وإن لم نُعدّ لهذه المعركة كل ما نقدر عليه فإن أوطاننا وأموالنا وأعراضنا وأرواحنا وقيمنا مهددة.

الوقف الثالث: ادّعاء النسب:

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول:

«ليس من رجل ادّعى لغير أبيه - وهو يعلمه - إلا كفر بالله، ومن ادّعى قوماً

ليس له فيهم نسب فليتبوأ مقعده من النار»^(١).

ومن ادعى الانتساب لأهل بيت رسول الله ﷺ [العيديون] الذين حكموا المغرب العربي ومصر (٢٩٦-٥٦٧هـ).

قال السيوطي: سمتهم جهلة العوام بالفاطميين، وإلا فجدّهم مجوسي.

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني: القدّاح جد عبيد الله الذي يسمى بالمهدي كان مجوسياً، ودخل عبيد الله المغرب، وادّعى أنه علوي، ولم يعرفه أحد من علماء النسب، وسماهم جهلة الناس الفاطميين.

وقال ابن خلكان: أكثر أهل العلم لا يُصحّحون نسب المهدي عبيد الله جدّ خلفاء مصر، حتى إن العزيز بالله بن المعز في أول ولايته صعد المنبر يوم الجمعة فوجد هناك ورقة فيها هذه الأبيات:

إنّا سمعنا نسباً مُنكراً يُتلى على المنبر الجامع

إن كنتَ فيما تدّعي صادقاً فاذكر أباً بعد الأب السابع

وإن تُردّ تحقيق ما قلته فانسب لنا نفسك كالطائع

أولادع الأنساب مستورة وادخل بنا في النسب الواسع

(١) صحيح البخاري.

فإن أنساب بني هاشم يقصرُ عنها طمعُ الطامع

قال الذهبي: المحققون متفقون على أن عبيد الله المهدي ليس بعلوي، وما أحسن ما قال حفيده المعز صاحب القاهرة - وقد سأله ابن طباطبَا العلوي عن نسبهم - فجذب نصف سيفه من الغمد وقال: هذا نسبي، ونثر على الأمراء والحاضرين الذهب وقال: هذا حسبي^(١).

هؤلاء العبيديون الذين اختلف علماء الأنساب في اسم جدّهم، ويطرّجّح عند أكثرهم أنهم مجوس أو يهود ادّعوا أنهم من نسل فاطمة بنت رسول الله ﷺ، ووجدوا من يُصدّق مقولتهم.. وعلى هذا المنوال ملايين الرافضة من العرب والعجم، وصار الواحد منهم لا يذكر اسمه إلا ويسبقه وصف السيد.. وإذا كان هؤلاء يكذبون على الله في أمور الدين والاعتقاد فكيف نصدّقهم في ادّعاء نسب لا يستطيعون إثباته، فهذا إمامهم وزعيم ثورتهم روح الله الخميني يدّعي ويدّعون معه أنه من السادة!!.

كيف وأي سادة؟!.

فهناك غموض في أصله وفصله، قالوا هو من شبه القارة الهندية - كشمير - ثم استوطن أحد آبائه إيران.. من هو الجدّ الذي هاجر من كشمير إلى إيران؟ هناك غموض، ولا نعرف إلا اسم أبيه مصطفى، ومن ثم فهو ينسب إلى البلدة التي أقام

(١) انظر تاريخ الخلفاء لجلال الدين السيوطي، وتاريخ الحافظ الذهبي.

فيها خمين، فأين هذا النسب الشريف؟! هذا الغموض استوقف كثيراً من الباحثين الإيرانيين، ومنهم موسى الموسوي.

قام البريطانيون أثناء استعمارهم للعراق بتوطين مجموعات من الهنود والإيرانيين في شرق العراق، ويُطلق العراقيون على هؤلاء اسم الشروك أو الشروق... وإلى عهد قريب لم يُمنحوا الجنسية العراقية، ثم خدمتهم الظروف الطائفية والسياسية التي يمرّ بها العراق فمُنحوا الجنسية وصاروا من المشاركين في الحكم.. ولم يكتف هؤلاء بما حصلوا عليه من مكاسب، بل نسبوا أنفسهم إلى قبائل عربية عريقة، وصار مشتاق!! من قبيلة ربيعة.

* ولدتُ في قرية [تسيل] عام ١٩٣٨م. أما في أي يوم وشهر فأنا السبب في ضياعه، لأنني بينما كنت أتصفح ما يحتفظ به والدي رحمه الله من أوراق قرأت في مفكرة عام ١٩٣٨م ما كتبه عن يوم ولادتي، فنزعت الورقة من شدة اهتمامي بها وظننت أن ما فعلته السبيل الأفضل للاحتفاظ بها، ثم فقدتها وشاء الله أن أبتعد عن والدي وأوراقه. واسمي سرور، ومن عادة أهل بلاد الشام أن يضيفوا لمثل هذا الاسم محمداً تبركاً كقولهم: محمد سرور، محمد سعيد، محمد خير، محمد ربيع وهكذا، وهذا سبب لي مشكلةً عندما اشتهر اسمي، حيث صار الناس عندما يكتبون عني أو يراسلونني يكتبون محمد بن سرور لأن الناس في بعض البلدان العربية لا يعرفون الاسم المركب، وساءني أن أكون سروراً ثم يجعلني الناس ابناً لسرور، فسارعت إلى تصحيح هذا الخطأ وصرت أمهر مقالاتي وكتبي ومجلة

السنة التي أصدرتها، وكتب الله لها أن تعيش أكثر من خمسة عشر عاماً: محمد سرور بن نايف زين العابدين، وعندما تصلني رسالة أتعمد الرد عليها فوراً لأقول لمرسلها يا أخي أرجوك خاطبني مرة ثانية باسمي الصحيح، ومن طريف ما يحدث أن البعض يتكلم بزيارتي، ويخاطبني في مجلس باسم محمد بن سرور، ويعود بعد أن أصحح له هذا الخطأ لتكراره -ناسياً- مرة أخرى.

أما قريتي تسيل فتقع في الجنوب الغربي من سوريا، ويجاورها من الشمال قرية الجابية^(١) على بعد خمسة أميال، يقول صاحب معجم البلدان:

(.. وفي هذا الموضع خطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطبته المشهورة.. ويقال لها جابية الجولان أيضاً.. وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

متعنا رسول الله إذ حلَّ وسطنا على أنفٍ راضٍ من معدِّ وراغم

منعناه لما حلَّ بين بيوتنا بأسيا فنا من كل باغٍ وظالم

بيت حرير عَزُّه وثوراؤه بجابية الجولان بين الأعاجم

هل المجد إلا السُّودُّ العودُ والندى وجاه الملوك واحتمال العظام؟^(٢)

(١) هكذا كانت، أما اليوم فهي خربة، وليس فيها منازل، ولا من يسكن المنازل.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي، دار الكتب العلمية (١٠٦/٢).

كما يجاورها من الشرق مدينة نوى وقرية الشيخ سعد، والمسافة بينهما وبين تسيل لا تتجاوز أربعة أميال. ومدينة نوى بلد الإمام النووي رحمه الله، ففيها وُلد، وفيها دُفن، أما قرية الشيخ سعد، فهي نسبة إلى الصحابي سعد بن عبادَةَ رضي الله عنه الذي كان سيد الخزرج، وشهد العقبة مع السبعين من الأنصار، وشهد أحداً والخندق وغيرهما، وكان أحد النقباء الاثني عشر، ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم طمع بالخلافة، ولم يبايع أبا بكر، فلما صار الأمر إلى عمر عاتبه، فقال سعد: كان والله صاحبك أحبَّ إلينا منك، وقد والله أصبحت كارهاً جوارك، فقال عمر من كره جوار جاره تحوّل عنه. فلم يلبث سعد أن خرج إلى الشام مهاجراً، فمات بحوران ^(١).

ويجاورها من الجنوب نهر اليرموك، وما أدراك ما نهر اليرموك؟ نهر اليرموك الذي شهد معركةً فاصلةً بين المسلمين والروم، انتهت بهزيمة الروم هزيمةً منكرةً، ودخل أبو عبيدة الجراح وخالد بن الوليد وجيشهما أرض الشام فاتحين. نهر اليرموك يبعد عن تسيل حوالي سبعة أميال، ويصبُّ فيه وادي العلان الذي يعتبر رافداً من روافده ويجري في أراضي تسيل.

ويجاورها من الغرب بحيرة طبريا وخطين التي شهدت معركة كبرى بين جيش المسلمين الذي كان يقوده صلاح الدين الأيوبي وجيش الصليبيين، وكانت هذه المعركة التي انتصر فيها صلاح الدين بدايةً لفتح القدس وتطهيرها من دنس الصليبيين.

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد (٣/٦١٣)، دار بيروت للطباعة والنشر، وكتاب الأعلام،

خير الدين الزركلي: (٣/١٣٥).

وفي قرיתי تسيل التي لا تبعد عن حطين أكثر من ثلاثين ميلاً اجتمعت عساكر صلاح الدين، وفيها جرى الإعداد لخوض هذه المعركة الكبرى.

يقول صاحب كتاب الروضتين:

(.. ثم عرض السلطان منتصف ربيع الآخر على تل يعرف بتل تسيل ورتبهم، واندفع قاصداً بلاد العدو في وسط نهار الجمعة، وكان أبداً يقصد بوقعاته الجموع، لا سيما أوقات صلاة الجمعة تبركاً بدعاء الخطباء على المنابر، فربما كانت أقرب إلى الإجابة)^(١).

تل تسيل الذي لا يبعد عن تل الجابية أكثر من ميلين صار يسمى [تل الجموع]، وهي تسمية معبرة أعظم التعبير وأدقه:

-إنها الجموع التي كان القادة المظفرون يستعرضونها قبل خوض معاركهم.

-إنها الجموع التي هزمت الروم والتتار وجحافل الصليبيين.

-إنها جموع تذكّرنا بالانتصارات في زمن الهزائم.

قال أصيحابي: لقد أنعم الله عليك في غربتك، ورزقك ما كنت تفتقده في تسيل وحوران، أما تزال تحنُّ إلى هذه القرية البائسة المتخلفة؟!.

(١) كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، لشهاب الدين المقدسي المعروف بأبي شامة. الجزء الثالث - القسم الأول (ص: ٢٦٥). مطبعة دار الكتب المصرية.

مهلاً يا لائمي: ألا ترؤن على كل شبر من هذه الأرض التي أحنّ إليها وقف صحابي جليل، وضمّ تراها شهداءهم الذين جاءوها يبحثون عن إحدى الحسينيين الموت أو النصر.

-أليست هي أرض الرباط التي باركها الله، وعلى مقربة منها ينزل المسيح عليه السلام، وقال ﷺ: «عليكم بالشام».

وفضلاً عن هذا وذاك فإنني أحبها، وأحب ذكرها، ولا غرابة في ذلك فقد يحب المرء امرأةً ذميمةً وتسيل ليست كذلك - ثم تراه لا يجد السعادة إلا في قربه منها.

بلادي التي أهلي بها وأحبتي وروحي وقلبي والمنى والخواطر

تذكّرني أمجادها ووهادها عهداً مضت لي وهي خضر نواضر

دارنا من الداخل

دارنا من الداخل

لا أعرف متى غادر جدودي بصر الحرير واستوطنوا تسيل، كما لا أعرف تاريخ هذه القرية ومن كان يسكنها، والذي علمته من كبار أهل القرية أن مسجدها كان كنيسة أيام الرومان، وزالت آثار الكنيسة عند تجديد بنائه، وورد اسم تسيل وما حولها أيام حروب المسلمين مع الصليبيين، وقبل هذه الحروب وبعدها.. وأهلي الذين استوطنوا تسيل، استوطنوا قريتي سحم الجولان وعدوان وكانوا شيوخاً لهذه القرى الثلاث، وكانوا يتوارثون هذه المشيخة حتى جاء هذا النظام الطائفي، وركب حماراً اسمه حزب البعث العربي الاشتراكي حيث كان سييله إلى الحكم، فأقصاهم، وكنت بفضل من الله سبب عداوة هذا النظام لآل زين العابدين. هذا ولا يزال الناس في تسيل حتى اليوم يطلقون على بعضنا وصف الشوخ وليس الشيوخ، لأنهم يأكلون الياء أو لا يعترفون بها، فيقولون: دار الشوخ أو حارة الشوخ أو أحمد الشوخ وهكذا.

جدي عبد الغني رحمه الله كان له ثلاث زوجات: صبحة اليوسف زين العابدين ولها من الأولاد: تهامي، وحمزة، وعباس، وأحمد، وعبد الفتاح، وابنة واحدة اسمها ذهبية.

وصبحة ارشيد الحريري من قرية عدوان، وهذه جدتي ولها ولدان: نايف [والدي] وحسين وهو أصغر إخوانه، وهو في سن يقارب سن ولدَي أخيه تهامي وحمزة. والثالثة ريمة الفضيل وكانت عقيماً.

كان أعمامي يسكنون داراً واحدة تجمع هذا العدد الكبير من الأبناء والأحفاد والعمّال والحراثين، ثم استقل ولداً صبيحة ارشيد بقسم من الدار، وفيها ولدتُ كما وُلد معظم إخواني وأبناء عمي حسين.

دار عبد الغني كانت تُعدّ مركز القرية، ولم تعد اليوم كذلك، وهي ملاصقة للمسجد، وأمامها ساحة واسعة يجتمع فيها أهل القرية إذا كان هناك ما يدعو لذلك.. وشأن هذه الدار كشأن الدور الكبيرة في حوران، مبنية من الحجر الأزرق أو قريب في لونه من الزرقة حيث تكثر [مقاطعه] في هذه المنطقة، ولهذه الدار باب كبير تليه مضافة تبدو وكأنها معزولة عن الدار ونسائها وأطفالها، ويلى المضافة على يمين الداخل اصطبل كبير [باكة] يتّسع للحيوانات ومؤنّتها من التبن، وللعمال [الحراثين]، وتنتهي الدار بغرف، ولكل عائلة غرفة واحدة، فيها ينام الزوجان وأولادهما. وبعد الوصف العام للدار، نأتي إلى شيء من التفصيل: أي شكل الحياة في الدار، ووظيفة كل فرد فيها:

١ - قيادة الدار: كانت أمور الدور الكبيرة منظمّة، وتوزّع المسؤوليات فيها بين الإخوة أو بين الوالد وأبنائه، ففي دارنا الأولى كانت موزعةً على الشكل التالي:

* الذي يتولى شؤون المضافة وهو المسؤول الأول عن الدار: يستقبل الضيوف، ويشرف على خدمتهم، وهو الذي يتعامل مع أهل القرية، ومع الدولة وأهل القرى الأخرى، وتتناسب مسؤوليته مع مكانة الدار ومع قدرته على إقامة العلاقات. وكان عمي حمزة هو الذي يتولى هذه المهمة، كما كان شيخاً للقرية، ووجيهاً من وجوه حوران.

* وعمي تهامي وهو أكبر سنّاً من حمزة، كان يشرف على زراعة الأراضي وحصادها وسائر شؤون استثمارها وعلى الحرّاثين والحصّادين وأهل الدار الذين يشاركون في هذه الأعمال.

* وكان الجمّال عمي أحمد، والجمّال كانت وسيلة الاتصال بين المدينة والقرية، ومثلها كمثّل السيارات اليوم، وتبقى القرية مقطوعةً عن العالم حتى تأتي قافلة الجمّال محمّلةً بالبضائع والرسائل وأخبار سورية وغيرها، لا سيما وأن الراديو لم يكن قد انتشر.. وبالعكس عندما تنطلق القافلة من القرية إلى المدينة فإنها تنقل المنتوجات الزراعية.

أما في دارنا التي ولدت فيها فقد كان والدي المسؤول الأول فيها، وكان عمي حسين المسؤول عن كل ما يتصل بالزراعة والحصاد.

٢- سيدة الدار صبحّة ارشيد: ويسمونها الرشيدية لشهرة هذا الاسم ولتمييزها عن غيرها ممن يحملن اسم صبحّة، غادرت هذه الدنيا وأنا بين الثامنة والعاشر من عمري. كانت جيّاشة العواطف، والدنيا عندها ولداها وأحفادها، لم تُرزق بنات. مهذبة رقيقة لم أرها تخاصم أحداً أو تضرب طفلاً من أحفادها أو ممن كانوا في مثل سنهم من الأطفال.

كان ولداها نايف وحسين يتسابقان في خدمتها والإحسان إليها وتقديم كل عون ومساعدة لها. والقول عندهما وعند أهل الدار جميعاً ما تقوله هذه المرأة.

وكانت مشهورةً وتتميز عن قريناتها من نساء القرية بميزتين:

الأولى: أنها لم تشارك في أعمال الزراعة والحصاد، كما أنها لم تزاول الأعمال الشاقة في الدار: كجلب المياه من الآبار، وخدمة الأغنام والأبقار وغير ذلك، وكما فهمت من أمي كان هذا هو شأنها منذ كانت شابةً. كانت رحمها الله وكأنها من نساء أهل المدينة.

الثانية: لم يكن لها إخوة، وورثت عن أبيها ارشيد أكثر من ألف^(١) دونم من الأرض الطيبة المعطاة، وانتقلت ملكية هذه الأرض إلى أبنائها وأحفادها، ومما يجدر ذكره أن أهل حوران كانوا لا يُورثون المرأة.

كنت ألقى من جدتي كل حب وحنان، ومما أذكره لها أمرين يصعب عليّ نسيانها:

الأول: لأمر ما أو لآخر اقتادتني من يدي، وأدخلتني غرفتها ثم فتحت [المطوى]^(٢)، وأخرجت لي نوعاً من الحلوى الفاخرة، وجلست أزدردها ببطء، وكانت عيني تُشَرِّق وتُغَرِّب على أنواع الحلويات الأخرى في هذا المطوى الذي لا يزال مفتوحاً، كنت أبيتُ أمراً ما.. خرجت جدتي لقضاء بعض شأنها ونسيت المفتاح في المطوى، ولم يكن هذا من عاداتها فأينما ذهبت تصطحب معها المفاتيح التي

(١) الدونم: ألف متر مربع.

(٢) صندوق من الخشب متقن الصنع، وكان يعد من جهاز العروس.

تخصها.. راقبت جدتي عندما غادرت غرفتها ثم اخترت نوعين من هذه الحلويات، ومضيت بهما إلى الفرن الذي لا يدخله أحد في مثل هذا الوقت.. ثم سارعت إلى دعوة أقراني من أهل الدار دون إثارة انتباه أحد، ثم جلسنا سووية نلتهم ما لذ وطاب من هذه الحلويات.

عادت جدتي فوجدت الدنيا غير الدنيا التي تركتها: أفعلها هذا الغلام؟ وأين هو؟ راحت تبحث عنه في أرجاء الدار الواسعة، ولم يبق إلا الفرن، وكان يتبعها أهل الدار. وقفت عند باب الفرن ثم نظرت إلى وليمة سرور الفخمة، وإلى ضيوفه الكرام من الجنسين.. توثبت للهروب وأنا مدرك لخطورة فعلتي التي ارتكبتها وللخطوط الحمراء التي تجاوزتها، غير أنها أمسكت بي وقبّلتنني وهي تضحك، وأعادتنني إلى المائدة وطمأنت ضيوفي الكرام، وكانت ومعها نساء الدار في حالة من السرور يعجز عنه الوصف، وهن يتندرن بكرم سرور الحاتمي، وعظيم اهتمامه بضيوفه.. ثم صارت في دارنا وعند جيراننا طرفة من طرائف العمر يرويها الكبار للصغار الذين وُلدوا فيها بعد.

أما أنا فلا شأن لي بأهل الدار جميعاً، فقد كنت محبباً لأقراني من أهل^(١) الدار من الجنسين ويجب أن نجوع معاً أو نأكل معاً.. هذا هو شعوري معهم وإن تخاصمنا وقاطع أحدنا الآخر لساعات.. وعندما درسنا في الأدب قصة الشعراء الصعاليك في الجاهلية تذكرت طفولتي غير أنني لم أكن شاعراً.

(١) أولاد نايف وحسين.

الثاني: في أحد أيام الأعياد كنت ألعب مع أبناء الحارة، وانقسمنا إلى جيشين يقودهما شقيقان من أبناء الجيران.. وأدت الاحتكاكات بين الجيشين إلى معركة حامية الوطيس وكان سلاحنا الحجارة، وكان كل فريق يريد أن يحقق انتصاراً كاسحاً.. وأنهى أحد الفرسان المعركة بحجر شجَّ به رأس القائد المظفر، وهُزم الفريق الذي يقوده القائد الجريح.. هذا الفارس الذي حقق انتصاراً هو أنا.. عدت إلى الدار خائفاً من أبي وليس من أحد غيره.. عدت أفكر بالحيلة التي سألجأ إليها لأتخلص من العقوبة.. وبينما كنت أضرب أحماسي بأسداسي دخل موكب ملفت للنظر، يتألف من القائد الجريح وأمه وأخيه كشاهد إثبات ومعهما شهود آخرون. وإنها لخيانة فبدلاً من أن يعطيني وسام^(١) الشجاعة والبطولة، جاء قائدي ليشهد ضدي وهو يعلم أن والدي سيسلخ جلدي.. كانت الأم تقود ابنها الذي بلّلت الدماء رأسه وملابسه، وتستثير نخوة نايف ضد هذا المجرم الذي فعل بابنها ما فعل، ونايف لا يحتاج إلى من يستثير نخوته.

كان رحمه الله إذا اشتد غضبه يتغير منظر العقال على رأسه، فطرفه في مقدمة رأسه والطرف الآخر في وسطه، وتصبح مشيته وكأنها رقصة حرب، وكان أهل الدار يعرفون هذا فيه.

ثرثرة أم الجريح أعطتني الفرصة المناسبة لحبك الحيلة الناجعة، وعندما التفت والدي نحوي قفزت من مكاني وجلست من وراء جدتي طالباً منها أن تجبرني، وكانت

(١) أناها هنا أتحدث بعقلية الطفل وبمشاعره.

رحمها الله ممددةً على فراشها تعاني من آلام مبرحة في مرض موتها، رفعت يدها وتمتمت بكلمات تعني أنها أجارتني، ومن الذي يستطيع الوصول إليّ بعد أن أجارتني؟! كنت خلفها مطمئناً غاية الاطمئنان، أنظاها بالخوف، ثم أختلس من طرف عيني نظرة إلى والدي وأعود فأطأطأ رأسي، ولسان حالي يقول: الحمد والشكر لك يارب الذي سخّرت لي هذا الملاك الذي أجارني، وأنت أيها الوالد الحبيب ارقص ما شئت رقصة الحرب، فالطريق بيننا طويل والحيل كثيرة، وإذا أغلق العبد باباً فتح الله أبواباً.

وبعد هذا الحدث المشهور الذي حققت فيه انتصارين: انتصاراً على جيش الخصوم، وانتصاراً آخر بعد نجاح حيلتي وحماية الجدة لي.. والعجيب أن كتب التاريخ تجاهلته.. أقول بعد ذلك بأيام اشتدّ المرض على جدتي ثم تُوفيت، وكان ذلك في بيت [كنا نقول عن الغرفة بيت] والدي، وبكيت عليها بحرارة لسببين: الأول لأنني رأيت والدي ولأول مرة يبكي، والثاني لأنني فقدت من كنت أحتمي به في الملمات، فيحمني ويغمرني بحنانه وعطفه، وفي اليوم الثاني كانت لها جنازة خرج فيها أهل تسيل وعدوان وحشد من أهل نوى، ولم أر من قبل مثيلاً لها. رحم الله جدتي رحمةً واسعةً وأسكنها فسيح جنانه.

٣- والدي وهاشم وحسين: والدي فوزة ابنة حامد السليمان زين العابدين، وكان أهلها شيوخ بلدة [محجّة] وبلدة [انخل]. ومحمد هاشم هو أخي الكبير، وحسين هو عمي وكان أصغر إخوانه. وهؤلاء مجتمعون هم أعمدة الدار. كانت أمي تكاد لا تجلس على الأرض من بعد صلاة الفجر وحتى العشاء وكان لها جميع شؤون الدار:

كحلب الغنم والأبقار، وصنع طعام الضيوف إلى جانب خدمة بيتها وأبنائها. وكل من حسين ومحمد هاشم لهم حراثة الأرض وزراعتها في فصل الشتاء، وفي الصيف لهم الحقل وحصاده، ثم البيدر، إلى جانب الإشراف على خدمة الحيوانات التي تستخدم في الفلاحة، وإدارة شؤون العمال واختيارهم، ودفع أجورهم. وكانت القيادة لعمي حسين، ولا يشاركه فيها محمد هاشم، وكانت جدتي دائمة الدعاء لهؤلاء الثلاثة، وتضيف الدعاء لبعض الحيوانات التي كُتِبَ لها الحياة زمناً طويلاً، وأبلى بلاءً حسناً في خدمتنا.

وإنما أوجزت في ذكر والدتي وأخي محمد هاشم، وعمي حسين لصلتهم بالدار، وسأعود إلى الحديث عنهم مرات ومرات.

٤ - الدّواب في دارنا: أرى البعض عندما نأتي على ذكر الحيوانات كالبغال والحمير والبقر واستخدامها في البيوت يضحك من فرط استغرابه. كيف يعيش الناس وحيواناتهم في دار واحدة، ومن ثم فهؤلاء لا يتصورون شيخاً جليلاً ويركب حماراً، أو زعيماً سياسياً ويركب بغلاً أو حماراً. لهؤلاء الذين ولدوا في نهاية الخمسينيات فما بعد من القرن الماضي نقول:

الحيوانات مخلوقات من مخلوقات الله الكثيرة التي سخرها لخدمة الإنسان. قال تعالى بعد حديثه عن خلق السماوات والأرض وخلق الإنسان:

﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٥﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْمَحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ وَتَحْمِلُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّئِذَا تَكُونُوا

بَلِّغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٧﴾ وَالْحَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ
لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَاءَهُمْ وَلَوْ
شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩﴾ [النحل].

إنها لفئات رائعة في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ
تَسْرَحُونَ﴾ وقوله: ﴿لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾ وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، ولكن
المجال لا يتسع لبيان بلاغة هذه الآيات وربطها بالمعلومات القليلة التي عرفتها عن
الزينة، وعن جمال الأنعام حين تعود من مرعاها ثم حين تنطلق إلى هذه المراعي في
صباح اليوم الثاني.

يحدثنا ابن القيم عن دواب رسول الله ﷺ، فيقول: كان عنده من الخيول سبعة
أولها السكب، وكان له من البغال ذُلْدُل، وكانت شهباء أهداها له المقوقس، وبغلة
أخرى يقال لها: [فضة] أهداها له فروة الجذامي..

ومن الحمير عُفِير، وكان أشهب، أهداه له المقوقس ملك القبط.

ومن الإبل القصواء، قيل: وهي التي هاجر عليها، والعضباء، والجدعاء، ولم
يكن بهما غضب ولا جدع، وإنما سميتا بذلك.. والعضباء هي التي كانت لا تُسَبِق،
ثم جاء أعرابي على قعود فسبقها، فشق ذلك على المسلمين، فقال رسول الله ﷺ:
«إن حقاً على الله ألا يرفع من الدنيا شيئاً إلا وضعه».

وغنم ﷺ يوم بدر جملاً مَهْرِيًّا لأبي جهل في أنفه بُرَّةٌ من فضة، فأهداه يوم

الحديبية ليغيب به المشركين. وكانت له خمس وأربعون لقحة، وكانت له مَهْرِيَّةٌ أرسل بها إليه سعد بن عبادة، من نعم بني عقيل وكانت له مائة شاة، وكان لا يريد أن تزيد، كلِّها ولَّد له الراعي بهمة ذبح مكانها شاة، وكانت له سبع أعنز مَنَائِحَ ترعاهنَّ أمُّ أيمن. ^(١) انتهى كلام ابن القيم.

وإلى عهد قريب كانت الدواب من أهم وسائل النقل، ليس عندنا وحدنا بل في العالم كله، وكان كل بلد يشتهر بنوع من الدواب، ولم يكن اختلاف بين المدن والقرى إلا في الترتيب، ففي أكثر المدن يكون الإصطبل مجاوراً للمنزل، والحاجة إلى الدواب في القرى أكثر في عددها وتنوعها من المدن.

ولم يكن من المستغرب أن ترى الأساتذة والشيخوخ يذهبون إلى مكتب عنبر [الثانوية الوحيدة في دمشق] وكل منهم يركب حماره، وكل حمار يختلف عن الآخر، فهذا قبرصي والثاني حساوي والثالث مصري والرابع بلدي وهكذا، وعندما يصل فضيلة الشيخ ينزل عن حماره ويربطه في موقف خاص للحمير.. وليس من المستغرب أن يكون أستاذاً كبيراً في كلية الطب أو الحقوق يلقي درسه ويزعجه نهيق الحمير، ولا يستطيع هو ولا طلابه تقييد حرية الحمير وحقها في النهيق، أما عليّة القوم فيستخدمون البغال والخيول، ثم العربة الجميلة الشكل التي يقودها جوادان، ثم أصبحت عامةً تستثمر داخل المدينة في نقل الركاب من مكان لآخر، وقد ركبت

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد: (١/١٣٣) تحقيق الأرنبوط، شعيب وعبد القادر. مع

فيها مراراً.

أعود بعد هذا الاستطراد إلى الحديث عن الدواب في دارنا:

منذ أن أبصرت عيناى الدنيا وصرت أميّز الأشياء وأنا أرى دارنا تعج بالدواب، من الدجاج إلى الغنم والماعز، إلى البقر [بذكره وأنشاه]، إلى الحمير والبغال والخيول، إلى الجمال.. وكانت تقل هذه الدواب أحياناً وتزداد أحياناً أخرى حسب حاجتنا إليها.. وكنا ونحن أطفال نلعب مع [العُبر والخرفان] صغار الغنم ونخشى من الكباش والتيوس، ونستمتع برؤية هذه المخلوقات وهي تعود من مراعيها وحقولها سالمةً غانمةً، كما نستمتع برؤية الإبل صباحاً وأصحابها يُجمعونها لينصرف بها الرعاة إلى أماكن الرعي.. كان منظرها في ساحات معينة بديعاً من نوعه.. وكنا نخشاها ولا نقرب منها ونكتفي برؤيتها عن بُعد.

كنا نعيش مع هذه الدواب.. نألفها وتألّفنا.. نخدمها وتخدمنا.. كان الطفل الصغير يقود الجمل الكبير، فلا القائد يخشاه، ولا المقود يتمرّد على قائده، وكان الكلب يجرس دار صاحبه، فلا يخونه أو يعصّ أطفاله، ولهذا فقد قال الشاعر في صيغة المدح:

أنت كالكلب في الوفاء بالوعد وكالتيس في قراع الخطوب

وألّف أحدهم كتاباً سماه [تفضيل الكلاب على كثير ممن يجرّون الثياب]، والحمار عنده قدرة عجيبة على الصبر، يضربه صاحبه حتى يجري فينقاد له ويجري.. يكيّفه حسب وضع مُعيّن فيتكيف، ولهذا فقد نشأت رابطة عجيبة بين الدواب

وأصحابها، وهاكم بعض الأمثلة:

حدثني أحدهم قال: في إحدى معارك أهل حوران مع خصومهم، جاءني من يخبرني بأن والدي جرح جروحاً بالغة، فهرعت مع أخي نجري وكانت حدة المعركة قد هدأت، ولما وصلت أرض المعركة رأيت ويا لهول ما رأيت!! .. رأيت أبي ممدداً على الأرض وأنا لا أدري هل فارق الحياة أم لا، ورأيت الفرس تحوم حوله وهي تصهل صهيلاً كالبكاء، وزاد صهيلها عندما رأتنا وخلت لنا الطريق إلى الوالد.. ثم أخبرنا من شهد الحدث أنها رفضت الانقياد لغيره، وكأنها تقول لهم: لقد عرفت فارساً واحداً وعرفني، أخلصت له وأخلص لي ولا أريد غيره.. غير أن هذا الفارس سُفي من جروحه وعاد إليها مرة أخرى.

وحدثني آخر وكان رقيق القلب قال: دخلت دار ابن عمي فرأيتهم يبكون، فجلست أبكي حتى إذا أرهقني البكاء التفت إليهم وقلت: من مات منكم، هذا فلان وهذا فلان حتى إذا انتهيت من عد الأسماء:

قالوا: سويد مات، وسويد ثور، فقال: أبكيتموني هذا البكاء على سويد!.

وأنا أحدثكم عن [أبو جميل]، وأنا شاهد على قصة أبي جميل، ولا تظنوا أبا جميل تاجراً أو مزارعاً أو ضعيفاً. أبو جميل [رفع الله قدركم] بغل عاش في دارنا طفولته ثم شبابه، ثم كهولته، ولا تسألني أيها القارئ الكريم لماذا هذا الاسم بالذات، وهل هو جميل حقاً؟! لم نفكر بمثل هذا كله فهو اشتهر بهذا الاسم في تسيل كلها، وفي عدوان التي نذهب لأرضنا فيها كل يوم قبل وقت الفجر، وكان أبو جميل من

عاداته التي لا تفارقه إذا أقبل على عدوان ينهق نهقةً ضخمةً وكأنها جرس إنذار، فينهض أهل عدوان من نومهم ويعرفون الناهق وأن جماعتنا في طريقهم إلى أرضهم.

كان أبو جميل كأنه أحد أهل الدار يعرفهم جميعاً كباراً وصغاراً، لا يستنكف عن خدمتهم، وأحياناً يحمّلونه أكثر مما يحتمل فيتمرد، ويجري بعيداً فلا ينقاد لأحد من أهل الدار، ثم يغيب ساعات، ويعود إليها بعد أن يرتاح ويسجّل موقفاً، وكنا نعرف ذلك فيه ولا نبحت عنه ولا نخاف أن يُسرق لأنه شرس في مثل هذه الحالات، ولأنه لا بد أن يعود إلى الدار أينما ذهب، لأنه لا يطيق فراقها وإن اختلف مع أهلها أو مع أحد منهم.

هرم أبو جميل، فترهل جسمه، وصار يتعثر في مشيته، ولم يعد قادراً على حمل بعض ما كان يحمله من قبل. ومما دأب عليه الفلاحون في مثل هذه الحالة، التخلص من الدابة لأنهم يريدون من الدواب أن تخدمهم، وليس العكس، فهم قوم عمليّون، ولا تتحدث بغير هذا، ولم يشذ أهل دارنا عن هذه القاعدة، واختاروا لأبي جميل مكاناً قصياً، وطريق العودة منه إلى دارنا معقد جداً، وظنوا بصنيعهم هذا أنهم تخلصوا من أبي جميل.

وفي أمسية أحد الأيام كنت -كعادتي- جالساً أمام دارنا، ففوجئت بأبي جميل مقبلاً نحو الدار، يمشي بصعوبة بالغة، ينظر إليّ نظرات ذات معنى ثم يطأطئ رأسه، ولقد فهمت من هذه النظرات العتاب التالي:

لقد أخلصت لكم غاية الإخلاص، وأعطيتكم كل ما بوسعي، وكنت الأثير عندكم على غيري من الدواب، ولكنكم لم تقابلوا الإخلاص حتى بأقل منه.. ها قد عدتُ لأني لا أعرف ولا أريد أن أعرف داراً غير هذه الدار.

مضى أبو جميل وصحبه من الدواب إلى سييلهم، ومضيت إلى سييلي، وتبدلت الدار غير الدار، والأهل غير الأهل، ثم تنقلت بين البلدان وخالطت أصنافاً شتى من البشر، وبين هؤلاء الكثير الكثير من أهل الخير والفضل، وكما قال رسول الله ﷺ: «الناس معادن...» وأنا هاهنا أتحدث عن صنف واحد من الذين اختلطت بهم: رأيت بين هؤلاء من تأنس بالجلوس معه، ويتسم ويتودد إليك، ثم تكتشف بعد حين أن قلبه أسود كالقطران، وباطنه خلاف ظاهره.

رأيت من يخطف الألباب، ويشد انتباه الناس، فيتقاطرون إلى مسجده من كل حدب وصوب وهم يتناقلون أقواله التي تأثروا بها عظيم التأثر، لكنه عندما تكتشفه تعلم أنه يقول ما لا يفعل، ويغضب رب الناس ليرضي الناس، ويبيع ويشترى -والعياذ بالله- بدين الله، ويتسكع على أعتاب الظالمين بحثاً عن الجاه والمال. ورأيت الحقود الحسود الذي يكره عمل الخير، ولا يجب إلا نفسه ومصالحه، ويشك في كل شيء فيريه حقه الأبيض أسوداً والجميل قبيحاً.

ورأيت من يخترع قصصاً وروايات يعجز عن حبكها خيال أشهر القصاصين. والأشد براعة قدرته على نشر قصته، فيبدأ بمجموعته ثم تقوم المجموعة بدورها في ترويجه وتتحول بعد حين إلى حقيقة لأنه قد نقلها ثقات لا يكذبون، مع أنها

اختلاق في اختلاق.. والغريب أن خيال هذا القاص وأمثاله لا ينشط إلا في الكذب والهضم، وهو في عمل الخير معطل.

كنت أرى هذه النماذج البشرية فأقول: إن صحبة أبي جميل وزمرته خير من صحبة هؤلاء.

وقصارى القول: فإن دُور الفلاحين في حوران لا تختلف كثيراً عن هذا الذي ذكرته عن دارنا، وكذلك حياة أهل القرى والأرياف، والخلاف في مقدار ما يملكون من الأرض والدواب.. ولم يكن في حوران إقطاع.

**الاحتلال الفرنسي لسورية
وثورة حوران**

الاحتلال الفرنسي لسورية وثورة حوران

تمهيد:

شهدتُ حرب الاستقلال عام ١٩٤٦م، وما زلت أذكر بعض أحداثها القليلة التي تتناسب مع صغر سني، وكوني أعيش في قرية، وليست القرية كالمدينة في مثل هذه الحالات، فابن المدينة الذي في مثل سني، كان يشاهد أضعاف ما شهدته، وأظن أن ما عندي يستحق أن يسجّل، ولكن أين يكون موضعه؟ ترددت في البداية، ثم رأيت أن تكون البداية منذ دخول القوات الفرنسية إلى دمشق ثم احتلالها لسورية عام ١٩٢٠م، ولن يتجاوز ما سأذكره تسيل وحوران إلا قليلاً.

وليأذن لي القارئ الكريم بهذا التمهيد:

عندما تفجّرت ثورة الشعب السوري المباركة عام ٢٠١١م ضد طغيان النظام الطائفي البغيض.. كتب البعض عنها، فكان مما قاله: انطلقت هذه الثورة المجيدة في: ١٥/٣/٢٠١١م فغضب الحورانيون وسارعوا إلى الرد بقولهم: بل انطلقت في ١٧/٣/٢٠١١م، ولن نسمح لأحد بتزييف التاريخ، واشتدت الردود بعد دخول مؤيدين لكل طرف. هاتفني أحد الأصدقاء وطلب مني التدخل لفض هذا السّجال، وكنت في زحمة مشاغلي قد نسيت ماذا يعني هذان التاريخان! وعندما جاءني الجواب فهمت حساسية قومي، وخشيتهم أن يُسرقَ منهم هذا الشرف العظيم كما سُرقَ من قبل. ففي عام ١٩٢٠م كانت أول ثورة تنطلق ضد الغزاة

المحتلين من أرض حوران، وفوجئ الفرنسيون بما فعله هؤلاء الأبطال الذين لا يخشون الموت، ولا يرهبون طائرات فرنسا التي هدمت كثيراً من منازلهم، وأشعلت النيران في مزرعاتهم.

كُتِبَ التاريخ المقررة أو غير المقررة تجاهلت هذه الثورة وكأنها لم تكن وكذلك مذكرات السياسيين، ومن تفضل وتحدث عنها، لم يكتب عنها أكثر من سطر ونصف السطر. لقد ذهب الدروز يتباهون ويتبهون غروراً بأمجادهم المزيفة، وذهب من شارك بالثورة من أهل دمشق يحتكر البطولة وكأنها له وحده دون غيره. وبقي الحوارنة، وليس لهم شيء ليكتب عنه وهذا بجانب للصواب، وليس فيه أي عدل وإنصاف.

حسن الحكيم ابن دمشق ونائبها في المجلس النيابي، ورئيس الوزراء في سورية رحمه الله، وفضلاً عن ذلك كله فهو رجل متدين يخشى الله، ومن أكثر السياسيين استقلالاً وبعداً عن الفساد والاستغلال. وبعد هذا الثناء لننظر ماذا يقول في مذكراته عن رجل مجاهد من أهل حوران شاركه في مهجع من مهاجع سجن المزة أعقاب ثورة الحوارنة عام ١٩٢٠م.

يتساءل الحكيم ما الذي جاء بعبد المحسن زين العابدين إلى السجن، وهل وضعه النظام بيننا ليتجسس علينا.

عبد المحسن زين العابدين شيخ بلدة انخل وأحد زعماء عشيرة آل الحريري التي تُعد أكبر عشيرة في حوران، وكان له القدحُ المَعْلَى في ثورة الحوارانيين، ومن أجل

هذا سُجن، وبعد السجن اضطر أمام مطاردة نظام الاحتلال إلى الالتجاء إلى الأردن، فشردت عائلته، وكان أبناؤه مثل زغب القطا، فلماذا ينظر الحكيم إليه نظرة استصغار؟ ولماذا هذا الاستعلاء الذي ليس له أي مسوغ؟؛ فدور عبدالمحسن في الثورة أهم من دور الحكيم.

أنا أغير على الشاميين من الشاميين أنفسهم، وهم يعرفون ذلك فيّ، فقد كنت محاميهم في حوران وغير حوران ولا فضل لي في ذلك، فيبينهم عشت، ومنهم استفدت وفيهمخير أساتذتي، ولم أكن مع ما بيني وبينهم من مودة غافلاً عن أخطائهم، وتعاليلهم على أهل سورية كلها.. فماذا يقول أهل حوران عندما يقرؤون لرجل مثل حسن الحكيم ما كتبه عن رجل من قادتهم وأهل الرأي فيهم؟!.

بل ماذا يقول أهل حوران وهم يسمعون الشاميين يقولون بسخرية عن ثورتهم التي أعادت للسوريين كرامتهم بعد هزيمة ميسلون المذلّة، ودخول القوات الصليبية الغازية عاصمة بني أمية وكأنها في نزهة ممتعة:

(حوران قالت واستقالت، حوران بدها حقوقها.. بدها ترين يمشي عجلة، وبدها شرطي يقول هييج وهييج..) ثم يُسْفون في القول مما لا أستطيع ذكره. وعندما ذكروا [الترين] أي القطار، قالوا: (وبدها حَمَد يطوِّط وعُقلة يزمر:

فَحَمَد وعُقلة من الأسماء التي كانت مشهورةً في حوران ويذكرها أهل المدن الكبيرة كقرينة على التخلف، وهي خير من: نشأت ومدحت وطلعت ورفعت وصياح وقاعود التي كانت واسعة الانتشار بين أهل المدن. هذه واحدة.

أما الثانية فنحن في حوران نعتز بهذين الاسمين، فقد كانا من رجالات ثورة حوران، وسمعت من الذين شهدوا الثورة أن حمداً وعقلة [والعهدة على الراوي] هما من قاد القطار من خربة غزالة إلى ذرعا بعد قتل رئيس الوزراء ورئيس مجلس الشعب، وسيأتي تفصيل ذلك، وكانوا يستخدمون [الجلة] أي بقايا الحيوانات المجفف بدلاً من الفحم... وسواء صحّت هذه الرواية أم لم تصح، فحمد وعقلة كانا يعملان في سكة حديد ذرعا، وكان ابن عقلة يدرس معنا في المرحلة الإعدادية، وأخبرني أحد الأصدقاء الذي يرتبط مع عقلة برابطة النسب قال: سمعت هذه الرواية من عقلة كما يتداولها الناس.

ومرة ثانية وثالثة أقول: هل في الجهاد وبذل الأرواح في سبيل الله مجال للاستهزاء؟ أم أقول:

لمثل هذا يذوب القلب من كمد إن كان في القلب إسلام وإيمان

أم أقول للشاميين: كتتم عباقرةً في كسب عداوة الناس في حوران بل في سورية كلها، وحققتم الهدف الذي كان أعداء الإسلام يواصلون الليل مع النهار في سعيهم من أجل إنجازهم. فهؤلاء كانت الغالبية العظمى فيهم من أهل الريف، ومن ينتسبون إلى الباطنية مذهباً أو هوايةً وغوايةً. وأهل المدن [سواء كانت دمشق أو غيرها من المدن السورية] مسلمون ومن أهل السنة. فأثاروا الصراع الطبقي بين الريف والمدينة، وليقرأ من شاء السيرة الذاتية لحافظ الأسد التي كتبها صديقه البريطاني باتريك سيل، وكلام أسد في هذا الشأن صريح وواضح، فاستجاب

لدعوتهم من أهل الريف: السفهاء وأهل الزندقة، وقدّم أهل المدن -من حيث لا يشعرون- الأدلة التي يعتمد عليها الباطنيون في إقناعهم لأهل الريف، وكان ما كان.. وأسأل الله بأسمائه الحسنی وصفاته العلی أن يكون سقوط هذا النظام الباطني الخبيث أعني نظام آل الأسد قريباً، وتعود العاصمة أقوى مما كانت عليه ولا مجال لإثارة الشقاق والفرقة بين أهل السنة في كل من الريف والمدن.

خلاصة القول: لقد عرضت ما فيه الكفاية من صور الظلم الذي لحق بالهورانيين، ولم أكن من قبل ومن بعد متعصباً لعشيرة أو لجهة، وشعاري الذي لا أرضى بغيره شعاراً قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَنُكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]

وقول الشاعر:

وحيثما ذكر اسم الله في بلد عددت أرجاءه من لب أوطاني

وأكرر القول: لست من دعاة العصبية ولكن لا خير فيمن لا ينصف قومه، ويسكت عن قول كلمة الحق حتى لا يُتهم.

نعود بعد هذا الاستطراد الذي ما كنت قادراً على تجاوزه إلى الحديث عن ثورة حوران التي بدأت عام ١٩٢٠م ولم تتوقف حتى الاستقلال عام ١٩٤٦م، أو لنقل: نعود إلى تأريخ ما تجاهله -ولا أقول جهله- المؤرخون والسياسيون الذين كتبوا مذكراتهم.

**هبة حوران الأولى
ومقتل الدروبي**

هبة حوران الأولى ومقتل الدروبي

هبة حوران

قبل أن يغادر الملك فيصل درعا، كانت السلطات الفرنسية قد هيأت حكومةً جديدةً من عملائها برئاسة علاء الدين الدروبي. ولم يصدّق الدروبي نفسه، فأخذ يصدر البيان تلو البيان، يحذر فيها الأهالي، ويتهدد أهل الشغب، ويتوعّد أهل الجهاد!! ويبرّر في بعضها غطرسة غورو ويختلق له الأعذار لإزاحة العراقيل التي كانت توضع في طريقه.. وأغرب بيانات الدروبي، ذلك البيان الذي عمّمه على دوائر الحكومة الفيصلية في الأردن، يطلب من رؤسائها رفع العلم الفرنسي، والطلب من الأهلين (وجوب التزام السكنينة وعدم إثارة الفتن، والتقيد بأوامر حكومته).

شعرت السلطات الفرنسية، أن الخيمة التي نصبها فيصل بجانب محطة سكة الحديد، ما هي إلا لعقد الاجتماعات مع الزعامات الحورانية لتحريضها على الثورة ورفض الانتداب الفرنسي، وعودة الملك إلى عرشه، فسارعت بإبلاغ صنيعها الدروبي أن يكتب إلفيصل بضرورة الرحيل فوراً إلى الحجاز، وفي الوقت نفسه حلّقت طائرة فرنسية في سماء درعا وألقت منشورات على الأهالي تدعوهم لإخراج فيصل من البلاد خلال مدة أقصاها عشر ساعات، ومن جديد ينقذ فيصل تعليمات غورو، بعد أن انهارت كل مقومات المواجهة العسكرية.. ولكن لم يمر^(١) خروج

(١) غادر الملك فيصل درعا إلى حيفا فور علمه بإنذار غورو.

الملك من حوران دون ردود فعل، فتهياً تحوران للثورة، وعن طريق الجواسيس علم غورو بالنوايا الحورانية، فأراد قطع الحبل قبل أن يستكمل جدله، فأخذ يدعو الحوارة إلى الخضوع والاستسلام والقبول بالأمر الواقع الفرنسي، وإلا سيجعل من حوران ميسلون ثانية.

عن طريق الجواسيس أخبر غورو أن فريقاً من الذين صدرت بحقهم أحكام الإعدامما زالوا يقيمون في درعا وأنهم يثون روح التمرد والعصيانين أبنائها ضد فرنسا، وأن أحمد مريود المحكوم بالإعدام يخطط مع الشيخ إسماعيل الحريري، وسعد الدين المقداد، وفاضل المحاميد، ومصطفى المقداد، وفارس الزعبي، على إعلان ثورة من درعا، وقد تأكد غورو من صحة هذه المعلومات بعد أن نمياليه، أن مفرزة من الجند السنغالي التابعة للجيش الفرنسي، المكلفة في التواجد في درعا، قد أجبرت على العودة بالقطار نفسه الذي أقلها.

وتحقق لدى غورو أن الحوارة برفضهم لدخول القوات الفرنسية والتابعة إليها إلى بلادهم يدل على نوايا حوران تجاه الانتداب الاحتلالي الفرنسي، فقرر من جديد كشف النوايا، فأرسل وفداً عالياً من العمالة، وكبيراً في الخيانة، ومطواعاً في قبول صيغ الأوامر الاستعمارية، مؤلفاً من رئيس الوزراء: علاء الدين الدروبي ورئيس مجلس الشورى عبد الرحمن اليوسف، ووزير الداخلية عطا الأيوبي، والشيخ عبد الجليل الدرّة، والشيخ عبد القادر الخطيب، وأحمد الخاني، ومنير بدرخان.

وكان هدف الزيارة كما جاء في الوثائق الفرنسية تحقيق ما يلي:

١- إثبات النوايا الفرنسية تجاه حوران.

٢- تهدئة خواطر الزعامات الحورانية، وإقناعها بتلبية دعوة غورو للتباحث معها في شأن الغرامات المالية التي فرضتها فرنسا على منطقتهم والاتفاق معهم على كيفية الدفع.

٣- قبول التواجد العسكري الفرنسي في درعا حفاظاً على الأمن، ورعاية مصالح الأهلين من عبث قطاع الطرق و الغزو الخارجي.

٤- التأكد من وجود الشخصيات الوطنية المطلوبة للمحاكم العسكرية وبخاصة الشخصيات التي حُكم عليها غيابياً بالإعدام.

٥- التأكد من المعلومات التي أفادت أن حوران مقبلة على إعلان الثورة المسلحة، والعصيان على أوامر وتعليقات السلطات الانتدابية.

يقول متصرف حوران [أبو الخير الجندي] في مذكراته، أنه لما علم بخبر هذه الزيارة أبرق إلى وزير الداخلية (أن شعب حوران في هياج كبير، وأن الوضع الراهن يستوجب تأجيل الزيارة ريثما تهدأ الحالة). ويقول الجندي أنه أتبع البرقية الأولى بثانية أوضح فيها خطورة الموقف وبخاصة بعد أن أقدم الأهالي على طرد

موظفي الحكومة، ومنعواهم من القدوم على الدوائر الرسمية، لكن هذه البرقية وصلت بعد أن تحرك قطار الموت من دمشق إلى درعا. ويذكر متصرف اللواء، أنه بقي يجابه الموقف هو وزكي الحلبي قائد درك درعا حتى رأى الوفد يطارده الموت من عربة إلى عربة.

وخلاصة ما حدث، يحدثنا سليمان الموسى: (هو أن وفداً من أعضاء حكومة علاء الدين الدروبي - التي تألفت غداة ميلسون - سافر من دمشق إلى درعا يوم ٢١ آب ١٩٢٠م للتباحث مع زعماء حوران في أمر الغرامة التي فرضها الفرنسيون على أهالي سورية، وإذا كان السخط عاماً بين الأهاليين ضد أولئك الوزراء الذين تعاونوا مع الفرنسيين ودماء الشهداء في ميلسون لم تجف بعد، فقد تجمهر عدد كبير من أهل حوران في محطة خربة غزالة وهم عازمون عليالفتك بأعضاء الوفد عند وصولهم.

وعندما أقبل القطار الذي يقل أعضاء الوفد، قام الثائرون بقتل الدروبي وعبد الرحمن اليوسف وبعض الجنود الفرنسيين... ثم قطعوا المواصلات البرقية والهاتفية وعطلوا خطة سكة الحديد وأخذوا يستعدون للمقاومة).

ووصف الحادث أحمد الزعبي في كتابه [صور مشرقة في نضال حوران] بقوله: (لقد خابت ظنون الحكومة حين جاءت جموع حوران لتقديم مراسم الحفاوة والاستقبال لهم بهجوم صافع انتقاماً لقتل ميلسون. ولقد خطط لهذا الهجوم باستنفار شعبي بناءً على اجتماع مسبق من قبل البطل إبراهيم سليم صالح الزعبي

من غزالة بزعماء حوران.. وكان أول من مزق جسمه الرصاص النضالي علاء الدين الدروبي الذي كان متخفياً في مقطورة الدرجة الثالثة، أما الباكون فقد أخذ كل منهم يبحث عن ملاذ يفرُّ إليه حتف مؤكّد.

وكان شبح الموت يطارد عبد الرحمن اليوسف رئيس مجلس الشورى، مما دفعه للهرب من القطار إلى مخفر الشرطة القريب من المحطة، لكن مصيدة الموت كانت له بالمرصاد وكانت أسرع من التقاطه قبل أن يصل إلى المخفر.. وقتل في القطار نفسه عدد من الضباط والجنود الفرنسيين).

وانتقاماً [للمقتولين] في قرية [غزالة] قامت الطائرات الفرنسية بقصف مقابر القرية، فدمرتها، ولا يعرف حتى الآن القصد الفرنسي من اعتداء طيرانها على المقابر.. هل هو الثأر من الأجداد والآباء الذين أنجبوا أبطال وثوار حوران؟ أم أنه الخطأ في تحديد الهدف فاعتقدوا أنهم دمروا القرية! أم أنهم خمنوا الشهيدة صيته أبو عرة -الوحيدة التي تمكنوا منها- كل خربة غزالة فأصابوها، فكانت أول شهيدة تقدمها الثورة الحورانية وربما الثورة السورية.

وفرضت على الحوارنة [٢٥٠٠] ليرة ذهبية دية المقتول وحيد عبد الهادي و[٥٠٠] ليرة ذهبية عن كل جندي فرنسي، [١٠٠٠٠] ليرة ذهبية لكل من الدروبي وعبد الرحمن اليوسف، ومائة ألف ليرة ذهبية غرامة حربية.

كما اتهمت مشايخ حوران بالتخطيط لقتل الدروبي وجماعته، وفي مقدمة الشيوخ: إسماعيل الحريري، فاضل المحاميد، إبراهيم سليم الزعبي، فرحان سليم

الزعبيوغيرهم من الزعماء والمشايخ الحورانية..

والسؤال.. هل اكتفت السلطات العسكرية الفرنسية بهذه الاجراءات وهل تحولت هبة حوران إلى ثورة؟.

نعم.. من أصالة الهبة بدأت الثورة...

بعد أن سمع الجنرال غورو هبة حوران في خربة غزال، ومقتل الدروبي وجماعته، سارع ببعث برقية تعزية إلى الحكومة الذليلة، وأقسم على أن يجعل الدم مهراً في حوران، وأن يدع الذل والفقر تجثم على صدور الحوارنة ما بقيت فرنسا في سورية، معتبراً (أن فرنسا لن تنسى لهم ثورتهم وهتكهم لهيبتها العظيمة أمام الدول الكبرى).

وعلى أثر ذلك عقد شيوخ حوران وزعماءؤها اجتماعاً في قرية [نصيب] قريباً من حدود الأردن الحالية، للتباحث فيما يجب عمله بعد حدوث ما حدث، وتوقع زحف القوى الفرنسية لإخضاع المنطقة الثائرة.. ونتيجة لهذا الاجتماع تقرر بصورة إجمالية ما يلي:

أولاً: إعلان الثورة العربية الحورانية ضد الوجود الفرنسي فوق الأراضي العربية السورية، واختيار الشيخ إسماعيل الحريري زعيماً وقائداً للثورة.

ثانياً: يعاون زعيم الثورة مجلساً قيادياً يتألف من الزعماء والمشايخ:

- فارس أحمد الزعبي عن دير البخت.

- موسى العقلة عن الغارية الشرقية.

- فاضل المحاميد عن درعا.

- زعل عبد الغني الحريري عن ابطع.

- ابراهيم سليم الزعبي عن خربة غزالة.

- مصطفى المقداد عن بصرى الشام.

- طلعت الأحمد عن اللجاة.

ثالثاً: توجيه الرسائل إلى مشايخ ووجهاء شرقي الأردن للاشتراك في شرف القتال ضد الغاصبين.

رابعاً: طلب النجدة من الشريف حسين بن علي ملك الديار الحجازية، وقيامه بإرسال أحد أبنائه، ومدّهم بالمعدات والمدافع والذخيرة.

خامساً: عدم الرضوخ للمطالب الفرنسية ورفض القبول بالغرامات العسكرية والديات الناتجة عن مقتل الدروبي ومن قتل معه من الفرنسيين أو من أبناء البلاد.

سادساً: مباغته العدو الفرنسي بالهجوم على قواته وهي في طريق قدومها إلى درعا، وتفويت الفرصة عليه بالهجوم على مواقع تواجد الأهليين في قراهم، وذلك من أجل أن تكون المنازل بعيدة عن النساء والشيوخ والأطفال.

وبدأ مجلس قيادة الثورة ممارسة أعماله الجهادية والنضالية مباشرة، وقبل الشيخ

المجاهد إسماعيل الحريري اختياره زعيماً وقائداً للثورة، فوجّه باسمه الرسائل إلى الشريف حسين بن علي وولده الأمير علي بن الحسين، وإلى مشايخ وزعماء الأردن، وبعض الشخصيات الوطنية السورية التي لجأت إلى الأردن.

وحمل الجميع مسؤولية التصدي للقوات الفرنسية، وبين لهم أن سقوط حوران وإذلال أهلها لا يعني غير الموت للشهامة العربية.

(وتنادى الأردنيون للمساهمة في المعركة، فسافر عدد من أهل عمان والبلقاء ومعهم مدفعان بواسطة القطار الذي كان ما يزال يسير بين درعا وعمان. كما سافرت حملة من فرسان العشائر بقيادة منور الحديد لا يقل عدد رجالها عن أربعمئة خيال)، وأشرف اللواء علي خلقي الشرايري، والقائد محمد علي العجلوني، واللواء المتقاعد ميرزا صدقي، على تجهيز رجال الجيش العربي الذين كانوا ما يزالون يحتفظون بأسلحتهم، كما تحركت مجموعات من منطقة الكورة، وأخرى من قرى الكفارات، والتقت هذه الجموع الأردنية في بلدة درعا في أواخر شهر آب ١٩٢٠م، وكان الشريف علي البدوي قد عاد من حيفا إلياربد بعد سفر الملك فيصل، وعندما بلغته أنباء ثورة حوران أسرع إلى درعا كي يساهم في المعركة المقبلة، وفعلاً تولى قيادة المتطوعين الأردنيين).

جهز الجنرال [غواييه] حملةً عسكريةً كبرى بأمر من الجنرال غورو اتجهت إلى حوران لتثبيت هيبة فرنسا، فلاقتها جموع المجاهدين في منطقة الكسوة جنوب دمشق، ودارت معركة شديدة بين الطرفين وصفتها الوثيقة رقم [١٤٦] من وثائق

الثورة الحورانية بما يلي:

(في الساعة العاشرة من صباح يوم ٢٥ آب ١٩٢٠م هاجم عدد من الثوار الحوارنة -تتمثل بمجموع من الخيالة تسندهم قطعة من سلاح المدفعية رقم [١٠٥]- الفرقة الفرنسية في منطقة الكسوة وخان دنون والتي تحصنت وأقامت الاحتياطات العسكرية اللازمة للدفاع، وقد كانت المعركة بقيادة الكولونيل [بوليه]، وقد أوقع ثوار حوران خسائر فادحة بالقوات الفرنسية، وقد شوهدت الخيول التي كانت ترى بلا فرسانها من شهداء حوران مما اضطر هذه القوات إليأن قامت مدفعتها وطائراتها بتهديم قرى [زاكية] مركز تجمع الثوار. وقد سقط عدد كبير من الشهداء، وفي ٢٦ من الشهر تعرّض الحورانيون لخسائر فادحة وخاصة في الأرواح، وعُدّت الخسائر بالمئات من الرجال، ثم هوجمت الزرقية في اليوم الثاني، وتم تدمير الصنمين في ٢٨ آب ١٩٢٠م).

تراجع الثوار باتجاه قرية [المسمية]، حيث وصلت القوات الشعبية الأردنية وكان عددها يتجاوز ألف مقاتل، وقد كلفها مجلس قيادة الثورة الحوراني بالاستيلاء على القطار القادم من دمشق، والمحمّل بالأسلحة والعتاد والمؤن، فدارت معركة مشتركة بالقرب من منطقة [دير علي] تمكن ثوار الأردن من سلب الأسلحة والعتاد والمؤن، وقتل أكثر من ثلاثين فرنسياً، وتشهد وثائق الثورة الحورانية بمعركة [دير علي] بالإفادة التالية:

(تطوّع فريق من المجاهدين العرب للجهاد مع أهالي حوران في أواخر شهر آب

١٩٢٠ م للهجوم على منطقة دير علي بقرار من مجلس قيادة الثورة الحوراني للاستيلاء على القطار القادم من دمشق والمحمّل بالأسلحة والعتاد والمؤن، رغم أنه كان معزّزاً بالمصفّحات والرشاشات، وكان الهجوم مباغتاً وصاعقاً بحيث أربك الفرنسيين بعد أن أُبيدت الحامية المرافقة للقطار، واستولى الثوار على ما يحمله القطار من سلاح وعتاد ومؤن).

وصنف مجلس الثورة هذه العملية بأنها من أكبر النجاحات التي حققها الثوار الحوارنة بمساعدة ثوار النخوة العربية أبطال الأردن، كما صنّفها بأنها من أكبر الكوارث التي حلّت بالفرنسيين في حوران (وقد استغرب الجنرال غورو كيف استطاع الحوارنة أن ينفذوا هذا الهجوم المباغت والمحكم مستخدمين القنابل اليدوية)، التي كان يملكها ثوار الأردن والتي أساسها من ممتلكات الجيش العربي الفيصلي الذي كان في الأردن قبل سقوط الحكومة العربية.. (وأصدر غورو بعد ذلك أمراً بتسيير القطارات المصفحة أولاً حفاظاً على سلامة القطارات التي تتبعها).

فشقت القوات الفرنسية طريقها، فعاد الثوار بعد تجمعهم في غباغب^(١)، فشنوا هجوماً صاعقاً على القوات الفرنسية من محورين، المحور الأول من [تل الصبة] شمالي غباغب بـ ٣ كيلو مترات، والمحور الثاني من غباغب نفسها، وكان ثوار المحور الأول قد انقضوا على القوات الفرنسية وأوقعوا بها ضربات قاتلة

(١) آخر قرية من قرى حوران من جهة الشمال وأقربها إلى دمشق.

وسلبوا من جنودها الأسلحة والذخيرة، ثم التحموا بثوار محور غباغب الأساسي، ودارت معركة بين الطرفين، تمكنت القوات الفرنسية بأسلحتها الثقيلة الكثيرة، وبطائراتها من تدمير منازل القرية، وألقت القبض على مجموعة من الثوار نفذت بهم فوراً حكم الإعدام، ولم تعاملهم معاملة أسرى الحرب، حسب القانون الدولي الذي يحرم قتل الأسرى، ومن بين هؤلاء الثوار:

- محمد عوض الأخرس.

- قاسم فرج القاعد.

- فياض محمود القاسم.

- جبر عمر الدكور.

- عبدو محمود الناصر.

- حسن رجب الزينب.

- عيسى إبراهيم السويداني.

- عطا الله اليوسف.

- قاسم أحمد هلال.

وبالقرب من قرية [نوى] دارت معركة شرسة بين الفرنسيين والثوار، واشترك الأردنيون في هذه المعركة بكل بسالة، حيث استعمل الفرنسيون في هذه المعركة كل

أسلحتهم الثقيلة، وبخاصة المدفعية والطيران، يحدثنا سليمان موسى عن هذه المعركة ويقول:

(استعمل الفرنسيون مدافعهم لضرب خطوط الوطنيين، وقد قام الخيالة الأردنيون بالالتفاف حول خط الفرنسيين وأبدوا شجاعةً فائقةً واستمرت المعركة من الفجر حتى العصر عندما تمت الغلبة للفرنسيين.

اعترفت جنرالات الجيش الفرنسي بالمعنويات العالية التي يتمتع بها الحوارة واعرترف الجنرال غورو شخصياً (بأن أهل حوران قد أبدوا في المعارك التي خاضوها أمام الجيش الفرنسي بطولات خارقة أدهشت العقول، وأثارت الإعجاب والتقدير). كما صرّح (أن خطة الإيقاع والتفرقة بين الطوائف والعناصر، والقضاء على الروح الوطنية في نفوس أبناء الشعب في حوران، ونشر الثقافة الفرنسية لم تنجح كما كان مقدراً لها، لأن الشعب الحوراني اشتهر بالعناد والصمود والمقدرة على الاحتمال والتحدي).

وفي الفاتح من أيلول، وجّه الجنرال غوابيه إنذاره، سيء السمعة، لأهل حوران، وطلب فيه الاستسلام والتسليم بلا قيد أو شرط، وخاطب زعماء حوران بلهجة التهديد ودعاهم ليقدموا الطاعة النهائية للسلطات الفرنسية، وإلا سيدمّر حوران بأكملها، واعرترف غوابيه بالعناد الثوري عند أهل حوران، ولكنه توعدّ بتحطيم هذا التحدي، وجاء في إنذار [غوابيه] الذي وزعته الطائرات الفرنسية، ونشرته جريدة [العاصمة] يوم ٢ أيلول ١٩٢٠ م ما يلي:

(إن عناد الحورانيين الفظيع لوزارة الحكومة في خربة غزالة، واعتداءهم بالسلاح على الجنود الفرنسيين والسوريين الذين ذهبوا للانتقام من السفاكين، قد دعت إلى التدمير والعقاب للذين بدأت حوران تشعر بوطأتها، وسيثأر جنودنا لهذه الأعمال بلا رحمة حتى ينال المجرمون جزاء أعمالهم، ويؤطد الأمن في البلاد وبقية القرى المسؤولة). وقد منح الجنرال غوابيه زعماء ووجهاء حوران ثمانية أيام ليقدموا من خلالها الطاعة النهائية للحكومة، وجاء في الإنذار (ولا نجازي القرى إلا بقدر ما يثبت عليها الاشتراك مع أعدائنا، وتزداد الشروط التي تفرض عليها صرامة كلما تأخروا في الحضور.. وتعد القرى التي تحوي كبار المجرمين مشاركة لهم، وابتداء من هذا الحين إذا وقع اعتداء على مخافنا أو قطعت الخطوط الحديدية فإن القرية الأقرب إلى هذا الحادث تكون مسؤولة وتدمر في الحال، وتصادر مواشيها، وستضطر الطائرات إلى إلقاء القنابل على القرى المتمردة حتى تقدم الطاعة).

ولم تُعر قيادة الثورة الحورانية انتباهاً مثل هذه الإنذارات، فخاطب قائد الثورة المجاهد إسماعيل الحريري، أبناء حوران وحثهم على الصمود ومواجهة الإنذارات بالتحدي، وتعزيز اللحمة الوطنية وقال:

(يا أهل حوران إن مستقبل أبنائكم أمانة في أعناقكم فلا تورثوهم الذل والخنوع في أحضان المستعمر).

واعتباراً من شهر أيلول، وضع الثوار خطةً جديدةً، تقضي العمل في أسلوب

حرب العصابات، والقتال غير الجماعي، وذلك بالانتشار في معظم المواقع الحورانية، من الكسوة شمالاً حتى درعا جنوباً.

وقد توجه عدد كبير من الثوار باتجاه المناطق الحورانية، ومناطق جنوب دمشق، [الكسوة- الخيارة- دير علي- المسمية- غباغب- نوى- الشيخ مسكين- الكتيبة- الدلي ومناطق أخرى].

وأكبر المواجهات حدة كانت في [الدلي] حيث استعمل فيها حرب الجماعات وذلك بسبب الحشد الجهادي الكبير الذي جاء من شرقي الأردن، ومن مناطق الرمثا بقيادة المجاهد فواز بركات الزعبي، وأسندت القيادة في هذه المعركة إلى المجاهد مصطفى الخليلي، يعاونه فواز البركات، وتوزع الثوار على مجموعات قادها فارس الزعبي، ومحمد رجا المسالمة، ومحمد بركات المسالمة، وقبلان العبد، الذي استشهد في هذه المعركة، وتوجه الثوار إلى [الدلي] واصطدموا مع القوات الفرنسية بمعركة حامية، خسرت فرنسا الكثير من جنودها، وقد اعترف الكولونيل [بوليه] بقتيلين فقط وتسعة جرحى، أما خسائر الجانب الحوراني-الأردني فيبدو أنها كانت كبيرة جداً، وذلك بناء على المعلومات التي حملتها البرقية [٨٦]، المرسلة من غورو إلى باريس بتاريخ ٢٤ أيلول ١٩٢٠م، وجاء فيها:

(... وبعد عمليات مثمرة هاجم الكولونيل [بوليه] هذه التجمعات الهائلة جداً في موقع يسمى [الدلي] واستطاع أن يهزم هذه التجمعات واستولى على ستة [مترلوز] وثلاثة مدافع من عيار ضعيف.. ويبدو أن العدو قد خسروا على الأقل

[٢٠٠] قتل).

أما شاهد العيان في هذه المعركة الشيخ الجليل صالح عايد أبو زيد فقد أفاد أن خسائر الحوارة كانت كبيرة جداً في هذه المعركة.

إن الوثائق والتقارير الفرنسية، تكشف حقيقة الإرهاب الفرنسي، وتفصح جرائم الحرب التي اقترفوها بحق القرى الحورانية الآمنة، وهذا السلوك غير المقترن في معاملة [الأرض المحتلة] من قبل الجيوش الفرنسية، ليس بظاهرة جديدة ولا بسلوك منفرد، بل هو سياسة استراتيجية تتعامل بها فرنسا مع مستعمراتها وبخاصة في إفريقيا.

جاء في الوثيقة رقم [١٦٤]، ما يلي:

(إن الخط الحديدي قد تأخر بتخريب ثوار حوران لقسم عدد كبير منه، وقد تم اصلاحه بقوة العمال.. واتجهت جيوشنا نحو [محجة] التي دمرتها الطائرات ووجدنا كما يشير التقرير [١٦٤] مستودعاً من المؤن والمعدات في هذه القرية، ومن ٣-١٦ أيلول ١٩٢٠م دمرنا وبشكل خاص قرى [بصرى أسكي الشام - بصر الحرير] وألقينا منشورات في منطقة اللجاة)، كما قامت القوات الفرنسية بتدمير منازل غباغب بالطائرات، وقصفت قرية غزالة أكثر من مرة، وأعدمت رمياً بالرصاص خيرة مناضليها الثوار.. وبلغ عدد الشهداء في الثورة الحورانية الأولى من ٢١ آب ١٩٢٠ م حتى ٢١ أيلول أكثر من [٩٠٠] شهيداً، وخسرت العشائر الأردنية أكثر من ١٧٠ شهيداً، سقوا بدمائهم شجرة الحرية من حوران والجولان،

تعزيراً للتلاحم النضالي بين أبناء السهل الحوراني الواحد منذ فجر التاريخ. أمام هذا الواقع، ولأخذ استراحة للمحاربين، واستعداداً للمعارك المقبلة، قرر زعماء حوران -اضطراباً- مفاوضة قيادة الانتداب الفرنسي، فسارع الزعماء والمشايخ إلى تسليم أنفسهم للفرنسيين، والاستعداد للمفاوضات، ومن بينهم: الشيخ إسماعيل الحريري، الشيخ إبراهيم سليم الزعبي، طلعت الأحمد، زعل عبد الغني الحريري، منصور الحلقي، موسى عقلة الزعبي. وتقرر أن يبقى بقية المشايخ من القيادة في مواقعهم الجهادية، لمراقبة الأحداث، وحتى لا يقعوا جميعاً في الفخ الفرنسي. وحُدِّد يوم الأول من تشرين الأول، موعداً للاجتماع في قرية الشيخ المسكين، لعقد اتفاقية سلام بين الطرفين.

معاهدة الشيخ مسكين:

بعد معركة [الدلي] اجتمعت القيادات الحورانية في بلدة [غباغب] وقررت وقف العمليات الحربية ضد القوات الفرنسية، وعقد هدنة معها ولو بصورة مؤقتة، حتى تتنفس حوران من جديد، لأن غورو يريد أن [يؤدب] الشعب السوري من خلال تدمير حوران، لذلك يتوجب الحد من غروره، وتفويت الفرصة عليه، شريطة أن يبقى النفس الوطني كما كان عند الأهلين، حتى تتضح الأمور في المناطق السورية الأخرى، وبخاصة الجوار في جبل العرب^(١) [الدروز].

(١) اسم هذا الجبل تاريخياً [جبل حوران]، أما هذه الأسماء المستحدثة مثل جبل العرب أو

وتقرر توزيع المشايخ والمجاهدين على أربع فئات:

الفئة الأولى: تبقى بجانب الشيخ الحريري من أجل المفاوضات مع غورو والقيادة العسكرية الفرنسية، والحكومة المتعاونة.

الفئة الثانية: تتوزع على المناطق والقرى المتوترة، لشرح المستجدات والأسباب التي دعت قيادة الثورة طلب وقف إطلاق النار وعقد مفاوضات مع الطرف الفرنسي، والطلب من قيادات هذه المناطق أن تأخذ حذرهما حتى تنتهي المفاوضات.

الفئة الثالثة: تذهب إلى شرقي الأردن، وإلى منطقتي اللجاة والصفاء، ومعظم عناصر هذه الفئة من المطلوبين الفرنسيين.

الفئة الرابعة: تذهب بمهمة سياسية إلى الحجاز لمقابلة الشريف حسين وولده الأمير علي، ومقابلة الأمير عبد الله في معان قبل التوجه إلى الحجاز، وذلك من أجل وضوح الرؤية فيما يتعلق بمستقبل سورية السياسي.

والموعد المحدد، [الأول من شهر تشرين الأول ١٩٢٠] عقد اللقاء بين مشايخ حوران والجنرال غورو، في جو [باهت] بعيداً عن المراسم التقليدية. ودخل غورو إلى مقر الاجتماع وهو مقطب الوجه لأن الحوارنة لم يرحبوا بمقدمه، بل إن الحريري أمر الحوارنة بعدم الخروج من منازلهم كي لا يكون ذلك وسيلةً للدعاية يستثمرها الفرنسيون لصالحهم، ولكي يشعر غورو وجنرالاته وأركان حكومته الذليلة أن

الحوارنة لا يرقصون على الحبال، وشيوخها لم يتعودوا على مدح السلاطين الجائرة، وشبابها لا يستهويهم مشاهدة نياشين الجنرالات المنتصرة على مقابر موتى [خربة غزالة].. وكل حوران لا يعجبها إلا حرية الوطن واستقلاله، فأهل حوران أعرف من غورو وأسياده برغبات وطموحات أبناء السهل الثائر - لذلك كانت شروطهم للصلح واضحة، وهي من وحي إيمانهم بعاداتهم وتقاليدهم النضالية ومن وحي قناعتهم بأنهم كانوا [وسيبقون] على حق، لأن الدفاع عن الوطن شرعية أول من رفعها الشعب الفرنسي منذ ثورته المشهورة، وشرعية في الشرائع السماوية، والوضعية، توارثتها الشعوب والأمم عبر مراحل التاريخ بحديثه وقديمه.^(١)

ومن أهم بنود المعاهدة التي اقترحها الشيخ إسماعيل الحريري، البنود التالية:

- عدم فرض أية غرامة حربية على حوران، لأن الدمار والخراب اللذين حلّا بها يقفان حائلاً أمام قدرة السكان في دفع الغرامات.
- عدم التعرض للشرائع الإسلامية والتقاليد الدينية.
- عدم تجريد الأهالي من السلاح.
- الإفراج عن جميع المعتقلين والأسرى، والتوقف عن مطاردة المطلوبين لدى المحاكم العرفية.

(١) هذا القول ليس قولي، وإنما هو للباحث محمود عبيدات.

- سحب الحاميات العسكرية والفرنسية من المواقع الأهلة بالسكان، وتكليف أبناء البلاد بتحقيق الأمن وشؤون الخدمات.

لقد رفض غورو شروط المعاهدة، واعتبر بأن مهمة الأمن في البلاد السورية منوطة بالجيش الفرنسي، [وأن القيادات العليا قررت تجريد جميع سكان سورية من السلاح]، إلا أنه تظاهر بقبول الشرطين الأولين، وقد تم الصلح المؤقت على أساسهما، ولكن غورو كان في قرارة نفسه يريد أن يفعل غير ذلك، وقد توضحت نواياه من خلال الحوار الذي دار بينه وبين الشيخ الحريري، ولأهميته نختر منه المقتطفات التالية:

غورو: لقد كنتم على خطأ فادح في موقفكم السلبي ضد فرنسا، وهي أعظم دولة، وكنتم أنتم السبب في خراب حوران، وهذا ما نأسف له.

الحريري: لا مجال الآن للتحدث عن ماضيتكم مآسيه القلوب... فإن كان الخطأ منّا، فقد كان النصيب الأوفر منه يقع على عاتق سيادتكم.

غورو: إنك المسؤول الأول عن الثورة في حوران، وإن تصرّجاتك ضد فرنسا لا ترضينا ونطلب منك السير وفق سياسة فرنسا في سورية.

الحريري: إن زعماء حوران لا يحتاجون إلى نصائح فرنسا، لأن الشعب الحوراني لا يثق بأحد إلا حين يرى النوايا سليمة من قبله.

ثم حمي النقاش بين الاثنين فتساءل غورو مغتاضاً:

غورو: من هو المسؤول الذي أوعز إلى شعب حوران بعدم الخروج لاستقبالنا، وقد جئنا بمنحك العفو والحرية بصدد عصيانكم على فرنسا العظيمة التي سحقت ألمانيا وهي أكبر دولة في العالم؟

الحريري: ليس بوسعنا إكراه الشعب الحوراني على استقبالكم بعد ان أصبحت دياره خراباً، وهي ليست نعمة ليحمدكم عليصنعها.

غورو: إنك لا تستحق أن تكون زعيماً على حوران ، وأطلب منك الاستقالة، لأن هناك من يفهم السياسة الفرنسية وهو أجدر بها منك.

الحريري: إن الزعامة ليست ملكاً للدولة أو للحكام، يُنعمون بها عند الرضا ويسلبونها عند السخط، وإن حوران لا تدين بالطاعة إلا لمن يضع مصلحة البلاد فوق كل المصالح .

عند هذا الحد من التحدي الذي تجلّى بكبرياء الإنسان العربي، حيث عبّر عنه الشيخ المناضل إسماعيل الحريري، وكان بحق الناطق الرسمي باسم كل الشرفاء العرب.. أمر غورو باعتقال الحريري، وإبراهيم سليم الزعبي، وطلال أبو سليمان، وقرر التحفظ عليهم كرهائن في السجن، حتى تدفع حوران القسط الأول من الغرامة المالية التي بلغت مليون ليرة ذهبية. وهذا المبلغ في ذلك الزمان تعجز

حكومة عن تأمينه. وتلقى الحريري أمر غورو برباطة جأش وعزيمة الثوار وإصرار المناضلين، وتجدد الحوار بين الإثنين، ولم يكن بين متفاوضين، بل بين السجين والسجان:

الحريري: لقد أقسمتم بشرف فرنسا العسكري على الأمان، والآن تنكثون بعهودكم كعادتكم، وتغدرون بنا بعد أن أصبحنا في قبضتكم .. هذا جزء من وثق بأمانكم، وقسمكم.

غورو: وماذا يضيرك وأنت زعيم حوران المطاع لو أظهرت الولاء والإخلاص نحو فرنسا وسياستها .

الحريري: وما فائدة ولاء فيه إفقار لحوران ، وإخلاص فيه امتصاص للدماء.

غورو: لقد تأكد لي أنك المسؤول الأول عن عدم خضوع واستسلام بعض شيوخ حوران لفرنسا.. أين هو الشيخ مصطفى المقداد؟ وأين هو الشيخ فاضل المحاميد؟ وقد أحجما عنطاعة فرنسا!!

الحريري: لقد حسبوا لهذا الموقف حساباً، فلم يثقوا بأمانكم ، وقد صدق حدسهم فأصبحنا نحن تعساء في قبضتكم، وأصبحوا أحراراً.

ويبدو أن غورو قد أحضر معه شلة من المنبطحين الرادحين الذين يجيدون مدح الجلادين والمستعمرين، على حساب بني جلدتهم، وسمعة بلدهم وحرياتها، أمثال

الإلشي وغيره من خطباء التملق والانتهاز.. ولكي يعطي الاجتماع الطابع الاحتفالي أمام وسائل الاعلام والدعاية التي رافقته إلى حوران، كان أحدهم يخطب بين يدي غورو ويمجد بفرنسا الانتدابية، ويذكر الحوارنة بالعراقة الفكرية والثقافية التي تتميز بها فرنساعن أخواتها الأوروبيات، حتى أن الخطيب الانتهازي بالغ بقوله عندما وصف فرنسا بأعدل دول العالم، وأكثرها حضارة في التاريخ الانساني، ويبدو أن الخطيب المأجور قد أثر في غورو، فازداد شططاً عندما خاطب الشيخ المناضل إسماعيل الحريري وبقية مشايخ حوران:

غورو:ها أنتمسمعون الخطباء يشيدون بعظمة فرنسا وعدلها، وفضلها على الشعوب وأنتم ما زلتم لا تؤمنون بأهداف فرنسا، وسمو مقاصدها.

الحريري:إن هؤلاء الخطباء غرباء عن العرب، وعنحوران، لأنهم لم يعبروا عن أهدافه وأحاسيسه، وما حل به من ظلم.

غورو: وهلكان الحكم التركي أعدل منا، وقد قاسيتم من ويلاته أربعة قرون مليئة بالذل، والهوان، والبطش؟.

الحريري:نحن لا ننكر مظالم الأتراك، ولكننا لم نر منهم بطشاً وتدميراً للمنازل، وحرقاً للبيوتوالحقولكما فعلت جيوشكم بنا.

انتهى اللقاء باعتقال الزعماء الثلاثة، ولم يكتب للمعاهدة النجاح ولو لساعة

واحدة، وقال أحدثشهود العيان، أن غورو استنفر كافة القوات الفرنسية حتى الطائرات، وانتشرت القوات الفرنسية على جانبي الطريق، من مدخل دمشق الجنوبي حتى قرية الشيخ مسكين، وزعم [غوايبه]، أن هذه الاحتياطات أخذت للمحافظة على الأمن وتفادياً من المفاجآت والهجوم، وتحسباً لوقوع ما وقع في غزاة.

وكان وقع احتجاز الفرسان العرب الثلاثة [الحريري، والزعبي، وأبو سليمان] على السوريين والحوارنة كالصاعقة، فضجت البلاد واحتجت على هذا الاعتقال التعسفي المخالف للعهود والتعهدات، ونقل الشيخ فاضل المحاميد تفاصيل ما جرى في الاجتماع إلى مشايخ ووجهاء شرقي الأردن والرمثا، فكان أول القادمين إلى حوران الشيخ فواز البركات الزعبي ومعه بعض مشايخ الرمثا وعمراوة والشجرة، وعرض على مشايخ حوران استعداد الرمثا وتوابعها لتحمل مسؤولية المساهمة في جمع الغرامة حتى يتم الإفراج عن الشيخ الحريري ورفاقه، كما عرض الشيخ تركي الكايد العبيدات عضو الحكومة المحلية في إربد، القضية الحورانية في اجتماع مجلس الحكومة الأسبوعي، واقترح على رئيس الحكومة اللواء علي خلقي، إرسال مخصصات الجباية إلى حوران فوراً. وفي هذا الموضوع يشير علي خلقي في مذكراته ويقول:

(لا أبالغ أن هذه الحكومة نهجت نهجاً عربياً، وكانت ميزانيتها أضخم موازنة في تاريخ الحكومات المحلية الأخرى، وأخذت على عاتقها مدّ الثوار العرب في سورية ضد الفرنسيين، مما أقص مضاجع الاستعمار من هذا المد البشري والمادي

والمعنوي).

وتحرك أيضاً المجاهد أحمد مريود في الأوساط الشعبية والعشائرية في عجلون وعمان والسلط، وكتب رسالة إلى اللواء علي خلقي، يطلب منه تقديم العون وكل ما يلزم من أجل [إحياء الروح الوطنية في أصقاع حوران]، كما أن الأمير عبد الله الذي كان يقيم في مدينة معان، أعلم المجاهد أحمد مريود، أن والده يراقب الأحداث في حوران بدقة وأنه كلّف ولده علياً أن يكاتب الشيخ اسماعيل الحريري لمعرفة آخر أخبار الثورة الحورانية واتفاقه مع الفرنسيين، وكلّف الأمير عبد الله المجاهد أحمد مريود أن ينقل إلى علي خلقي [ضرورة البقاء في إربد من أجل حوران]. وكان الأمير علي بن الحسين قد بعث برسالة إلى الحريري [غير معروف تاريخها]، يرغب فيها معرفة أحوال حوران والجلبل، وهذا نص الرسالة:

(الوطني الكبير اسماعيل الحريري المحترم:

كنت قد كتبتُ لكم سابقاً وأحيطكم علماً عن الأوضاع الراهنة، وإننا انتدبنا شخصياً لتأمين الاتصال بيننا، نرجو الاعتماد عليها وإعلامنا الحالة الراهنة عنكم، وعن مهاجمة ثوار حوران للمواقع الفرنسية ووضع الجبل عندكم إلخ..).

وأخيراً تمكّنت حوران وبدعم من الشرفاء في المناطق السورية وشرقي الأردن من تجميع القسط الأول من الغرامة، واضطر غورو أن يفرج عن الرهائن الأبطال، وخرج الشيخ الحريري من معتقله ليبدأ ورفاقه بالمرحلة الثانية من النضال الوطني^(١) انتهى.

(١) من هبة حوران الأولى ومقتل الدروبي وحتى نهاية هذه الصفحة نقلته من كتاب " الدور الأردني في النضال العربي السوري " للباحث محمود عبيدات . وجاء النقل مع اختصار يسير .
وجاء في هامش الفصل الخامس من الكتاب نفسه: " شاركت قرية جباب مشاركة فعالة في المعارك، وسقط من أبنائها: إبراهيم محمد الحسن أبو عمشة، برجس البديري، أحمد خالد الدعيس، الحاج إسماعيل أبو موسى، محمد اللول، أحمد علي السيوف، حمد أحمد الصعيدي، الحاج علي السرية " .

**وقفات متنوعة
مع ثورة حوران**

وقفات متنوعة مع ثورة حوران

هذه الأسماء^(١) الكريمة التي صنعت ثورة حوران المجيدة عرفت أهم الفاعلين فيها منذ نعومة أظفاري وإلى أن بلغت العشرين من عمري حيث حال الموت بيني وبينهم.. عرفتهم في مضافتنا وكنت أقوم مع من يقوم على خدمتهم، وكبار السن كنت دائماً رفيق والدي في زيارته لهم في قراهم، وكان في طليعة هؤلاء شيخ شيوخ حوران إسماعيل الحريري قائد ثورة حوران.

كنت في مجالستي لهم أستمع لأخبار الثورة وغير الثورة وأختزن هذا الخليط في ذاكرتي، وليتني نسيت أحاديثهم التي لا نفع فيها.. كان بعضهم في مزاحه لا يعرف الحدود، وفي مقدمة هؤلاء الشيخ زعل عبد الغني الحريري، وكان لا يستطيع أحد الوقوف في وجهه.. ومن ذكرياتي معه أنه كان ينقد أحياناً الشيخ إسماعيل الحريري، وكان أقرباؤه في المضافة لا يرتاحون من هذا النقد الذي لا مبرر له، ومن أجل إغاثتهم، كتب قصيدة شعبية ثم أمر هذا الفتى أن يحفظها، فحفظها تحت الإكراه، وإذا غصت المضافة بالحضور يأمره بالوقوف وإلقاء هذه القصيدة التي يهاجم فيها أبا خليل، فيمثل الفتى وإذا انتهى من إلقائها يضحك بصوت مرتفع وقد يجد من يضحك معه، وأنا اليوم ما زلت أحفظ هذه القصيدة، رحم الله الشيخ أبا خليل [إسماعيل الحريري] والشيخ زعل عبد الغني الحريري أحد زعماء قرية إبطع ثم

(١) المؤلف ذكر بعض الأسماء، دون بعضها الآخر، ولعل عذره في ذلك أنه يتحدث عن الدور

الأردني في هذه الثورة.

شيخ قرية صيدا، فقد كان يعمل بمعية الشيخ إسماعيل ولا يقبل بقيادته بديلاً، ولكنه المزاح مع شيء من حساسية الأقرباء نحو بعضهم البعض.

أما الشيخ محمد ذيب المنوخ الحريري الذي لم يرد اسمه في كتاب: [الدور الأردني في النضال العربي السوري] رغم أهمية دوره في ثورة حوران، وفي فلسطين عام ١٩٣٦م، وعمله مع الشيخ محمد الأشمر في جهاده فقد سمعت منه أخبار الثورة وحتى الاستقلال، أما مشاركته في قتال الإنجليز عام ١٩٣٦م فقد فهمته استنتاجاً عندما صرت أقرأ كتب التاريخ لأنه كان يتحدث عن قتال الإنجليز في أماكن غير حوران، وكان يذكر اسم الشيخ محمد الأشمر كرفيق له.. كان يستهويني حديث مغامراته، فأجلس إلى جانبه مصغياً ولا أخرج إلى اللعب مع الأقران، وأتمنى أن لا يغادر دارنا. حدثنا ذات مرة أن شيخ عشيرة من عشائر قريته راح يطالب بمشيخة الحريك [قريته] فأرادت تأديبه، وفي ليلة ليلاء شديدة المطر والبرد تناولت بارودتي [البندقية] وتواريت في مكان لا يراني أحد مقابل مضافته، وكان من عادة أصحاب المضافات وضع القنديل في صندوق زجاجي، لا أذكر الآن ماذا كانوا يسمونه.. ويمضي محمد ذيب فيقول:

وعندما اكتمل عدد رواد المضافة أطلقت طلقةً واحدةً نحو الصندوق الزجاجي فتناثر الزجاج ولم يسلم أحد من أنصار [المتشيخن الجديد] من جروح متفاوتة الخطورة، وانفض السامري وهو مدرك أشد الإدراك أنه لا قبل له بهذه المعركة، وإذا سلم اليوم من الهلاك، فقد لا يسلم مرة أخرى، وليرض من الغنيمة

بالإياب. وجملة القول: لقد هبّت حوران من شمال غباغب وحتى جرش الأردنية جنوباً، ومن بحيرة طبريا غرباً وحتى بادية الشام شرقاً، ولم يشارك أحد من غير أبناء المنطقة في هذه الثورة المباركة.. أما غورو فقد دخل دمشق وهو يتيه غروراً، ولم يأخذ قسطاً من الراحة، وإنما سأل على الفور عن قبر صلاح الدين الأيوبي -رحمه الله- ثم وقف على القبر وخاطب الميت قائلاً:

(ها قد عدنا يا صلاح الدين)!!

ثم جاءت بطولات أهل حوران في اليوم الثاني لتقول له: أين أنت أيها الأحمق المغرور أتظن أن الميدان قد أقفر من أبطاله؟ ما زال في العرين أسود.. سنقّص والله مضاجعكم، ولن ندعكم تهدؤون يوماً واحداً.

أيها الفرنسيون.. ويا أحمق أهل أوروبا أنسيتم أن تحرير سوريا من رجس الرومان بدأ من اليرموك أي من حوران.. ومن هذه الأرض المباركة سينطلق أحفاد أبي عبيدة وخالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعماد الدين زنكي، وصلاح الدين الأيوبي إلى تحرير سورية من رجس الصليبيين الفرنسيين، ولو نطق صلاح الدين الأيوبي لقال:

الحمد لله فإن الخير في أمة محمد ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد اعترف غورو في تقاريره التي كان يرسلها لقيادته في فرنسا بعناد أهل حوران وببطولاتهم التي أدهشت العقول، كما اعترف بفشل مخططاته في إثارة الفرقة، وفي نشر الثقافة الفرنسية.

وكما قلت سابقاً: كنت أسمع من أهلنا في حوران أخبار هذه الثورة حتى حفظتها عن ظهر قلب.. ثم يأتينا أستاذ التاريخ ونحن طلبة في المرحلة الإعدادية فيحدثنا عن شجاعة الشعب السوري وقوة شكيمته، ثم يتقد حماسه عندما يأتي دور الحديث عن بطولة الدروز وقائدهم سلطان الأطرش، وبطولة النصيريين وقائدهم صالح العلي، ثم بطولة النصاري ونضال زعيمهم السياسي المحنك فارس الخوري، وبطولة الأكراد وزعيمهم إبراهيم هنانو.. كنت أتساءل بمرارة: أهذه هي سورية وثورتها، وأين إسماعيل الحريري، وإبراهيم سليم الزعبي؟! وأين أخبار القرى التي دمرتها طائرات فرنسا مثل: غباغب، والصنمين، ومحجة، وبصر الحرير، والقنية، وبصرى الشام؟! لا أدري إن كان هذا الأستاذ يعرف تاريخ حوران أم لا؟ وإن عرف بعضه فربما كان عنده شيء لا يستحق الذكر! ومما يجدر ذكره أن هذا الأستاذ مسلم عربي سني. والذي كان يزيد من مرارتي أننا عندما كنا نخرج من الإعدادية نمر في طريقنا إلى أماكن سكننا بالبنك الوحيد في درعا - لا أدري الآن اسمه - وكنا نرى بعض زجاج نوافذه قد اخترقها الرصاص، وبعد السؤال يقال لنا هذه أرض المعركة بين الحوارة والقوات الفرنسية عام ١٩٤٦ م، وقد أبقوها كما هي كشاهد حي.. وتكررت دروس التاريخ في المرحلة الثانوية والجامعية كما هي مع شيء يسير عن دور المحافظات الأخرى، وبقي إهمال الحديث عن حوران كما هو، وإن أفلحوا فيذكرون سطرأ ونصف السطر، وفي الشارع يردد سفهاء المدن على مسامع أهل حوران (حمد يطوِّط وعُقلة يزمر).

هممت غير مرة بالكتابة، ولكنني ما كنت أسجل ما سمعته من الذين صنعوا الثورة. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد فرضت عليّ غربة مريرة حالت بيني وبين أهلي في حوران، ومن جهة ثالثة فليست عندي الاستطاعة في الاطلاع على الوثائق البريطانية والفرنسية.. ثم سمعت بكتاب ابن حوران الباحث أحمد محمد عطا الله الزعبي [صور مشرقة من نضال حوران]، وبحثت عنه في المكتبات والمعارض فلم أجده، وعندما سكنت عمان عام ٢٠٠٤م، عثرت على ما أريد في أول جولة لي على المكتبات عند الباحث محمود عبيدات، في كتابه: [الدور الأردني في النضال العربي السوري] ١٩٠٨ - ١٩٤٦م، وعندما قرأت ما كتبه عن ثورة حوران فرحت بما ذكره أشد الفرح، فقد عاد إلى المصادر التي عجزت عن الوصول إليها، وفضلاً عن ذلك فهو ابن حوران الأردنية، ومن قرية كفر سوم التي لا تبعد عن قريتي تسيل أكثر من [١٥ ميلاً]، وويل [لسايكس بيكو] التي جعلته يعيش في دولة وأنا في دولة أخرى:

هما وطن فرد وقد فرقوهما لحا الله بالتشتيت شمل المفرّق

كفر سوم، وسائر قرى الكفارات، والرمثا، والشجرة، والطرّة، وحوارة، وإربد وسائر مدن وقرى حوران الأردنية فتحوها دورهم العامرة أمام المجاهدين السوريين الذين ألبأتهم ظروف المعارك إلى الإقامة في الأردن، وما اكتفوا بذلك - جزاهم الله كل خير - بل قاتلوا في معارك عديدة جنباً إلى جنب مع السوريين وقدموا أكثر من [١٧٠] ممن نحسبهم شهداء ولا نزكي على الله أحداً، ورغم ذلك كله لم يأخذوا

نصيبهم في مذكرات من أمضوا أشهراً في ضيافتهم. والله أسأل أن يرحم شهداءنا
جميعاً وأن يجزيهم كل ما يجزي الله به عباده المجاهدين.

الرأفة ءءبع الإنءبل

الشاعر القروي وثورة حوران^(١)

للشعر دور كبير في تاريخ الأحداث وتوثيقها، وقد ينسى الناس مَنْ صنع الحدث فيأتي الشعر الذي يحفظونه فيذكّرهم باسمه، ثم يظهر بأعينهم كبيراً وكبيراً جداً، ومن يكون سيف الدولة الحمداني لولا شعر المتنبي؟. ثورة حوران ١٩٢٠م كانت موضع إعجاب وتقدير الشاعر رشيد سليم الخوري [الشاعر القروي]، وليقرأ من شاء في ديوانه قصيدته الرائعة [لبنان وثورة حوران، ص ٦٠٢، منشورات جروس برس].

لقد كانت صحوة ضمير من شاعر نصراني، وصحوات الضمير عند هذا الشاعر كثيرة.

لبنان وثورة حوران

رأيتك قد وقفت على الحياض أنت من الصّحاب أم الأعادي
وكنّت إذا عدت أدنى العوادي على لبنان أقلقت النوادي
وأزعجت الحواضر والبوادي

* * *

(١) ولد في ٥ / ٤ / ١٨٨٧م وفي قريته [البربارة] والواقعة بين مدينتي جبيل والبترون من جبل لبنان. هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣م. وتوفي في: ٢٧ / ٨ / ١٩٨٤م.

بلى! إني سمعتُ بكل ما حلَّ بقطرٍ بعد سالفِ عزِّه ذلٌّ
 فلم أشتم ولم أشمت به بلُّ ورمتُ لأهله الموت المعجَّل

بحد السيف من أيدي الأعداي

* * *

وكيف ألوم في وطني الزمانا؟ ومنا ذلُّه لا من سوانا
 ألسنا قد أهناه فهانا؟! وقلنا كن فرنسيًّا فكانا

إذًا فليهننا نيل المراد!

* * *

رضينا للتعصّب أن نهونا فأغمضنا على الضيم العيونا
 نقول المسلمون المسلمونا ففرميهم ونحن الخائنونا

نبيع بدرهم مجد البلاد

* * *

فتى حوران لا لاقيت ضراً لأنت أحقُّ أهل الشام فخراً
 لئن لم يؤتكَ الرحمن نصراً فحسبك أن غضبتَ ومّت حراً

ولم تسلس لقيد أو قياد

بربك قل متى لبنان ثارا؟ ليدرك من علوج الغرب ثارا؟

متى نفرت إلى السيف النصارى؟ لتغسل بالدم المسفوك عارا؟

وتحرز مرة شرف الجهاد؟

* * *

إلام إلام نحتكر السلاما وأهل الأرض قد عبدوا الحساما

دعوا التقوى لمن صلّى وصاما وكيّلوا للذي بدأ الخصاما

ملبّدة تعلّم كلّ بادي!!^(١)

* * *

أتيناهم بإنجيل المسيح فجاؤونا بآلات الفتوح

أدلّ ياربُّ من روح لروح فقد ضاع الجميل مع القبيح^(٢)

كما ضاعت جواهرٌ في سهاد!!

* * *

لماذا هذه الغصّات سرا أنخشى بعد هذا الشرّ سرا

(١) الكيلة اللبّدة المهزوزة: صفة إنجيلية.

(٢) أدلّ فعل أمر من أدال. وأدال الشيء: جعله متداولاً ونقله من حال إلى حال.

لقد ذقنا من الأمر الأمرًا فليت لنا كذاك العبد حراً^(١)

يبيّض وجهنا بين العباد

* * *

نُغيرُ وراءه مستبسلينا وإن نُفتُر ذكركنا [مَيْسَلونا]

وأحيينا بها العزم الدّينا فنكسو الظالمين كما كُسينا

حداداً بالمهندة الحداد^(٢)

* * *

(١) أي عبد الكريم بطل المغرب.

(٢) الحداد الأولى: ثياب المأتم، والمهندة الحداد: السيوف الحادة الماضية.

الراية تتبع الإنجيل

قلت قبل صفحات قليلة: لم يشارك أحد من غير أبناء المنطقة في ثورة حوران ١٩٢٠م، وأضيف: لقد كان الثوار كلهم مسلمين، وسيأتي الحديث بشيء من التفصيل عن عدم مشاركة الدرّوز، بل عن دورهم المشبوه في التعامل مع الفرنسيين ضدنا، أما النصراري فيعرف القاصي والداني بأن فرنسا هي أهمهم الحنون وقد أبدع الشاعر القروي في قوله:

رضينا للتعصب أن نهونا فأغمضنا على الضيم العيونا
نقول المسلمون المسلمونا ففرميهم ونحسن الخائنونا

نبيع بدرهم مجد البلاد

المجاهد الأستاذ عبد الغني الأسطواني شارك في معارك غوطة دمشق، ورافق قادة ثوار دمشق في مفاوضاتهم مع الدرّوز وسلطانهم، وسجّل شهادته في كتاب قيّم له أسماه:

[العرب من وراء اللهب]، وفيها يلي فقرات عما قاله عن دور النصراري: (أرسلت فرنسا حملةً عسكريةً برئاسة العميد [باتريكوس] وأخذت دليلاً معها الخوري [باسيليوس كوني] ورفع عن جسمه الثوب الأكليركي الأسود، وارتدى بزةً عسكريةً برتبة نقيب كان يرتديها في الحرب العامة في الإسكندرية وجدة، وكان ارتداؤه الألبسة العسكرية خوفاً من مشاهدة الحورانيين أحد الكهنة يرافق الجيش

الإفرنسي، فيُحمل ذلك من باب التعصب الديني، وخوفاً من هجوم الحورانيين على القرى المسيحية، فيوقعون مجزرةً بالنصاري، وقد نقل الجيش الفرنسي بقطار مصفح، ولما قارب محطة محجة بالقرب من قرية تبنة [نصاري]، وكان الحورانيون قد نزعوا الخط الحديدي، وتجمّعوا في قرية تبنة فوقف القطار عن المسير فجعل الحورانيون يصلونه ناراً حاميةً من بنادقهم، وأقام بعضهم على سطح الكنيسة متراسين، وجعل من في القطار يطلقون المدافع على القرية والكنيسة ظناً منهم أن المسيحيين قد ثاروا مع الحورانيين، وفي تلك الأثناء انسل شابان من قرية تبنة وأعطيا علامة لرفع الضرب عنهما، وتقدما إلى القائد الفرنسي وأفاده، أن جمهوراً من الحورانيين غير المسيحيين هم الذين يطلقون النار على القطار، وطلبوا إليه أن ينزل الجيش إلى البلد ليكونوا هم له عوناً على الثائرين، إلا أن القائد باتريكوس أبى إلا الرجوع إلى دمشق لإيقانه بخراب الخط الحديدي، فعاد إلى المسمية، وكان عربان اللجاة قد اقتلعوا خط السكة الحديدي، فقطعوا خط الرجعة على العميد وجيشه، وتحصنوا وراء الصخور وجعلوا يصبون نار بنادقهم على الجيش العائد القهقري، وقد قُتل من الحملة الفرنسية نيفاً ومائة جندي أكثرهم من السنغاليين الذين قاموا بمهاجمة عربان اللجاة، وقد فشلت الحملة الإفرنسية فشلاً ذريعاً، وتحملت خسارةً كبرى، وجرت أذيال الفرار مدحورةً إلى دمشق، وقد عُزل العميد باتريكوس من منصبه وأحيل إلى المحكمة العسكرية).

وفي موضع آخر يتحدث عبد الغني الأسطواني عن الدور الخطير الذي نهض

به المطران نقلاوس قاضي المذهب في حوران وجبل الدروز، ومن ذلك محاولاته إقناع بعض زعماء الثورة بأنه لا قدرة لهم على مواجهة فرنسا فليتوقفوا مقابل شيء يحققه لهم من فرنسا، وقد حقق بعض النجاحات في جهده المحموم.

ومن ذلك أيضاً تجسسه لحساب فرنسا فقد عثر ذات مرة على كتاب موقع من الملك فيصل يخص فيه الحورانيين على المقاومة إلى أن تأتيهم النجدة فأرسله المطران إلى الجنرال غورو عن يد رئيس الاستخبارات بدمشق المقدم^(١) أرلابوس.

ومن ذلك أيضاً وهذا هو الأهم أن الأسطواني الذي كان بصحبة القائد مصطفى وصفي السمان خلال زيارتهما لسلطان الأطرش رأى في مجلس الأخير المطران نقلاوس، وبعد الغداء طلب المطران الانفراد بسلطان (وقد طال الاجتماع ونحن بانتظار ما سيكون من نتيجة في غرفة ثانية، وكان بيننا في غرفة الانتظار السيدان يوسف الشويري، وإلياس الخوري، المرافقان للمطران فقلت لهما: أليس هذا المطران هو مطران خبب ومنطقة حوران؟ الذي استلم من السلطة الفرنسية مائة وستين بندقية حربية مع كمية من الذخيرة، وزعها على شبان مسيحيي خبب وبصير وتبنة، وأرسلت إليه السلطة قوة من الجند وضعها في كنيسة تبنة؟ قال: بلى. والتزمت الصمت، ونظرت إلى القائد مصطفى وصفي، وقلت له همساً: إن الموضوع هو أخطر مما قاله المطران إليك قبلاً، وإن وجوده في قرية العفيفة التي تبعد عن قرية عرى اثني عشر كيلوا متراً، له أهميته الخطيرة، وأيقنا أن لهذا الخوري

(١) العرب من وراء اللهب، ص: ٥٧.

علاقة قوية بفرنسا. وأن حضوره إلى هذه القرية إنما هو من أجل الوساطة بين الدروز والإفرنسيين لإنهاء الثورة^(١).

وخلاصة القول: تأييد النصارى للإفرنسيين في كل من حوران والجبل كان واضحاً عند الدروز وعند الحورانيين، فبعد معركة المسيفرة: ١٧/٩/١٩٢٥م هاجم الدروز قرى النصارى تأديباً لها: سمج، خربة، طيسيا، جيب. فقتلوا عدداً منهم، ونهبوا البيوت، ومما يجدر ذكره أن بدو الجبل شاركوا في هذه الغارة، ثم كانت لهم غارة على قرية تبنة لولائها لفرنسا وفعّلوا فيها ما فعلوه بقرى النصارى الأخرى.

وكان القائد الفرنسي [كاربيه] الذي كان يقاتل الدروز عند النصارى مثل خالد ابن الوليد عندنا، ومن أغاني نسائهم في أعراسهم كما بلغنا عن الذين سمعوها:

في الشرق عليّة وابنوا لكاربيه بالشرق عليّة

طوع الكلية سيفك يا كاربيه طوع الكلية

(١) العرب من وراء اللهب، ص: ٢٧١. دار قتيبة بدمشق.

معلومات متفرقة

١- في ٢٠ / ٩ / ١٩٢٠ م تم تنفيذ حكم الإعدام بالشهداء [إن شاء الله] محمد يوسف الحريري، طالب عيسى الحريري، زعل سليم الزعبي، صلاح الدين المصري، حسين الحاج، وكان إعدامهم في المرج الأخضر بدمشق. أما المجاهدان: إبراهيم سليم صالح الزعبي، وقاسم الداغر فقد استطاعا الفرار من السجن.

٢- قال الباحث والمجاهد عبد الغني الأسطواني في كتابه العرب من وراء اللهب [ص ٤٧]:

(وبينما كانت المعارك على أشدها [في ميسلون] بضع ساعات، إذ خرجت عصابة مسلحة من سرغايا ساعدت الجيش الإفرنسي بالسلب والنهب، كما قامت عصابة من الدروز بالغاية نفسها برئاسة المدعو نسيب الدرزي في قرية حلوة، كما أن بعض عرب نوري الشعلان سلبوا سلاح الجنود).

٣- قال الأسطواني ما خلاصته: ظن الملك فيصل بتسميته الوزارة الدروبية أنها ستقوم بعمل وطني، وكان يعلم أن لبعضهم صلات مع الإفرنسيين.. لكن هذه الوزارة خذلته عندما قبلت إنهاء حكم فيصل لسورية، وسلّمت جميع أسلحة الجيش السوري للإفرنسيين، وسرّحت الجيش من الخدمة، وقدمت كل التسهيلات إلى الجيش الإفرنسي، وتعهدت بتنفيذ كل الأوامر التي تطلبها فرنسا منها.

قلت: وما فعله الحورانيون به وبمن معه في خربة غزالة كان جزاءً وفاقاً.

٤- كانت مدينة الرمثا تابعة لمدينة ذرعا، ولم تنفصل عنها إلا بعد قيام إمارة شرقي الأردن عام ١٩٢١م.

٥- هناك تحريف في الأسماء وفي نسبتها إلى غير عشائرها، ومن الأمثلة على ذلك: الأمير إسماعيل باشا الرفاعي، محمد خير بيك الرفاعي، زعل بيك الرفاعي.. وهؤلاء كلهم من آل الحريري، وهذا التغيير يُحدث التباساً، وإن كان هناك وشائج قريبي بين العشيرتين: الحريري والرفاعي.

الاستقلال

الاستقلال

في ٣/٩/١٩٣٩م أعلنت فرنسا وبريطانيا الحرب على ألمانيا-هتلر- بعد أن احتلت الأخيرة كل من تشيكوسلوفاكيا وبولونيا. وفي ٧/٤/١٩٣٩م احتلت قوات موسوليني الإيطالية ألبانيا، ثم أخذت دائرة الحرب تتسع حتى انقسم العالم إلى معسكرين:

المحور: ألمانيا، إيطاليا، اليابان.

الحلفاء: فرنسا، بريطانيا، الاتحاد السوفيتي، ثم التحقت الولايات المتحدة الأمريكية بمعسكر الحلفاء.

وفي منتصف عام ١٩٤٠م سقطت باريس وأصبحت مستعمرةً من مستعمرات ألمانيا. ولم تكن البلاد العربية ولا حوران في منأى عن هذه الحرب الكونية الثانية، ففي منتصف عام ١٩٤١م سيّطر رئيس وزراء العراق رشيد عالي الكيلاني على الأوضاع في بلده، فاضطر ولي العهد عبد الإله إلى الالتجاء للأردن، وظن العرب أنه قد دنا يوم حساب بريطانيا على جرائمها في بلادنا، فتوافدوا على بغداد، ولكن تبين لهم أنهم استسمنوا ذارم. لقد هرب الكيلاني ومن معه وعاد ولي العهد وعادت بريطانيا أقوى من الأول.

أما حوران فرابطت القوات البريطانية وقوات فرنسا الحرة على حدود سوريا مع الأردن، ثم اجتاحت هذه الحدود، واشتبكت مع قوات فرنسا [فيشي] على

محور ذرعا - دمشق -، كما اشتبك الطيران البريطاني مع الطيران الألماني على المحور نفسه، وخاضت قوات الجيش الأردني هذه المعارك إلى جانب بريطانيا، وكانت معركة إزرع من أهم معارك الجيش الأردني حيث بلغ عدد قتلاهم ١٧ جندياً، والذي دفع العاهل الأردني عبدالله بن الحسين إلى الزجّ بقواته الفتية في هذه الحرب الكونية، كونه لم يفقد الأمل بأن بريطانيا ستحرّر سورية من حكم الفيشيين وتضمّها إلى مملكته، ولكنه عاش زمناً طويلاً في واد، وبريطانيا في واد آخر تهتم بمصالحها دون أدنى اهتمام بمصالح وأمنيات غيرها.

وإذا كان عبدالله بن الحسين قد دخل بقوات الجيش الأردني الحرب إلى جانب بريطانيا، فالعرب عامة، والسوريون خاصّة لم يخفوا تعاطفهم مع دول المحور لا حباً بهم ولكن عداوةً لبريطانيا وفرنسا واليهود، وأملاً بدعم دول كبرى لهم من أجل استقلالهم ووحدة بلدانهم، ولهذا فقد أخذوا يتقاطرون على ألمانيا لتدريب بعض جندهم، وللمشاركة إعلامياً في إذاعة برلين التي تخاطب العرب بلغة العرب، ومن أشهر هؤلاء الزعيم الفلسطيني الحاج أمين الحسيني، ورئيس وزراء العراق السابق رشيد عالي الكيلاني.

الأمير شكيب أرسلان الذي كان يكره بريطانيا وفرنسا، ويعتبرهما زعماء الاستعمار ومصدر استعباد الشعوب، لخصّ موقف الشعوب العربية بكلمات قليلة وبليغة في قوله: " فلأتظنّ هتلر إلا آلة إلهية قد هيأها العزيز الجبار للانتقام من أولئك الطواغيت الذين استعبدوا ثلث العائلة البشرية "، كما كان يعتقد أن

ألمانيا قد تكون مخلصاً للعرب والمسلمين منهم، وقد زار عاصمتها برلين في أيلول ١٩٣٩م أي بعد نشوب الحرب العالمية الثانية.

أما جيراننا الدروز فهم مع الحلفاء بسبب ارتباطهم التاريخي مع بريطانيا، ولأن بريطانيا أجرت معهم اتصالات عن طريق عميلتهم أسمهان [آمال الأطرش]^(١) وعن طريق عارف سليم الضابط الدرزي في الجيش الأردني الذي أرسله إليهم ضابط الاستخبارات البريطاني الكومودور باس.

يقول نجيب شمس زعيم دروز حاصبيا وراشيا:

" كان الدروز في طليعة المتطوعين للدفاع في جانب الحلفاء. فقد نادى زعماءهم بالانضواء تحت علم فرنسا. ودعا رجال دينهم إلى التطوع في صفوفها.

(١) آمال (اسمهان) فهد الأطرش مواليد عام ١٩١٢م تزوجت من ابن عمها حاكم الجبل حسن الأطرش عام ١٩٣٣م ولها منه بنت اسمها كاميليا، ووقع الطلاق بينها عام ١٩٣٩. جندها رئيس مركز الاستخبارات البريطانية بالوكالة المستر نايبير، وسافرت في أول مهمة لها في ٢٥ / ٥ / ١٩٤١م، وتنقلت بين القدس وعمّان وبيروت ودمشق ومنطقة الدروز في جبل حوران، ووزعت على دروزها الأموال وكان أبرز الذين يتعاونون معها عمّها عبد الغفار الأطرش وزير الدفاع السوري، وزوجها حاكم الجبل حسن الأطرش الذي عادت إليه كزوجة بعد طلاق ١٩٣٩م. اكتشفتها حكومة فيشي، فهربها إلى فلسطين الأمير فاعور زعيم أحد قبائل الجولان. بعد سقوط حكومة فيشي علت مكانتها وأقامت أوثق العلاقات مع الإنجليز والفرنسيين الذين خلفوا حكومة فيشي. انظر كتاب اسمهان ضحية الاستخبارات لمؤلفه سعيد الجزائري، والمسألة مشهورة وتحدثت عنها مصادر متعددة.

وأقبل فتيانهم في التجنّد وهم مسيرون بعقيدة مكينة لا إبهام فيها ولا تدجيل. وها أنا أرسل كلمة دروز الجنوب فأعلن أننا في حاصبيا وراشيا قررنا السير على الطريق التي سلكها إخواننا في لبنان وجبل الدروز". ومع ذلك فقد أوهموا القوات الفرنسية [فيشي] بأنهم لا يزالون على ولائهم لهم.

وإذا فالدروز في سورية ولبنان كانوا مع الحلفاء، ويزعمون أن حرب الحلفاء ضد دول المحور هي حرب الديمقراطية ضد الفاشية، وكذلك كان موقف النصاري والنصيريين في سورية، أي في الطرف المضاد للموقف العربي والإسلامي^(١) العام.

هذه الأحداث التاريخية المتلاحقة التي انتهت باستقلال سورية ١٧ / ٤ / ١٩٤٦ م، كيف كان يتابعها الناس؟، وكيف كانوا يفهمونها ويحلونها؟، وكيف كانوا يشاركون في صنعها؟!، ومن ثمّ ما الذي شهدته من فرحة استقلالها، وثقة الناس بأنفسهم بعد أن قطفوا ثمرة الجهاد؟!

الحديث عن الحرب الكونية الثانية كان يتناولها الصغير والكبير، الرجال والنساء، ولكن أهم الأخبار يناقشها الرجال في المضافات لأنها منتديات أهل القرى، ومصادر هذه الأخبار: القادمون من المدينة يتحدثون بما سمعوا، والأكثر

(١) مذكرات الأمير عادل أرسلان: ١ / ٢٨٧. وكتاب " دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي " ١٩٢٠-١٩٤٣ م. د. حسن أمين البعيني. وكتاب " الدور الأردني في النضال العربي السوري " ١٩٠٨-١٩٤٦ م. ومذكرات خالد العظم: ١ / ١٤٦.

صواباً يتحدثون بما فهموا وبما استوعبته ذاكرتهم من هذه الأخبار، فقد يقبلون الرواية رأساً على عقب، وقد يضيفون إليها ما ليس منها.

وإذا فالسمع ممن رأوا في المدن أحد مصادر المعلومات، أما المصدر الثاني فهو الصحيفة التي يحملها القادم من المدينة، وهذا القادم قد يكون أمياً وكلفه أحد جيرانه بشرائها أو قد يكون من الذين يقرأون ويكتبون، وفي المضافة يقوم أكثر الرواد ثقافة بقراءتها لا يترك منها شيئاً ولو كان إعلاناً أو وفاةً أو خبراً هامشياً، ثم يعيش المستمعون أياماً على أخبار هذه الصحيفة.

أما المصدر الثالث والمحير فهو جهاز يسمونه الراديو، تحرك آلة فيه فتسمع صوتاً يتحدث من برلين أو من لندن، ثم من بيروت. تتعدد الأصوات التي تتحدث من خلال هذا الراديو، فهذا مذيّع يقدم الأخبار كل ساعة، وذاك محلل سياسي، والثالث متخصص بالحرب النفسية. كان حجم هذا الجهاز كبيراً ويعمل على "البطارية". لم يقتن أحد من قريتنا هذا الجهاز لكن القادمين من المدن أو من القرى الكبيرة كانوا يتحدثون الناس بما سمعوه من أخبار وآفة الأخبار رواها.

ورغم تخلف وسائل الإعلام فقد كان الرأي العام العربي والإسلامي هو نفسه الرأي الذي يؤمن به ويدعو إليه: الحاج أمين الحسيني، وشكيب أرسلان، ورشيد عالي الكيلاني، وعزيز المصري، والشيخ عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي، وغيرهم من أعلام الأمة وقادة الرأي فيها.

هذه الحروب التي بدأت منذ الحرب العالمية الأولى، واستمرت حتى

الاستقلال، وعادت في حربنا مع اليهود في فلسطين عام ١٩٤٨ م صنعت وعياً سياسياً في بلاد الشام نادر المثال، كنا ونحن دون سنّ العاشرة نسمع ما يتناقله الناس في المضافات، وأثناء اللعب نعيد ذكر ما سمعناه وكل منا يضيف شيئاً حتى أصبح الزعيم الألماني هتلر أسطورة. فالقوي في جسمه ولعبه نسّميه هترل!!، وكنا لا نفرق في اللفظ بين هتلر وهترل، وكنا نسمع من الكبار الذين نتلقى منهم ثقافتنا يسمونه " أبو علي " وهذه الكنية رمز للقوي الذي لا يُغلب، وهذا شأن معظمنا في الحب والكره لا توسط بيننا، أو هكذا أراد المذيعون العرب في إذاعة برلين، ناسين أو متناسين بأن هذا البطل الذي نمجّده ونعلّق عليه آمالاً عريضةً ألماني نازي وأنا لو ابتلينا به لترحمنا على بريطانيا وفرنسا.

ما رأيت وما سمعت:

١ - قلت فيما مضى: إن مقارعة المستعمر الفرنسي سواء كان ذلك على شكل عصابات أو ثورة شعبية لم تنقطع أبداً، وأجزم بأن فرنسا خلال استعمارها لسورية منذ عام ١٩٢٠ م وحتى رحيلها عام ١٩٤٦ م لم تهدأ يوماً واحداً، ولولا هذه المقاومة لاستمرت عقوداً لأن شامنا مغريةً وجذابةً. كنت أشعر بأن حوران في حالة غليان، ورأيت قوات من السنغال المجندين في الجيش الفرنسي يترددون على قريننا، وسمعت أن الدرك يبحثون عن عصابة قطع طرق، وأن قادة هذه العصابة يقيمون في تسيل وما حولها، ثم قيل لي أنهم يقيمون في دار قريبة جداً من دارنا. وذات يوم اعتقلت القوات الفرنسية عمي حمزة واعتقلت معه شيخ سحم الجولان

فيصل زين العابدين .. لماذا؟، سمعت أهلي يقولون: عجزت فرنسا عن اعتقال هذه العصابة، واعتقلت عمي وابن عمه شيخ القرية المجاورة لقريتنا لتُجبرَ العشيرة على مساعدة السلطة في اعتقالها لزعماء هذه العصابة. وبعد التي واللتية خرج عمي وقريبه من السجن بعد قبولهما مساعدة السلطة فيما عجزت عنه، واجتمع وجهاء العشيرة في تسييل وسحم الجولان وحضر الاجتماع شيخ العشيرة في حوران محمد خير بن إسماعيل الحريري وتدارسوا الأمر بين موافق ومعارض، وكان ناجي بن حمزة يقود المعارضة لأن المساعدة على اعتقال هذه العصابة ليس من أخلاق وشيم العرب، واتفقوا على هذا الموقف بعد ضغط وحماسة الشباب.

كنت أستمع إلى حديث الأقرباء وهم يشنون على أخلاق زعماء هذه العصابة، ومما لازلت أذكره قوله أن أحدهم قتلته السلطات المحتلة وهو يصلي، وقول السلطة الفرنسية: إنهم قطع طرق ولا شيء غير ذلك!!، وبعد الاستقلال كنت أذهب مع والدي إلى مكتب بيع الحبوب [الميرة] في نوى، وهذا المكتب مجمعٌ لالتقاء كثير من أهل القرى في حوران، وسمعت أفراداً من هذه العصابة يتحدثون عن ذكرياتهم أيام الاستعمار الفرنسي، وأعترف من خلال مجموعتهم في قريتنا بأن أكثرهم من أهل النخوة والمروءة والشجاعة، فإذا نادى النادي "هابين الريح وين راحوا" تجدهم في أول الناس، ومثل هذه المعارك كانت تحدث بين قرية وأخرى أو بين أهل القرية والبدو المجاورين لها أو بين أهل حوران والدروز أو بين أهل حوران والقوات الفرنسية المحتلة.

والذي أريد قوله: إن أكثر الذين كانوا وقود معاركنا مع المحتلين كانوا من هذا الصنف، فهم في أسوأ أحوالهم من عصاة المسلمين، وربما كان بعضهم عند الله أفضل من الذين يصومون النهار ويقومون الليل.

٢- دخلت " التبان " ^(١) أبحث عن حاجة لي، وربما كان اللعب هو هذه الحاجة، فوجدت في زاوية من زواياه كمية من الأسلحة ملفتة للنظر، وكان من بينها عددٌ من البنادق، وما رأيت والدي من قبل يحمل بندقيةً، كنت أراه أحياناً يحمل مسدساً، أخبرت أهلي بما رأيت، فغضبوا مني، ثم لم أعد أرى هذه الكمية من الأسلحة وبمثل هذا الحجم. أين ذهبت لا أدري؟، ولكن والدي كان يكلفني أنا وأخي عبد الغني رحمه الله باستدعاء بعض رجال القرية ثم يختلي بهم بعض الوقت، ثم يتفرقون، إلى أين؟ لا أدري أيضاً؟، لكن هؤلاء ليسوا من أقران والدي ولا من أصحابه الذين يلتقي بهم كثيراً. إنهم من كبار شباب القرية، ومن عائلات مختلفة، وفهمت بعد الاستقلال أن بعضهم كان من رجال العصابات.

٣- في يوم من الأيام دعا المنادي أهل القرية للاجتماع بموجب أمر من أهل الحل والعقد فيها، وبعد استشارة نخوتهم طلبوا منهم خوض المعركة الفاصلة مع القوات الفرنسية المحتلة، وخرج الناس يحملون ما تيسر لهم من الأسلحة: بندقيةً، مسدساً، سيفاً، خنجرًا، شبرية.. وفي مثل هذه الحالات لا يبقى في القرية إلا أهل الأعدار من المرضى وكبار السن.

(١) مخزن كبير يملؤه الفلاحون بالتبن الذي تأكل منه الحيوانات طوال العام.

فمن العار الذي لا يُمحى بين الناس التواري عن الأنظار يوم الفزعة، والمرأة إن كان لها خيار لا ترضى أن يكون زوجها جباناً وكذلك الابن، ولهذا فحتى الجبناء يخرجون، ولكن هل يخوضون الحرب أم لا؟ فهذا أمر آخر.

قارئ الكريم: هذه مشاهد وعيت بعضها، وغاب عني بعضها الآخر، وكنت عاجزاً عن تحليلها أو الإحاطة بتفاصيلها... وجاءنا الخبر بهزيمة الفرنسيين الأخيرة وعودة المجاهدين، فهرعنا إلى شرقي القرية نستقبلهم ونستمع إلى أحاديثهم، أحاديث الشجاعة والتضحية، ولا بد أن يتخلل هذه الأحاديث بعض الطرائف، ومنها أن أحدهم غنم حاجةً بسيطةً من منزل أحد الفرنسيين، فأصبحت هذه الحاجة اسم الشهرة له، ولأبنائه ولا أدري هل انتقل اسم الشهرة هذا لأحفاده أم لا؟.

هذا ما رأيته، أما ما سمعته من الذين شهدوا القتال، وما وعيته فيما بعد فألخصه فيما يلي:

خاض الثوار الحوارة معركةين، الأولى في بلدة إزرع، والثانية في ذرعا. في إزرع كان قائد الموقع الكابتن الفرنسي لوفيك، وقد أدرك خلال الحصار الذي فرضه الثوار عليه وعلى مواقعه العسكرية أن معركته خاسرة، فبعث يفاوض، فوافق الثوار على استسلامه بشكل مناسب.. وعندها أنزل العلم الفرنسي عن سارية الشكنة العسكرية وحيّته قطعة عسكرية فرنسية. ورُفع العلم السوري على السارية وسط أجواء من الحماسة والتهافت الوطنية، وحيّته قطعة سورية.

وفي ذرعا كان قائد الحامية الفرنسية الملازم كورو. وقد تحصّن في الثكنة العسكرية، وأبدى مقاومةً عنيفةً أمام الثوار الذين أصروا على انتزاع النصر رغم أنف فرنسا، ووقع قتلى من الطرفين، وكان من بين قتلائنا محمد شتيوي إلياس، وغالب بن عبدالله المقداد، وإبراهيم عقلة البرماوي، ودهش بن محمود نايف المقداد رحمهم الله وأنزلهم منازل الشهداء الأبرار.

ولكن عزيمة الضابط الفرنسي كورو وهنت عندما استسلم الموقع العسكري الفرنسي أمام ضربات الثوار في إزرع، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد أدرك كورو أن نوعية الأسلحة المستخدمة لا تختلف عن الأسلحة التي يستخدمها هو وعناصر جيشه، وهذا يعني أن الأسلحة الفرنسية الحديثة أصبحت في يد الثوار في ذرعا بعد استسلام الموقع الفرنسي في إزرع، فقرر أنه لا أمل من استمرار القتال، ولا بد من الفرار لأن الثوار لا يقبلون التفاوض معه بعد هذا الصلف الذي أبداه في قتالهم، وفي جنح ليلة ليلاء تسلل مع جنده يبحث عن النجاة أو يتحرف لقتال على جبهة فرنسية أخرى، غير أن الثوار كانوا له بالمرصاد، فقتلوا بعض جنده، وألقوا القبض عليه وعلى آخرين ممن معه في مدينة إزرع، وساقوهم مكبلين بالقيود إلى منزل الشيخ محمد خير الحريري في الشيخ مسكين، وقام الشيخ الحريري بتسليمهم للقوات البريطانية بحضور محافظ حوران حيدر مردم وقائم مقام إزرع حسن الطباع، ثم تتالت الأحداث:

- ففي ٩ / ٥ / ١٩٤٥م احتفلت دول الحلفاء بانتصارها على دول المحور.

- وفي ٣١ / ٥ / ١٩٤٥ م كان قد مر يومان على آخر عدوان غاشم لفرنسا على دمشق الآمنة، فاستخدمت قواتهم الأسلحة الخفيفة والثقيلة، وألقت طائراتهم القنابل على قلعة دمشق وغيرها من الأماكن الحيوية، وكان أهمها مجلس النواب، ثم أصدر تشرشل رئيس الوزراء البريطاني أوامره للقوات الفرنسية بوقف إطلاق النار والتجمع في ثكناتها خارج مدينة دمشق، فاستجابت وما كان أمامها إلا الاستجابة، فهي لا تستطيع التمرد على قوات حليفها بريطانيا العظمى التي حررتها من الاحتلال الألماني وطغيان هتلر.

ولكن التجمع في الثكنات الفرنسية يعني وقف العدوان، والبدء بالمباحثات الجادة مع الحكومة السورية لتنفيذ الوعود بالاستقلال، وحاولت فرنسا بشكل أو بآخر عقد اتفاقيات مع المسؤولين السوريين تعطي فرنسا امتيازات خاصة بعد الاستقلال ولكن الموقف السوري بشقيه الرسمي والشعبي كان صلباً و متماسكاً ولا يقبل غير الاستقلال التام، وأبى أن تحل بريطانيا في سورية محل فرنسا، وأمام هذا الإصرار لم تجد القوات البريطانية والفرنسية بداً من مغادرة سورية والاعتراف باستقلالها التام.

- وفي ١٧ / ٤ / ١٩٤٦ م نظمت الحكومة السورية احتفالاً مشهوداً في دمشق بمناسبة خروج آخر جندي فرنسي وبريطاني من أرض سورية، شهده وفود من الدول العربية.

جيل الاستقلال :

تربى الأجيال في كل أمة من الأمم على قيمها وتصوراتها وأهدافها، وجيل الاستقلال في شامنا تربى في بيته منذ أن أبصر الحياة، ثم في مدرسته ومسجده وناديه على ما يلي:

١- كراهية الاستعمار: المستعمر مهما كان ومن أية جهة جاء، هو عدونا اللدود الذي استباح همانا، ونهب خيراتنا، وقيد حرياتنا، وفرض وصايته علينا. وإنه لا حياة ولا كرامة ولا مجد لنا إلا بإرغام هذا المحتل البغيض على الرحيل من أرضنا، ثم قطع كل صلة فرضها علينا، وما أخذه منا بالقوة لا ننتزعه منه إلا بالقوة.

وكراهية الاستعمار تقود حتماً إلى الحساسية من الاستعمار، والحساسية نوعان: نوع له أسبابه، ونوع آخر قد لا تكون له أسباب اللهم إلا الكره المفرط لهذا العدو الدخيل، وبغض النظر عن نوعي هذه الحساسية، فجيل الاستقلال يرى الحذر من عملاء المستعمرين ومن أفكارهم وعاداتهم وتقاليدهم.

٢- الحرية والكرامة: الصغير والكبير من جيل الاستقلال كان يردد في كل مناسبة مقولة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: " متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً " فالحرية نقيض العبودية، والعربي لا يقبل أن يكون عبداً ذليلاً يُباع ويشترى، ومن أجل هذا قاتل الفرنسيين المحتلين ستاً وعشرين عاماً، وبذل الغالي والنفيس حتى انتزع استقلاله من علوج الروم بالقوة، وبعد احتفاله باستقلال بلده في ١٤ / ٤ / ١٩٤٦ م لن يحني رأسه ويسجد إلا لخالفه

سبحانه وتعالى، ولن يستبدل محتلاً بمحتلٍ آخر سواء كان عربياً أو أعجمياً، ولن يخذعه هذا المحتل بزخرف القول.

ويعتقد جيل الاستقلال بحقه في الحكم وإبداء الرأي والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولن يرضى بالقاعدة التي كان يروّجها دعاة الخنوع والذل: "دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وخساً قيصر أن يكون نداً أو شريكاً لله سبحانه وتعالى في ملكه وجبروته، ولن ننسى أو نتناسى أننا أبناء أمة كانت تعتر بقول شاعرها:

إذا الملك الجبار صغّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه

ونحن اليوم سنترك السيف ليوم مشروع لا ينفع فيه إلا السيف، وسنعتاب الحاكم الظالم بمظاهرات سلمية صاحبة تهز أركان نظامه، وسننهزمه إن لم يرتدع كما هزمتنا فرنسا وعملاءها.

٣- أمة واحدة: يقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ (٥٢) المؤمنون: ٥٢. وقال جلّ من قائل: ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴾ (٩٢) الأنبياء: ٩٢.

أمة واحدة، تدين بدين واحد، وهو الذي حرّرها من عبادة العباد، قال ﷺ: "نحن معاشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد" يعني: عبادة الله وحده لا شريك له

بشرائع متنوعة لرسله^(١).

وجيل الاستقلال لم يعد يعترف بهذه الحدود بين الدول العربية، لأنها لم تكن قبل الحرب العالمية الأولى، والذي صنعها هو هذا العدو اللدود الذي انتزع منه استقلاله، وما صنعه هذا الجيل في سورية يجب عليه أن يصنعه في كل بلد عربي مستعمر.

ما نسي هذا الجيل ولن ينسى أنه كانت تظلمه قبل ثلاثين عاماً الخلافة الإسلامية، وكان ينتقل بين هذه البلدان بحرية ودون قيود وعوائق، فلماذا لا تعود الأمور أفضل مما كانت عليه قبل ثلاثين عاماً؟!، ألسنا أحفاد: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وخالد بن الوليد، وأبي عبيدة عامر بن الجراح، وعمر بن عبدالعزيز، وصلاح الدين الأيوبي؟!

ليس من أبناء ذلك الجيل إذا ذكر ما فعله المستعمر الفرنسي في سورية من لم يحفظ قول أحمد شوقي:

مررت بالمسجد المحزون أسأله	هل في المصلّي أو المحراب مروانُ
تغيّر المسجد المحزون واختلقت	على المنابر أحرار وعبدانُ
فلا الأذان أذان في منارتـه	إذا تعالَى، ولا الأذان آذانُ

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، دار طيبة، الرياض:

وقول شفيق جبري:

يا يوم أيّار والنيران ملهبةً	على دمشق تلظيها جلاميدُ
ذكرى سجونك ما تنفك ماثلةً	لم يمح من هولها عيدٌ وتعيدُ
هذي ضحاياك في الأيام أبدةً	وللضحايا على الأيام تأيدُ
الطفل في المهد لم تهدأ مضاجعه	مروّع من لهيب النار مكمود
تلفّه أمه ما بين أضلعها	وموقد النار مطراب وغريدُ
فقل لصحبك والأمواج تحملهم	هل الحضارة تذليلٌ وتعيدُ

وقول أحمد شوقي:

رباع الخلد ويحك ما دهاها	أحقُّ أنها درست أحقُّ
بليل للقذائف والمنايا	وراء سمائه خطف وصعقُ
إذا عصف الحديد احمرّ أفق	على جنباته واسودّ أفقُ
سلي من راع غيدك بعد وهنٍ	أبينَ فؤاده والصخر فرقُ
وللمستعمرين وإن ألانوا	قلوبٌ كالحجارة لا ترقُ
وللحرية الحمراء بابٌ	بكل يد مضرّجة يُدقُّ

وكان الطلبة في مظاهراتهم الصاخبة أيام حكم العسكريين يكثرون من ترداد البيت الأخير، ويرفعون أياديهم اليمنى علامةً على استعدادهم لمقابلة القوة بالقوة.

وليس في ذلك الجيل إذا ذكر دور سورية بين البلدان العربية من لم يحفظ قول

أحمد شوقي:

معادن العزّ قد مال الرغام بهم لو هان في تربه الإبريز ما هانوا

لولا دمشق لما كانت طليطلةً ولا زهت ببني العباس بغدانُ

وقول شوقي:

ألست دمشق للإسلام ظئراً ومرضعة الأبوة لا تُعقُ

صلاح الدين تاجك لم يُجمل ولم يوسم بأزين منه فرقُ

وكل حضارة في الأرض طالت لها من سرجك العلوي عرقُ

وعندما دارت الشبهات حول رئيس الوزراء جميل مردم وأركان حكومته

واتهموها بالتقصير أو بغيره في حربنا مع اليهود عام ١٩٤٨م واجههم الشاعر عمر

أبو ريشة بأقسى العبارات وذكرهم بأنهم لا يمثلون جيل الاستقلال، وكان القانون

يحميه من السجن وغيره. وكان مما قاله:

أين دنياك التي أوحى إلى وتري كل يتيم النغم

كم تخطيتُ على أصدائه ملعبَ العز ومغنى الشّمم

وتهاديتُ كأني ... ساحبٌ مئزري فوق جباه الأنجم

أو ما كنتُ إذا البغي اعتدى موجةً من لهب أو من دم

رب وامعتصماه انطلقت ملء أفواه الصبايا اليّتم
لامست أساعهم .. لكنها لم تلامس نخوة المعتصم
لا يُلام الذئبُ في عدوانه إن يك الراعي عدو الغنم
فاحسبي الشكوى فلولاك لما كان في الحكم عبيدُ الدرهم

وإذا فقد تربّي جيل الاستقلال على أن قضية العرب، كل العرب هي قضيته، وأن سورية هي " قلب العروبة النابض "، ففي مدرسته: كان أساتذة التربية الإسلامية، والتاريخ، والأدب العربي يشرحون له ما يعاينه العرب في بلدانهم. وفي مسجده: كان الشيخ في درسه أو في خطبة الجمعة يدندن حول حديث رسول الله ﷺ: " المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر ".

وفي غير هذه وتلك كانت تخرج المظاهرات أو تعقد الندوات في مسجد جامع أو في الساحات العامة انتصاراً لقضية العرب في فلسطين، أو في الجزائر، أو مراکش، أو تونس، أو عمان ... ويؤتى بمناهض للاستعمار في بلده فيتحدث بلهجة بلده العربية عن هذه المسألة، وأنا اليوم وأنا أخط هذه السطور ما زلت أحفظ بعض العبارات المؤثرة التي كان مندوب الجزائر في سورية محمد الغسيري رحمه الله يقولها في مظاهراتنا في الخمسينيات من القرن الماضي انتصاراً لقضية الجزائر.

نجح جيل الاستقلال في تكوين جبهة عربية^(١) مناهضة للاستعمار، ومطالبة بالوحدة العربية، ثم تحولت هذه الجبهة إلى قوة ضاغطة تقض مضاجع المستعمرين، مما دفع رأس أفعى المستعمرين [بريطانيا] إلى مواجهة هذه الجبهة بالحيله والدهاء، فاستجابت من حيث الشكل للشعارات العربية، ثم راحت تخطط وتعمل من أجل تفرغ هذه الشعارات من مضمونها، ولعل مشروع جامعة الدول العربية من أوائل ما فعلته بريطانيا، وهكذا نشأت جامعة عربية من غير لون ولا طعم ولا رائحة، ثم وجد العرب ألغاماً كثيرةً في طريقهم إلى تحقيق الوحدة العربية، ومن أهمها:

- الحدود العربية الوهمية بين العرب التي لم يكن لها وجود قبل هذا المستعمر البغيض، ثم صارت هذه الحدود من أهم أسباب القطيعة والحروب بين الدول العربية، وأصبحت كل دولة تستعين بدولة من الدول الاستعمارية، لتقف إلى جانبها وتناصرها ضد الدولة العربية الأخرى، ويتناسون أن هذا الذي يستجرون به هو من صنع هذه الحدود.

(١) سوف يستغرب القاريء الكريم من تراددي للمفردات العربية كقولي: جبهة عربية،

وشعارات عربية، ووحدة عربية، وغير ذلك، ومن أهم الأسباب:

- أن الوحدة العربية هي الخطوة الأولى نحو الوحدة الإسلامية.

- الوحدة العربية موضع اتفاق بين العرب، رغم وجود من يظهر خلاف ما يبطن.

- القضية العربية، والقضية الشرقية كانت تعني عند الجيل الذي سبقنا القضية الإسلامية.

- الأقليات: تعاملت مع المستعمرين وتعامل معها في جميع حقب التاريخ: مع التتار، والصليبيين، وبريطانيا، وفرنسا، والروس، والألمان، والولايات المتحدة الأمريكية، ولا أقول هذا ينسحب على كل الأقليات، ولكن على معظمها، فهم يكرهون الأكثرية المسلمة السنّية مها أحسنت إليهم، ويشعرون بأخطار تهددهم لا وجود لها في عالم الواقع، ويعادون أي وحدة عربية لأنهم يظنون أن كيانهم يذوب في هذا العالم الجديد.. والمستعمرون يدرسون هذه الظاهرة بعناية، وينصّبون أنفسهم كمحاميين عن هذه الأقليات.

- عملاء الاستعمار: ارتبطت مصالحهم بمصالح المستعمرين، ومن هؤلاء أكثر زعماء الأقليات، وعناصر من كبار الضباط العسكريين، وعائلات سنية يتوارث الإبن عن أبيه هذه الصنعة.

وعندما انتهت قيادة الدول الغربية إلى الولايات المتحدة الأمريكية في النصف الثاني من القرن الماضي، طوّرت هذه الركائز الثلاث، فالأقليات صار لها مكتب من المكاتب المهمة في وزارة الخارجية الأمريكية يرعى شؤونها ويدافع عنها، أما العملاء فإضافة إلى كل ما ورثته عن بريطانيا فقد أصبحت هي التي تصنع الزعيم في وطننا العربي فتتيح له أن يهاجمها وتهيبه له الأسباب التي يبرز من خلالها، هذا في العلن، أما في السر فزعيما مرتبط حتى أذنيه مع المخابرات الأمريكية. وهذه مزية من أهم ميزات وطننا العربي منذ بداية النصف الثاني من القرن الماضي.

احتفال تسيل بالاستقلال :

من أهم ما شهدته من احتفالات بمناسبة الاستقلال دعوة أهل تسيل للزعيم الشيخ محمد الأشمر رحمه الله، والشيخ أقام شطراً من حياته في حوران، وكان له علاقات وثيقة مع أهلها، ونصب أهل القرية خياماً في "تل حمد"^(١) وكان ذلك في فصل الربيع، ويرافقنا شعور بأن الفصل يجتفل معنا بيائه العذب، ووروده البرية البديعة، وهوائه الذي يبعث البهجة في النفوس.

كانت الوفود من الميدان بدمشق ومن حوران تأتي للسلام على الشيخ الضيف وتهنئه بالاستقلال، وكلُّ يحمل ما عنده من سلاح: بندقية، مسدس، خنجر، شبرية^(٢) ويطلق العيارات النارية في الهواء، يرافقها أغان وطنية ليس فيها أي إسفاف، ويدور جلّها حول التنديد بفرنسا وهزيمتها، وتمجيد العرب وتاريخهم، والإشادة برجالات سورية الذين صنعوا بطولاتهم هذا الاستقلال.

وكان من بين هذه الوفود حماة القرية من الشباب الذين أشرت لذكرهم فيما مضى .. كنت أشارك في تجميعهم بأمر من والدي، وينطلقون يوماً من دارنا إلى مخيم تل حمد مع إطلاق الرصاص والأغاني وكأنهم في عرس، وكنت أسير كمتفرج في ذهابهم وإيابهم، إنها أيام لا تُنسى.

(١) تل حمد مكان جميل من أرض القرية، ويقال أن أحد أهل القرية ويسمى حمداً توفاه الله فيه.

(٢) تشبه الخنجر.

**نظرات في تاريخ دروز
جبل حوران المعاصر**

نظرات في تاريخ دروز جبل حوران المعاصر

ما هو موقف الدروز من القوات الفرنسية التي احتلت سورية عام ١٩٢٠م، وهل أعلنوا المقاومة عندما سيطرت هذه القوات على جبل حوران؟! وهل كان سلطان الأطرش قائداً للثورة السورية أم أن هذا اللقب أُطلق عليه من قبيل مجاملة المجاهدين السوريين للدروز، وكسبهم إلى جانب الثورة، ومواجهة الفرنسيين بصف موحد؟!.

وهل انضم الحورانيون إلى جانب القوات الفرنسية في قتالها للدروز كما يقول معظم الدروز، أم وقفوا على الحياد ولم يقاتلوا الفرنسيين كما يقول الكتاب من السياسيين والمؤرخين?!.

وهل الدروز من أهل هذا الجبل أم هم وافدون عليه، وإن كان الأمر كذلك فما هي قصة وجودهم في هذا الجبل?!.

وما هي علاقات التعاون البريطاني الدرزي، كيف ومتى ولماذا نشأت?!.

هذه الأسئلة مرتبطة بمذكراتي أشد الارتباط، وسأجيب عليها من خلال الأدلة، ومن منطلق قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ الأنعام: ١٥٢.

والذين جعلوا ديدنهم المجاملة، والسكوت عن أمور يعرفونها حتى لا يكون لهم خصوم أو لا يثيروا حفيظة الآخرين.. هؤلاء يناؤون بأنفسهم عن قول الحق فيما يكتبون أو يتحدثون.

الدروز وجبل حوران:

جبل حوران كما يدل عليه اسمه جزء من أرض حوران يسكنه الحورانيون من المسلمين والنصارى، كما تسكنه قبائل من البدو الرحل الذين ينتقلون من مكان إلى مكان آخر في أرض حوران ويدينون بالإسلام.

وقبل ثلاثة قرون لم يكن في منطقة جبل حوران درزي واحد، غير أنهم منذ عام ١٧١٠م بدأوا في استيطان الجبل، وكان هذا الاستيطان في بدايته غير ملفت للنظر. يقول المؤرخ محمد كرد علي:

" فلما وقع ما وقع في حوادث لبنان عام ١٨٦٠م قضت الطبيعة على بعض رجال طائفة الدروز أن يهاجروا إلى جبل حوران، فرحلوا إليه في فريق من إخوانهم أهل وادي التيم والجبل الأعلى وصفد وعكا وغوطة دمشق وإقليم البلان، وكان منهم طائفة فرّوا من وجه القضاء في الأصقاع الأخرى، وآخرون أتوا حوران بدافع الحاجة فكثروا سواد من قد حلّوا في هذه الربوع أيضاً من أبناء مذهبهم، وأول نزول الدروز بعد وقعة عين دارة المشهورة في لبنان سنة [١٧١٠م - ١١٢٢هـ] فتألقت كتلة منهم هناك، وقويت عقيب حوادث الشام" (١).

تبين فيما بعد أن نزوح الدروز إلى جبل حوران جاء وفق خطة مدروسة رسمها قادة الطائفة، يقول محمد كرد علي:

(١) خطط الشام. محمد كرد علي.

" ثم انسالوا على جبل حوران يحاولون الاستقلال بربوعه، والابتعاد عن سيطرة عمال العثمانيين في هذا الجبل الذي ينتهي العمران به وتبدأ البادية المترامية الأطراف. إن ظواهر الحال تدل على أن الدروز في جبل حوران حاولوا منذ عام إبراهيم باشا المصري أن ينزعوا أيديهم من أيدي حكام القطر ويستمتعوا بامتياز خاص، لأنهم يثقل عليهم حكم غيرهم في الجملة، وبين عامتهم وعامة غيرهم فروق في الآداب العمومية والأخلاق والعادات."

ويضيف:

" ولعلمهم أو بعض مشايخهم كانوا يدلون على الدولة بهلم من عطف بريطانيا عليهم فيتوهمون أن ينشئوا لهم في صميم الشام دولةً صغرى ناسين جميع الاعترافات التي كانت تحول دون أمانيتهم، وتهيب بالدولة إلى مناجزتهم القتال كلما حاولوا أن يرفعوا رؤوسهم" (١).

ويقول المؤرخ الدرزي حسن أمين البعيني:

" لقد شكّل التجمع الدرزي في جبل حوران قوةً بدأت تضاهي قوة التجمع الدرزي في الشوف، وعوّضت عما فقدته الدروز من شأن في جهات أخرى، وعلى الأخص في جهات حلب، إذ بينما كان يتراجع دورهم هناك وعددهم يقل، كانوا يتكاثرون في جبل حوران حتى باتوا أكثرية سكانه الساحقة فصبغوه بطابعهم،

(١) خطط الشام. محمد كرد علي. ص: ١٠١، ١٠٢، ١١٢ / ٣. دار العلم للملايين.

وأعطي اسمهم. فكان ذلك مع استقلالهم الفعلي بإدارة شؤونهم الداخلية منطلقاً
للفرنسيين لإنشاء دولة لهم عام ١٩٢١م^(١).

المجتمع الدرزي مجتمع مغلق، ومن يتعامل معهم ويجهل هذه المسألة يقع
بأخطاء قاتلة من الصعب تداركها. فالدروز داخل مجتمعهم المغلق: يختلفون..
يتصارعون.. يتقاتلون.. ينقسمون إلى طبقات وأحزاب متنافسة.. وقد يستعين
طرف منهم بجهات من خارج الطائفة، فتظن هذه الجهات أنها وهذا الحزب الذي
استعان بها شيء واحد ضد الحزب الدرزي الآخر، لكنها تكتشف بعد فوات
الأوان أن الدرزي لا يمكن أن ينفصل عن مجتمعه المغلق، فهو درزي قبل انتمائه
الحزبي أو العسكري أو أي شيء آخر، هذا من جهة، ومن جهة أخرى لا يستطيع
الدروز أن يعيشوا في حالة وئام ولأمد طويل مع طوائف أخرى تجاورهم أو تعيش
بينهم، فمعاركهم التاريخية مع الموارنة الذين كانوا يجاورونهم في جبل لبنان معروفة
لكل من درس تاريخ بلده، وخروجهم المتكرر على الدولة العثمانية معروف.

وبعد نزوحهم إلى جبل حوران دخلوا في صراع دائم مع أهل حوران ثم مع
نصارى حوران، والقبائل البدوية والشركس الذين يجاورونهم.

يقول كرد علي:

"ومنذ نزول الدروز في حوران ما برحوا يناوشون النصارى والسنيين من أهل

(١) دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٣ م. د. حسن أمين البعيني.

القرى والبادية القتال، حتى استقلّوا به استقلالاً تاماً.. ومن الأمثلة التي ذكرها كرد علي: هجومهم على قرية بصر الحرير سنة ١٢٩٦هـ وقتلهم ثمانية من أهلها.. وفي سنة ١٢٨٩هـ هجموا على قريتي الكرك وأم ولد وذبحوا سكانها عن بكرة أبيهم، ولم يُبقوا حتى على الأطفال الرضع..^(١).

هذه رواية كرد علي، أما رواية أهلي في حوران فموجزها أن اعتداءات الدروز على حوران شملت القرى التالية: أم ولد، الكرك، كحيل، الحراك، بصر الحرير، بصرى أسكي شام، المليحات.. ومع عرب: المعجل، والسرхан، والخريشة، وولد علي.. ودع عنك نحو عشرين قرية اغتصبها الدروز من الحوارنة.. ومن أهل هذه القرى الذين ألقاهم الدروز إلى مغادرة قراهم والانتشار في أرض حوران: آل السويداني نسبةً إلى السويداء، وآل الكفري نسبةً إلى الكفر، وآل الصلخدي نسبةً إلى صلخد.. وبعد عقود أو أضعاف ذلك لا يزال الأبناء يتعلمون من آبائهم: نحن من السويداء أو صلخد أو.. ولكن الدروز اعتدوا علينا فقتلوا بعض أبنائنا ثم وجدنا أنفسنا مغلوبين على أمرنا، محرومين من أرضنا وديارنا التي اغتصبها غزاة محتلون فلجأنا إلى ذرعا أو بصرى أو نوى أو غيرها.

أما رواية أبناء عمومنا في بصر الحرير عن اعتداء الدروز عليهم سنة ١٢٩٦هـ فتُسمّى عندهم [موقعة السبع أعرسة] وخلصتها أنه كان في بصر حفل زفاف كبير، وأولت قبيلة من قبائل البدو الصغيرة تسكن ما بين بصر الحرير وقرى الجبل

(١) خطط الشام. كرد علي. ص: ١٠١/٣.

للعرسان السبعة، ووجدها الدروز فرصةً ذهبيةً ليمارسوا غدرهم المعهود، فشنوا هجوماً مباغتاً على الحفل أسفر عن قتل العرسان السبعة.

ورغم ما كان يقال عن دعم وحماية الأتراك العثمانيين لأهل السنة، فما جرى بعد هذه المجزرة كان خلاف ذلك. لقد ضغط البريطانيون على السلطات العثمانية في استانبول، والسلطات العثمانية ضغطت على شيخ شيوخ حوران إسماعيل الحريري ليجري مصالحةً بين أهل بصر الحرير والدروز، وبعد أخذ وردّ حددوا له اليوم الموعود -ولا خيار له-، وليس بينه وبين ذلك اليوم إلا ليلة واحدة، فتسلّل في جنح الظلام إلى بصر الحرير، وأحاط أهل الحل والعقد فيها بما سيجري غداً، وأضاف: تدبّروا أمركم في هذه الليلة.. وقبل فجر تلك الليلة أخذوا بثأرهم وزيادة، ثم جاء الوفد الرسمي ووجد نفسه أمام أمر لا يستطيعون رده، ففرضوا المصالحة، وطويت هذه الصفحة.

ومما يجدر ذكره أن هذه الحادثة صحيحة لأن المؤرخين أشاروا إليها في أكثر من موضع، ومن ثم فهي معروفة في أشعارهم الشعبية التي يتناقلها الحورانيون والدروز، وكل حسب قناعة قومه.

وآخر المعارك بين الدروز وبين من جاورهم كانت في النصف الثاني من تسعينيات القرن الماضي. لقد ألّف الدروز القبائل الرّحل التي تنتقل بين الجبل والأردن مثل السرحان، وولد علي، والخريشة، وغيرهم.. وهؤلاء سوريون في سورية بل هم أقدم في جبل حوران من الدروز، وأردنيون في الأردن، وعرفوا كيف

يتعايشون معهم، ومن الجهات التي تتوسط بين الطرفين عند الحاجة.

لكن شيئاً جديداً بدأ ينمو وينمو وفي زيادة النمو خطر يهدد الدروز، هذا الشيء هو استيطان البدو الرّحل في الجبل كما تقتضي طبيعة العصر! أن يستوطن البدو في الأردن لا بأس، أما في الجبل فهذا مما لا يمكن لبني معروف أن يسكتوا عنه.

قامت أحياء لهؤلاء البدو في السويداء وفي بعض مدن الجبل، وهذه واحدة، أما الثانية والأشدّ خطراً، فقد بنوا مساجد تعلوها منارات شاهقة، فيها ما فيها من الدلالات. تحرّك الدروز، واستخدموا القوة بحجة أن البدو تركوا مواشيهم تأكل من مزروعات الدروز، ومن طبائع البدو الرّحل التي درجوا عليها أن السلاح عندهم مثل الطعام والشراب إن لم يكن أهم، وفوجيء الدروز بالأسلحة تخرج من مخابئها في وسط السويداء، وتُصوّب إلى صدورهم، ودارت معركة حامية الوطيس لم تكن في صالح بني معروف. لقد سقط منهم أكثر من عشرة قتلى.. وتدخلت السلطة ففرضت المصالحة بالقوة.. ولعل الدروز بعد هذه الواقعة قد أدركوا أنهم أمام عهد جديد يختلف كل الاختلاف عما قبله، وفي ظل هذا العهد ستجري الرياح بما لا تشتهي سفنهم، ولن يستطيعوا إلى الأبد عزل طائفتهم عن غيرها، وهذا يعني أن عقيدتهم الباطنية لن تكون في مأمن من التغيير لا سيما وأن بعض أبنائهم في كل من الجبلين: لبنان وحواران بدأوا في العودة إلى كنف الإسلام منذ سنين قليلة. قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يوسف: ٢١.

العلاقات البريطانية الدروزية:

قويت شوكة الدول الأجنبية في عهد ضعف السلطنة العثمانية أي منذ منتصف القرن السادس عشر فما بعد، فبادرت هذه الدول إلى عقد معاهدات مع الباب العالي يمنحها صلاحيات واسعة على رعاياها، ثم بدأت هذه الصلاحيات تتوسع توسعاً يتعارض مع سيادة السلطنة العثمانية، وهذا ما يصرّح به "الامتيازات الأجنبية"، يقول الباحث الدرزي د. حسن أمين البعيني:

"استفحل آنذاك تدخل قناصل الدول الأوروبية بسبب ضعف الدولة العثمانية. وكانت فرنسا قد وضعت بموجب مرسوم صادر من لويس الرابع عشر في ٢٨ نيسان ١٦٤٩م، الموازنة تحت حمايتها.. وظلت الدولة الأوروبية الأولى أو "الأم الحنون" التي يعتمد عليها الموازنة الملقبون بفرنساوي الشرق.. وانبرى القنصل الروسي لحماية الروم الأرثوذكس. وبقي الدروز خارج إطار الحماية من أية دولة أوروبية إلى أن بدأ الكولونيل البريطاني هيو روز يعرض حماية دولته عليهم، فيما بدأوا هم يحسّون نتيجة لضعف الدولة العثمانية وتدخل القناصل الأوروبيين في شؤونها بالحاجة إلى مساعدة دولة أجنبية دون أن يتخلّوا عن ولائهم التقليدي للدولة العثمانية. لكنّ موضوع حمايتهم كان مجالاً للمناقشة بين القنصل البريطاني والقنصل الفرنسي في بادئ الأمر. فبينما اتجه القنصل البريطاني نحو سعيد جنبلات، اتجه القنصل الفرنسي نحو أخيه نعمان جنبلات الذي ينافس في الزعامة. وانتصار سعيد جنبلات على أخيه سار بالدروز في اتجاه الحماية البريطانية التي

فرضتها الضرورة أكثر من ذي قبل بعد أن يتخذ الفرنسيون نهائياً جانب الموارنة. ويضيف الكاتب البعيني:

" وثقت الفتن الطائفية العلاقات بين الدرروز والبريطانيين لأن البريطانيين ظهروا بمظهر حماة الدرروز في خلالها. وبعدها ظلت بريطانيا تقدم المساعدة لهم. فقد تدخل قنصلها مع سعيد جنبلاط لدى الدولة العثمانية لحل نزاع دروز حوران مع والي دمشق محمد قبرصلي باشا الذي قاد ضدهم حملةً فاشلةً عام ١٨٥٢م، ثم تدخل لحل نزاعهم مع الدولة العثمانية على إثر حملتها عليهم عام ١٨٧٨م. وكان سفيرها في الأستانة يحول دون اتخاذ العثمانيين التدابير التأديبية بحقهم".^(١)

يتحایل الباحث الدرزي حسن البعيني في عرض ارتباط الدرروز مع البريطانيين، ويبرر الأعذار على شيء من الاستحياء، ويعود فيؤكد بأن دروزه لم يتخلوا عن ولائهم التقليدي للدولة العثمانية!! وزعم المؤلف بأن سبب هذا الارتباط ضعف الدولة العثمانية وخوف دروزه على أنفسهم من الموارنة ومن دعم فرنسا لها غير مقبول لأن السلطنة العثمانية إذا عجزت عن حماية الدرروز من الموارنة، فالمسلمون السنة لم يتخلوا عن حمايتهم، وهذا ما حدث في كل من بيروت وصيدا وطرابلس ودمشق.. ولكن المسألة أبعد مما زعمه المؤلف بكثير، ولن يستطيع هذا الكاتب الدرزي أن يحجب الشمس بغرباله عن أعين الباحثين. لقد

(١) دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي ١٩٢٠ - ١٩٤٣م. ص: ٥٠ - ٥٣.

كان توتر العلاقات بين كل من لندن وباريس يعني توتر العلاقات بين الدروز والموارنة في جبل لبنان، ولم يكن الموارنة دائماً هم المعتدين، ففي سنة ١٨٦٠م أشعلت بريطانيا حرباً ضروساً بين الدروز والموارنة في لبنان، وكانت نيتها من وراء هذه الفتنة الحصول على حق التدخل الرسمي بالشأن اللبناني، ولا شأن لها فيما بعد بالدماء التي تسيل وبالأرواح التي تزهق، وإليك فيما يلي شاهد منهم يعترف بما فعل بأمر من بريطانيا:

" قال النائب البريطاني [موسل] في مجلس العموم البريطاني بجلسته التي عقدت بتاريخ ١٧/٨/١٨٦٠م: "وضح لي من التدقيق في السنين العشرة الأخيرة أن إنجلترا هي سبب ما جرى في سورية [وكانت لبنان جزءاً من سورية] فقد سعينا إلى إبدال هيئة الحكم في لبنان نكايّة بفرنسا ومعارضةً لبعض دول أوروبا، وعملنا على التفريق بين الدروز والموارنة، وجعلنا على كل فريق زعيماً، وسلطاناً على الزعيمين باشاً تركيا" وفي هذه الجلسة نفسها قال السيد [شارل نيبار]: "قلتُ وكررتُ قولي في مجلس العموم: إني أخجل من الدور المعيب الذي لعبته في سورية. إن الحكومة أوفدتني إلى تلك البلاد في مهمة فقتت بها".^(١)

وكما كانت فرنسا ترسل أسلحةً للموارنة، كانت إنجلترا ترسل أسلحةً للدروز.. فلم تر السلطنة العثمانية بدأً من الاستعانة بالدول الأوروبية التي أرسلت

(١) انظر كتاب سياسة الحكم في لبنان. د. حمدي الطاهري. ص: ٤١٥.

حملةً عسكريةً، وأعدت الأمن إلى جبل لبنان^(١)، فكان مثلهم كمن يقتل القتييل ثم يمشي في جنازته حزناً عليه.

كانت السلطنة العثمانية تبصر وترى بأن موالاتها مواطينها للغرب: "فالموارنة والكاثوليك لفرنسا، والروم الأرثوذكس لروسيا، والدروز والبروتستانت لإنجلترا. وكان قناصل الدول ذات الكلمة المسموعة يحمون أتباعهم فيما كانوا يسعون للحفاظ على ولائهم كما يسعون لاكتساب غيرهم".^(٢)

كانوا يعلمون علم اليقين " أن قنصل إنجلترا في حلب المستر سكين يباشر بنفسه مهام وصلاحيات المبشرين، فلقد عمل عام ١٨٦٠م على تحضير البدو في بادية الشام ليتوصل من هذا السبيل إلى اجتذاب أبنائهم إلى النصرانية".^(٣)

ويشكو مدحت باشا من هذه الظاهرة فيقول في مفكراته سنة ١٢٩٧هـ: "والذي زاد الطين بلةً أن فرنسا تحمي الموارنة الكاثوليك وإنجلترا تشجع للدروز، وكل هذا من السياسات التي تريد بها هاتان الدولتان توسيع نفوذهما في سورية أو ضرب أحدهما بالآخرى. فلما أخذت الدولة أهبتها لتأديب الدروز قام سفير إنجلترا في الأستانة يشكو من ذلك، ويكرر التردد على [المايين]^(٤) و[الباب

(١) التبشير والاستعمار. د. خالدي و د. فروخ. ص: ١٣٥.

(٢) عروبة لبنان تطورها في القديم والحديث. محمد جميل بيهم. ص: ١٨٦.

(٣) التبشير والاستعمار. فروخ وخالدي. ص: ١١٩.

(٤) المايين: اسم كان يطلق اصطلاحاً بمعنى السلطنة العثمانية. و المايين الصغير هو القصر الخاص الذي كان يسكنه السلطان عبد الحميد. أما المايين الكبير: فهو قصر أكبر يشتمل على قاعات

فأصبحت الأوامر تترى بحل هذه العقدة حلاً سياسياً".^(١)

ورغم ما بين الدول الغربية من تنافس على مناطق النفوذ في بلداننا، فقد كان لها من السلطنة العثمانية موقفٌ موحدٌ ليس فيه خلاف بين دولة ودولة أخرى، وكلما اتخذت قراراً ضمن سيادتها، ولكنه يمس الامتيازات الأجنبية أرغمتها الدول الغربية على التراجع عن هذا القرار.^(٢)

موقف سلطان الأطرش من الإنجليز:

سلطان الأطرش ابن الطائفة، وأحد أبرز زعمائها، وقائد جيشها في جبل حوران، وهذا يعني أنه ملتزم بنظام الطائفة ومعتقداتها. ففي ثورة العرب على السلطنة العثمانية انقسم الدروز إلى قسمين: قسم مؤيد للثورة وعلى رأسه سلطان الأطرش، وقسم مؤيد للعثمانيين وعلى رأسه سليم الأطرش. فكتب الثاني للأول يحذّره بأن لا يكون سبباً في اختلاف الدروز، ويهدده بالاستغناء عنه، ويقلل من

لعقد الاجتماعات والمؤتمرات السياسية وقد أصبح هذا المكان عنواناً على السياسة العثمانية [ملخصاً من القاموس السياسي].

(١) خطط الشام. كرد علي. ص: ١٠٢/٣. مصدر سابق.

(٢) كتب محمد كرد علي: "عندما جهّز مدحت باشا حملة لإخضاع الدروز توّسّطت انجلترا لدى الباب العالي، فصدرت الأوامر بحلّ المشكلة سلباً". خطط الشام ١٠٥/٣. وكتب الدكتور نادر العطار: "جاء في برقية الصدر الأعظم إلى مدحت باشا: "إن الإنجليز لا يُسرّون بما تتخذون من التدابير لتأديبهم.. إن غرضنا الوحيد هو تجنب إدارة الدولة للدروز والموارنة، واستعمال القوة لا يوصل إلى تلك النتيجة". تاريخ سورية في العصور الحديثة: ١/٣٢٩، وراجع كذلك وثيقة رقم ٣٩. عن كتاب: "تطور الحركة الوطنية في سورية. د. ذوقان قرقوط".

شأن ثورة الشريف حسين. وكان هذا هو رد سلطان الأطرش:

"لجناب معالي قائد الجيش التركي سليم باشا الأطرش الأفخم، بعد السلام عليكم أبدي. أنه اطلعت اليوم على رسالتكم الوهمية التي لُقنت عليكم من صناع الترك وكنت أريد أن أجيبكم على كل حرف منها غير أن وقتنا الثمين لا يسمح، إنما وخاصة على ذكركم الدولة التركية البائدة ووصفكم إياها بأسماء وصفات هي لا تقبلها على نفسها، لأنها تقر بقصر باعها وعجزها، وكفاها ذلك باستنادها عليكم. فيا حضرة ابن العم المحترم لسنا المغشوشين. لأننا لم نطعم من مآكل [دامسكوس بالاس] ولا دخلنا جنينة البلدية بالشام، ولا قابلنا تركيا قاتل آباءنا وهاتك عرض بلادنا، إقرأ شعار جدك شبلي رجل الدروز هو اليوم يناديك من أعماق قبره وينهاك عن عدم إطاعتك تعليماته التي يتسلح بها العدو قبل الصديق ليأخذ احتياطه من خيانة الترك الظالمين. ونحن أعلننا الحرب المقدسة على بواقى جيوش الترك الجائعة وننصحك أن تعود إلى جادة الصواب لئلا بعد قليل تندم حيث لا ينفع الندم. وأن الأخبار التي سمعناها عن سقوط بلاد نابلس والناصرية وطبريا بيد دولة العالم وسيدة البحار بريطانيا العظمى صديقتنا القديمة وخاصة دمار الدروز هي حقيقة وليست أخباراً مصنوعة في ألمانيا أو آتيةً بطريقة الأجانس العثماني.. أما أترك اللثام فهم قوم جالطة يوك أي كل شيء عندهم مفقود حتى الجنود. وعليه باسم عائلتنا الكريمة التي أريد أن أخرج من صف رجالها كما تريد أنت أن نصحك أن ترعوي وتعود إلى صوابك لئلا تصبح محروماً من أن تكون طرشانياً بطبيعة الحال، أما جيش علبة العطاره فهو جيشك الفارّ، ونحن الآن بصف الدول العظمى... ونحن

إن شاء الله سنكون خير سلف وسنحافظ على شرف الدروز ومستقبلهم ولا نجعلهم يُداسوا كما تريد أن تضعهم أنت تحت أقدام أسقط وأوحش دويلة في العالم ودمتم." ^(١)، في ١٩ ذي الحجة ١٣٢٦ هـ ابن عمكم سلطان الأطرش.

وقفات مع رسالة سلطان الجوابية:

إن رسالة سلطان هي بيان واضح صريح، لم يجد عن معانيه ومدلولاته طوال سني عمره، فهو - وكما قلت فيما مضى - درزي من ألفه إلى يائه، ملتزم بقوانين وأنظمة ومعتقدات طائفته أشد الالتزام وأعمقه، بل هو رمز من رموزهم. إقرأ معي قوله:

"ونحن أعلننا الحرب المقدسة على بواقى جيوش الترك الجائعة... أما أترك اللثام.. قوم جالطة يوك أي كل شيء عندهم مفقود حتى الجنود.. أسقط وأوحش دويلة". ثم يُذكر ابن عمه بخيانتته لتاريخ الطائفة، وعليه أن يتذكر ما فعله الأتراك بجده شبلي الأطرش الذي ينادي من قبره أبناء الطائفة ويطالبهم بالثأر له.

هذه العداوة التي ليس فيها ذرة من عدل وإنصاف ضد دولة كان بينها وبين طائفته عهود ومواثيق، بل هو كان يؤكد لجمال باشا وقوفه إلى جانب العثمانيين - كما ورد في مذكرات الأخير -، وهذا الحقد والكراهية ينقلب إلى احترام وتقدير

(١) انظر كتاب " تطور الحركة الوطنية في سورية. ١٩٢٠ - ١٩٣٩ " للباحث الدرزي ذوقان قرقوط. وقال عن هاتين الرسالتين: " وقد عرضت الرسالتين المتبادلتين بين زعيمى هذين الاتجاهين، على سلطان باشا الأطرش فتذكرهما وصادق على صحتها".

وإعجاب إذا تحدث عن الإنجليز، وإقرأ معي قوله:

".. وإن الأخبار التي سمعناها عن سقوط بلاد نابلس والناصرية وطبريا بيد دولة العالم وسيّدة البحار بريطانيا العظمى صديقتنا القديمة. وقوله: "ونحن الآن بصف الدولة العظمى.. وسنكون خير سلف وسنحافظ على شرف الدروز ومستقبلهم".

فيا من تحرثون في البحار، وتبنون قصوراً في الهواء، وتشتط بكم المجاملة حتى لا نقول النفاق: أين النزعة السورية.. بل أين المشاعر القومية.. وشعارات الوحدة العربية؟، أين هذا كله أو بعضه في رسالة سلطان إن لم نقل في بيانه؟!.

وهل يستحق من يقول هذا القول أن يكون القائد العام للثورة السورية؟! وهل كان حقيقةً قائداً للثورة أم أنها ألقاب مملكة في غير موضعها?!.

كان سلطان يعلم بتقسيم سورية منذ وقت مبكر، وتحدث مع صحبه في هذا الشأن، ورغم ذلك فهو مُصرّ على الوقوف في صف سيّدة البحار!! يقول الباحث الدرزي الدكتور ذوقان قرقوط:

"عند بداية الحرب ضد الأتراك أرسل سلطان الأطرش رسالة إلى المعتمد الإنجليزي في القدس، إلا أن الجواب جاءه من المعتمد الفرنسي حدّاد باشا، وكرّر الكتابة إلى المعتمد البريطاني فأجابه حدّاد باشا مرة أخرى"^(١)، وفي تعقيب للمؤلف

(١) انظر كتاب تطور الحركة الوطنية في سورية ص: ٦٢، مصدر سابق.

على هذه الحادثة قال: "أكد سلطان الأطرش هذه الواقعة. وقال: إنه نتيجة للتدوال مع جورج صيدح وخلييل سكاكيني، وبعض رجالات الجبل أدرك أن الدولتين متفقتان على اقتسام النفوذ في البلاد، وأن سورية من نصيب الفرنسيين".^(١)

شبهات بعضها فوق بعض:

الشبهة الأولى: رسالة سلطان الجوابية التي أرسلها لابن عمه سليم والتي يعلن فيها تأييده لبريطانيا العظمى سيدة البحار، وصديقة الدروز القديمة.. ثم رسالته للمعتمد الإنجليزي في القدس، فلماذا تجاهل الشريف فيصل وأباه الحسين بن علي، واتصل مباشرة مع المسؤول البريطاني في القدس؟ أهو جهة أخرى لا علاقة له ولدروزه بالثورة العربية التي ارتضت الاتصال بهم عن طريق الشريف حسين بن علي أو بمن يعهد إليه.

الشبهة الثانية: يقول جمال باشا:

" إن في إمكاني أن أكون مسؤولاً عن الدروز فإنهم لن يثوروا على الجيش.. وكنت على ثقة تامة لأن زعماء الدروز الذين قطعوا لي عهداً بأن يكونوا مخلصين للدولة العثمانية يعرفون كيف يبرون بعهدهم. وكانوا مخلصين فعلاً لأنهم عندما تراجعوا قواتنا عن درعا بتلك الصورة المريعة هبوا للحماية مؤخرتها ومنعوا العرب من الاعتداء عليها، وقبل حديثي هذا بأيام، قام الشريف فيصل وأرسل الرسل إلى

(١) انظر كتاب تطور الحركة الوطنية في سورية، ص: ٢١٥، مصدر سابق.

سلطان باشا الأطرش من زعماء الدروز وعرض عليهم باسم العرب القيام بثورة ضد تركيا لتحريك العرب، فأجابه سلطان باشا الأطرش أمام رجاله: قل لسيدك فيصل أن سلطان رجلٌ لا يخدع أمته ولم يكن ولن يكون عبداً للأجانب كما تفعل أنت حيث تساعد بعملك هذا على سيطرة الأجانب على بلادك".^(١)

للسلطان عبد الحميد الثاني من قبل رأيٍ مشابه لرأي جمال باشا في ثقته بالدروز، فلا أدري كيف كوّن عبد الحميد هذه القناعة وهو من أندر أذكاء العالم؟، أما جمال باشا فقد أيقظته من سبات نومته الحقيقة المرة، فقال: "وقد عثرت على وثيقة مرسلّة من زعماء الدروز وفي مقدّماتهم عبد الغفار باشا الأطرش، وفواز الحلبي، ومصطفى الأطرش، وزيد الأطرش، وغيرهم من زعماء الجبل تقول: إن الدروز على استعداد تام لتأييد الشريف حسين ورجاله إذا هم احتلوا درعا، وفي اليوم الذي يحتلون فيه درعا يجدون العصابت الدرزية في استقبالهم. وفي تعقيب جمال باشا على هذه الوثيقة يقول: وكنت أعتقد أن دروز الجبل يخضعون دوماً للقوة وأنهم يساعدون القوي الحاكم كي يجلبون لأنفسهم القوة".^(٢)

الشبهة الثالثة: ابتدأ سليم رسالته لابن عمه سلطان بقوله: "لجناب معالي قائد الجيش الدرزي دولتو سلطان باشا المعظم".

وابتدأ سلطان رسالته الجوابية بقوله: "لجناب معالي قائد الجيش التركي سليم

(١) وثائق جمال باشا السفاح. الكوثر دمشق. تأليف محمد نمر المدني. ص: ١٠٢.

(٢) وثائق جمال باشا السفاح. ص: ١٠٥. مصدر سابق.

باشا الأطرش الأفخم " .

وإذاً: هناك جيش تركي يقابل جيشاً درزياً في نقطة صغيرة من الأرض. هذه واحدة، أما الثانية فلغة الخطابين لا تخلو من التهديد والوعيد، فما هو المتوقع بعد هذه العاصفة؟! .

من يراقب هذا الحدث، وهو لا يعرف طبيعة الدروز سوف يتوقع شراً مستطيراً، فلا محالة من قتال لا يبقى ولا يذر بين الجيشين، وستجري الدماء إلى الركب. ولكنه سيكتشف بعد حين أنه واهم. فلا سلطان التحق بالقوات العربية في أية مرحلة من مراحل سيرها من مكة إلى درعا، بل ولم يكن لدروزه وجود في هذه القوات. ولا سليم وجيشه قاتلوا مع القوات التركية، وهو لا يختلف عن ابن عمه في بغضه وكرهه لهم، والدم الدرزي أغلى وأثمن من أن يُراق في هذه الجهة أو تلك. والمسألة من بدايتها إلى نهايتها ليست أكثر من توزيع أدوار.

فإذا انتصر الأتراك، كان سليم شريكاً لهم في الأرباح دون الخسائر، ثم يشفع لابن عمه عندهم، وتستفيد الطائفة من هذا الانتصار الذي كان للجيش الدرزي.

العلاقات الفرنسية - الدرزية

العلاقات الفرنسية الدرزية

الدروز بعد احتلال الفرنسيين للجبل:

نابليون بونابرت والدروز

عندما حاصر بونابرت عكا في ٢٠ آذار سنة ١٧٩٨ م وجّه إلى الدروز وزعيمهم الأمير بشير الرسالة التالية:

" بعد السيطرة على مصر دخلتُ صحراء سيناء في مصر، فأُتيتُ إلى قلعة العريش ثم إلى غزة، ثم إلى يافا بعد أن التقيت جيوش الجزائر وسحققتها، ومنذ يومين وصلت إلى عكا، وأنا أحاصرها هناك. وأسرعُ إلى إعلامك بكل ذلك، لأنني لا أشك أنك تفرح لهزائم هذا الطاغية الذي سبّب الكثير من الذعر إلى الإنسانية عامّة والدروز الأباة خاصة. ورغبتني المخلصة هي أن أقيم للدروز استقلالهم وأعطيتهم مدينة بيروت ذات المرفأ كمركز تجاري لهم، لذلك فإني أرغب في أن تأتي شخصياً لمقابلتي، أو ترسلَ حالاً من يمثلك لرسم خطة للتغلب على عدونا المشترك، ويمكنك أن تضيع في جميع القرى الدرزية، إن كل من يأتي لنا بالمؤن، وخاصة الخمر، سيكافأ بسخاء".^(١)

توحي الرسالة بأن هناك شيئاً من التعاون والتنسيق بين فرنسا والدروز، لا أدري متى بدأ وما هو حجمه. ومن أهم أهداف هذا التعاون إقامة دويلة مستقلة

(١) الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. للباحث الدرزي غالب أبو مصلح. ص: ٢٢٢.

للدروز، ويشير بونابرت في رسالته إلى وعدهم ببيروت.

جواب الرسالة جاء في شهر آذار سنة ١٧٩٩م عندما التحقت قوات من الخيالة الدروز بجيش نابليون وشاركت في حصار عكا. وعن هذه المشاركة يقول نابليون: " بينما كنت أحاصر عكا، أتت إليّ مفرزة من الخيالة الدروز، تحت إمرة الشيخ عمر الظاهر وأسروني منظرهم وشعرت بدافع قوي يشدني إليهم إلى كل منهم. كنت أتخيل أن الدروز يحملون طابعاً تركيا قوياً، ولكنني رأيت أنهم لا يحملون أي طابع تركي. وأكثر من ذلك شعرت بأواصر قوية تشدنا نحن الفرنسيين إليهم".^(١) ويقول الكابتن الفرنسي " بورن ":

" إن الأمير بشير أمد بونابرت بالقادة والمستشارين، وأخبرني فارس بك الأطرش أن جده إسماعيل كان يملك عدة رسائل بإمضاء نابليون وموجهة إلى والده، ولكن هذه الأوراق أتت عليها حريق شب في المنزل".^(٢)

لم يرم الأمير بشير ودروزه بثقلهم في هذه الحرب لأن بريطانيا كانت تقف في الطرف المعادي لفرنسا، ولهذا فقد وجّه القائد البحري البريطاني [سيدني سميث] نداءً إلى الشعب في لبنان يطالبهم بالوقوف إلى جانب السلطان العثماني، والحيولة دون وصول المؤن والمساعدات إلى المحتل الفرنسي، وإذا تعارضت المصالح البريطانية مع الفرنسية، فهم ومن غير شك مع بريطانيا، ولهذا وقفوا في ظاهر الحال

(١) الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. فريد أبو مصلح. ص: ٢٢٣.

(٢) الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. مصدر سابق. ص: ٢٢٣.

إلى جانب السلطان العثماني الذي يكرهونه أشد الكراهية، ثم قاموا بتسليم القائد البريطاني ثمانين أسيراً فرنسياً كانوا يحرسون قوافل المؤن إلى معسكر نابليون. (١)

الباحث الدرزي فريد أبو مصلح يحاول التماس الأعذار لقومه، فيقول في رد له على الكابتن الفرنسي [بورون]: فالدروز الذين ذهبوا إلى نابليون، والذي يقيم حولهم السيد بورون كل هذه الضجة لعلهم كانوا من النوع الحشري وربما أرادوا رؤية الرعب الأوروبي الذي سمعوا كثيراً عنه لمقارنته بنسختهم المحلية - نابليون مقابل بشير". (٢)

يحيى الأطرش والفرنسيون:

في شهر أيار من عام ١٩١٣م كان زعيم دروز جبل حوران يحيى الأطرش منفياً في [رودس]، ومن رودس أراد أسرهم ونقلهم إلى إيطاليا.. وبعد مفاوضات سرية بين الزعيم الدرزي والفرنسيين تدخل قنصل فرنسا من أجل إطلاق سراحه مقابل وعد منه بالعمل على مساندة السياسة الفرنسية مستقبلاً بكل قواه. وهذا هو نص الرسالة:

" رودس في ٢٥ / ٥ / ١٩١٣م.

سيدي القنصل. أتشرف بأن أعرض لكم ما يلي:

(١) الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. مصدر سابق.

(٢) الدروز في ظل الاحتلال الإسرائيلي. مصدر سابق. ص: ٢٢٤.

كانت حكومة تركيا الفتاة قد نفتني لمعارضتي لها في بلادتي، داخل سورية [حوران بلاد الدروز]. فقد كنت صديقاً دائماً لفرنسا التي تتمتع في بلادتي بأعظم نفوذ، وإنني إذ أنعم الله عليّ بالرجوع إليها، سأعمل على نشر المزيد من هذا النفوذ. إن الجنرال [امغلبو] يريد أن يسوقني من منفائي هنا إلى إيطاليا مع سائر المنفيين، وبودي أن لا أحشر مع الآخرين، وإكراماً لاسمي أرجو أن يطلق سراحني وأن أغادر رودس وحدي. ولما كنت أعرف مدى اقتدارك جئت أرجوك أن تقول للجنرال بأن لا يسوقني مع المنفيين الآخرين، وإنني إذا حظيت بهذا المعروف لن أنساه أبداً، وسوف تكون بقية حياتي وقفاً على إجلالكم وعلى تقدير فرنسا.^(١)

وأطلق سراح زعيم الدروز يحيى الأطرش من منفاه في رودس بعد تقديم تعهد بالتعاون مع فرنسا ضد تركيا. وتمهياً لذلك أرسل البرقية التالية لدى وصوله إلى مصر في طريق عودته:

"حضرة مولاي ناظم باشا صاحب الدولة: المعروض إذا اتصل بمسامح دولتكم خبر وصولي إلى مصر فصدّقوه، ولكن أسترحم عدم تصديق كل ما يتناقله البعض وتنشره الجرائد قبل استجلاء الحقيقة من عبدكم الأمين والوقوف على الأسباب والأحوال التي قضت عليّ أن أبارح رودس مكرهاً، وأختار القطر المصري دون سواه. إني عبد الدولة خاضع لأوامرها وقوانينها الدستورية العادلة

(١) تطور الحركة الوطنية في سورية. الدكتور ذوقان قرقوط. ص: ٢١٦. عن وثائق الخارجية

أستحق العفو وأستميحه بواسطة دولتكم، ومستعد لخدمة دولتي العلية وبلادتي ونوايا فخامتكم الصادقة، ولا ملجأ لي إلا عدل مولانا السلطان وحكم جلالته الواسع".^(١)

هل كان هذا الذي فعله الزعيم الدرزي حيلةً ليتخلص من النفي، ثم يعود سالماً إلى وطنه وأهله؟! أم هو إعلان عن عداوته وكرهه للدولة العلية العثمانية وسيره في ركاب فرنسا التي تعادياها?!.

تحدث الباحث الدرزي الدكتور ذوقان قرقوط عن الدرروز الذين تعاونوا مع فرنسا، وقسمهم إلى قسمين: قسم استمروا على ولائهم للدولة العثمانية حتى النهاية، ونكاية بفوز الآخرين في أيام الشريف، مدّوا أيديهم للتعاون مع الفرنسيين في بيروت. "وقسم كانت السياسة الفرنسية قد كسبتهم إلى جانبها منذ زمن طويل لخدمة ما أو بسط حماية أو أي أمر من الأمور التي كانت مظالم الحكم العثماني تدفع إليها. وكان على رأس هؤلاء في جبل حوران، يحيى الأطرش، شيخ قرية عرى، التي يعترف دروز جبل حوران لكبير آل الأطرش فيها بالزعامة".^(٢)

"وبعد عودته إلى سورية [عودة يحيى الأطرش] جدّد عهده لفرنسا في الاجتماع السري بالقنصل الفرنسي في منزل الأمير عمر الجزائري بدّمّر وعلى إثر

(١) البرق عدد ١٨٢ تاريخ السبت ٢٩ حزيران ١٩١٢ [عن تطور الحركة الوطنية في سورية].

(٢) تطور الحركة الوطنية. ص: ٦٣. مصدر سابق.

ذلك قدّمت له وزارة الحربية الفرنسية هديةً مسدسين رمزاً لولائه".^(١)

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴾ البقرة: ١٤.

نوجز ما عرضنا في هذا البحث عن الدروز في النقاط التالية:

- يعيش الدروز في مجتمع طائفي مغلق، وفي داخل هذا المجتمع يختلفون .. يتخاصمون .. ينقسمون إلى أحزاب وتكتلات شتى .. وقد يستعين بعضهم بجهات من خارج الطائفة .. وفي نهاية المطاف فالدرزي درزي قبل الحزب الذي ينتمي إليه، وقبل الجيش الذي أعطاه يمين الإخلاص والولاء .. وقبل الوطن، والدولة والقومية.

- الدرزي ينزع إلى الاستقلال بدويلة، وعرف المستعمر كيف يستغل هذه النزعة فبونابرت وعدهم بيروت، وغورو منحهم دولةً خاصةً بهم، وإسرائيل وعدتهم بدولة تجمع ما بين وادي التيم والجولان وهوران، ومن ها هنا نعلم لماذا هم في صراع دائم مع الذين يجاورونهم.

- سلطان الأطرش درزي من ألفه إلى يائه. إنه ملتزمٌ أشدَّ الالتزام بقوانين وتقاليد وعادات ومعتقدات الدروز، لا يجيد عنها قيد أنملة، ولهذا فقد انحاز إلى جانب الإنجليز ضد العثمانيين التزاماً منه بالخط الذي انتهجه من سلفه من آباءه

(١) وثائق الخارجية الفرنسية [عن تطور الحركة الوطنية ص: ١٩٤].

وأجداده.

- حسم سلطان تردده، وانضمّ للثورة بعد انتصارها، بعد وصول قوات الشريف إلى درعا، والمرحلة الأخيرة من مسيرة الثورة، أي من درعا إلى دمشق، كانت قريبة الشبه بنزهة مسلحة، لأن الجيش العثماني كان في حالة مزرية من الذعر والفوضى، هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فقد بقيت قواته الرمزية في هذا الركب الزاحف نحو دمشق كمجموعة درزية حذرة وغير مندمجة مع هذا الخليط الذي يضمُّ أشتاتاً من مختلف البلدان العربية، ولا أدلّ على ذلك من المشادة العنيفة بين سلطان الأطرش وعودة بن تايه^(١) التي جرت في سرايا دمشق بحضور كبار أركان الدولة العربية الوليدة، والتي دفعت كلاً منهما إلى إشهار مسدسه في وجه الآخر، وكادت تقع الواقعة بينهما لولا تدخل المسؤولين.

وفي ظل الدولة الفيصلية الجديدة، راح الدروز يقطفون ثمرات النصر الذي شاركوا في تحقيقه، ومثلهم في ذلك مثل الذين فجّروا هذه الثورة في مكة، وقاتلوا قتالاً ضارياً طوال رحلة بلغت أكثر من ألف ميل، بل كان فيصل وأركان حكمه يوادونهم ويقربونهم أكثر من غيرهم.

(١) المشادة العنيفة بين سلطان الأطرش وعودة بن تايه سببها اجتياح بدو عودة بن تايه ودروز سلطان لدمشق وسلبها والإفساد فيها. فسلطان قال للمسؤولين أوقفوا اجتياح البدو لدمشق فأجابه عوده بل أوقفوا الدروز. ذكر هذه الرواية سلطان في مذكراته والضابط الانجليزي لورس في أعمدة الحكمة السبع وصبحي العمري في "أوراق الثورة العربية". وكل يذكرها بطريقة تختلف عن الآخر.

وكل من يرصد الأحداث منذ بداية الحكم الفيصلي سنة ١٩١٨م وحتى عدة عقود يكتشف قيام حلف عربي مرتبط ببريطانيا بشكل أو بآخر، والمنضون تحت هذا الحلف هم:

- الهاشميون الذين حكموا كلاً من الأردن والعراق.

- النصارى البروتستانت الذين كانت بريطانيا ترعاهم وتبني كل قضاياهم خلال معظم مراحل العهد العثماني.

- عبد الرحمن الشهبندر، وحسن الحكيم، ومنير العجلاني، ثم حزب الشعب الذي يتزعمه رشدي كينخيا، وناظم القدسي ومعروف الدواليبي وغيرهم.

- الدروز الذين ارتبطوا ببريطانيا منذ أمد بعيد كما بينا فيما مضى.

وليس أطراف هذا الحلف سواسية في ارتباطهم ببريطانيا، فمنهم من لا يهتم بعمالته لها، وإنما المسألة عنده ليست أكثر من وحدة سورية مع العراق والأردن وذلك مثل كثير من السياسيين السوريين .. ومنهم من سقط في أحوال بريطانيا حتى شحمتي أذنيه مثل الدروز والبروتستانت .. ومنهم من جاءت به بريطانيا، وقام نظام حكمه على هذا الأساس مثل كل من الأردن والعراق في عهد الهاشميين.

ويقابل هذا الحلف حلفاً آخر ويشمل كلاً من المملكة العربية السعودية، ومصر أيام العهد الملكي وقادة ثورة يوليو ١٩٥٢م ثم ساءت علاقات هؤلاء مع

السعودية في بداية عام ١٩٥٨م، وسورية بعد الاستقلال، وأشهر من كان يقود هذا الاتجاه شكري القوتلي والحزب الوطني وعدد كبير من السياسيين الكبار.

دولة جبل الدروز:

سأعرض فيما يلي وبشيء من الإيجاز ما جاء في الوثائق الفرنسية، ثم في مؤلفات الباحثين الدروز، عن دولة جبل الدروز ثم عن قيادتهم المزعومة للثورة السورية:

" تسلم سليم الأطرش منصب متصرف جبل حوران الذي تحوّل إلى محافظة سورية، فبالرغم من معارضته الثورة العربية، فإن مصلحة الحكومة العربية قضت بالتعاون معه لأنه زعيم الجبل العشائري، ولأنه ترأس وفد زعماء الجبل عند مجيئهم لتهنئة فيصل في دمشق".

تقول البرقية السرية التي تحمل عنوان: مخطط لتنظيم الانتداب في سورية. " أما بالنسبة لحوران، فإنه يضمّ الدروز في الجبل والمسلمين السنّة في المسطّحات، وهؤلاء زعماءهم الاقطاعيون الذين ينبغي علينا أن نستخدمهم ونحسن وضعهم... أيجب أن نترك لجبل الدروز استقلالته أو أن نضمه إلى حوران؟".

" وقبل أن يُحسم هذا الموضوع عند المسؤولين الفرنسيين، استدعى غورو الرؤساء الروحانيين الأربعة في جبل حوران: [أحمد الهجري، وحسن جربوع، وعلي الحناوي، ومحمود أبو فخر] إلى عاليه.. ولما تعذّر على الرؤساء الروحانيين الانتقال إلى عاليه بسبب نشوب ثورة الحوارنة على الفرنسيين، وقيام اضطرابات

بينهم^(١) وبين الدرروز، وكّل غورو مهمة متابعة الاتصال، الذي بدأته الغرفة السياسية في بيروت، بزعماء الجبل إلى مندوب المفوضية الفرنسية في دمشق، الكولونيل كاترو، مزوداً إياه برأيه الذي يشكّ فيه بإمكانية إلحاق سكان الجبل بسكان السهل الحوراني".

وبعد لقاءات على مختلف المستويات الدرزية رفع رجال الدين الكتاب التالي مرفقاً ببرنامج الاستقلال:

لحضرة رئيس البعثة الافرنسي في دمشق الأفخم:

بناءً على بلاغاتكم المتكررة للرؤساء الروحانيين، لنا الشرف أن نقدم لسيادتكم بالنيابة عن الشعب الدرزي في جبل حوران، برنامج الاستقلال، المدرج أعلاه الذي يطلبه الشعب لكي تتكرموا بتقديمه لحضرة صاحب الفخامة المندوب السامي راجين أن يتوسل بالتصديق عليه، من قبل حكومة الجمهورية الإفريقية المعظمة.

واقبلوا فائق احترامنا. الامضاءات

في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٩٢٠ م / الرؤساء الروحانيون ومشايخ الجبل

(١) تشير هذه الوثيقة إلى ثورة حوران ضد الفرنسيين، كما تشير إلى مواجهات بين الحورانيين والدرروز بسبب اختلاف المواقف من الاحتلال الفرنسي، وفي مثل هذه يصبح الطريق بين جبل الدرروز ودمشق غير آمن.

- ١- حكومة جبل الدروز هي حكومة شوروية ومستقلة استقلالاً داخلياً تاماً.
- ٢- تقبل حكومة الجبل الانتداب الفرنسي بشكل لا يمس استقلالها.
- ٣- تُسمى هذه الحكومة، مشيخة جبل حوران، ويدخل ضمنها كامل وعرتي واللجاة والصفاء وتمتد إلى دود دير علي من الجبهة الشمالية وإلى حدود الأزرق من الجبهة الجنوبية.
- ٤- يرأس هذه الحكومة، حاكم أهلي تنتخبه الأهالي وفقاً لقانون مخصوص مرة كل ثلاث سنوات. ويكون لها مجلس استشاري كبير، تُنتخب أعضاؤه وفقاً لقانون مخصوص مرة كل ثلاث سنوات أيضاً.
- ٥- يقوم هذا المجلس، مقام المجلس المليّ، ولا يقل أعضاؤه عن الثلاثين عضواً.
- ٦- تُعيّن وتُحدد صلاحية ووظيفة كل من الرئيس والمجلس بقانون خاص يوافق عليه عموم أهل البلاد بجمعية عامة.
- ٧- تستمد حكومة الجبل ما تحتاج إليه من المساعدة المالية والفنية والإقتصادية من الحكومة المتتدبة.
- ٨- لا يحق للحكومة المتتدبة المداخلة بأمور الجبل الداخلية ولا تجنيد أهالي جبل حوران، ولا تنزع الأسلحة منهم ضمن المنطقة الفرنسية.
- ٩- يعهد بأمور الجبل السياسية، الخارجية، لمأموري الحكومة المتتدبة

السياسيين ولا يكون للحكومة الوطنية مأمورون سياسيون لا في الشام وفلسطين وجبل لبنان.

١٠- واردات الحكومة تكون:

أولاً: ما يصيبها من حصة الجمارك السورية والفلسطينية.

ثانياً: ما يصيبها من واردات ممالح أثري وكاف.

ثالثاً: واردات قرى أملاك الدولة، التي ستدخل ضمن حدود حكومة الجبل.

رابعاً: ما يطرحه المجلس المليّ، من الضرائب، عند الاحتياج المبرم. على أنه لا يحق لهذا المجلس أن يقرر استيفاء الأعشار من حاصلات الأراضي، إنما الأموال التي يجوز له أن يقرر استيفاءها من الأراضي يجب أن تكون مقطوعةً، ومصداقاً عليها من عموم أهل البلاد بجمعية عامة.

١١- إذا خالف رئيس الحكومة، منافع الجبل العمومية ومصالحه الحيوية، وأخلّ بالقوانين الموضوعة الأساسية وأعطى قراراً من المجلس بتنحيته واستحصل على فتوى من مشايخ العقل بذلك، فحينئذ يتنحى ويُنتخب خلفه.

١٢- مشايخ العقل، يكونون منصوبين لقيّد الحياة، ولا يُعزلون، ولا يحق للحكومتين الوطنية والمنتدبة، المداخلة بوظائفهم الدينية.

"وفي مطلع آذار من عام ١٩٢١م وقّع المندوب الفرنسي في دمشق اتفاقيةً مستمدةً من [برنامج الاستقلال] اعتُبرت كنظام أساسي لدولة الجبل، ثمّ أنعم المندوب السامي على سليم باشا الأطرش خليفة يحيى بلقب أمير وعيّنه حاكماً على الجبل. وفي ٢٤ تشرين الثاني عام ١٩٢٢م أصدر الجنرال غورو قراره رقم ١٦٤١ بإعطاء جبل حوران استقلاله باسم [دولة جبل الدروز المستقلة].

وهكذا خلقت دولةً لم يكن عدد سكانها يتجاوز الخمسين ألفاً ووجد لها علمٌ مستمدٌ من رموز طائفية، ومجلس تمثيلي يكاد أعضاؤه جميعهم أن يكونوا أميين. وتكريساً لهذا الكيان الطائفي وتعميقاً له صارت تُقام منذ ذلك الحين، احتفالات تبدأ في ٥ نيسان من كل عام وتمتدّ خمسة عشر يوماً، باسم أعياد الاستقلال، تشارك فيها جميع القرى بإقامة نزل خاص لكل منها، تشارك في نفقاته عائلات القرية كلها، فتبارى القرى في الكرم وتقديم ألوان الفولكلور الشعبي وإظهار الابتهاج، يحضرها المندوب السامي أحياناً بنفسه".

وترتيب أمور فرنسا مع الدروز بدأ منذ عام ١٩١٨م، وكان يتمّ ذلك تحت سمع وبصر فيصل بن الحسين، وكان يعترض ويستنكر ويقابل الفرنسيون ذلك كله بعدم الاهتمام.. وكانت عرائض العملاء تُقدّم إلى معتمدهم في دمشق الكولونيل كوس: "وعندما عُيّن الجنرال غورو مفوضاً سياسياً وقائداً عامّاً لجيوش فرنسا في الشرق اختار حرسه الخاص من أبناء جبل حوران بمعرفة متعب الأطرش، وخصّ الجبل بأكثر من ثلاثة آلاف صورة من صورته وهو في زيّه

العسكري ويحيط به حرسه، وأوحى بالإكثار من دعوة الوفود من الجبل إلى بيروت، بمناسبة وبغير مناسبة، حيث كانت تنزل في ضيافة المفوضيّة العليا، وتحظى بإكرامها، فتنام على الأسرة الوثيرة، وتتفخ أوداجها زهواً لدى مشاهدتها لمواكب المفوض السامي الفخمة يحف بها حرس من أبنائها بثيابهم العربية المزركشة وسيوفهم المتوهجة".^(١)

سارت مشرقةً وسرتٌ مغرباً:

ساءني تجاهل المؤرخين والسياسيين لثورة أهل حوران التي أعقبت ميسلون بأيام قليلة، فتوسّعت في الحديث عنها، وإلا فشعب سورية^(٢) كله هبّ هبةً رجل واحد في وجه المستعمر البغيض، يذود عن دينه وحرّيته واستقلاله. يقول الجنرال الفرنسي [ساراي]:

"إن سورية شهدت سنة ١٩٢٢ م وحدها خمساً وثلاثين ثورةً، دُفن فيها من الجيش الفرنسي خمسة آلاف جندي. قد جعلت من الانتداب حملاً من الأشواك على عاتق فرنسا".^(٣)

هذه كانت خسائر فرنسا وحدها سنة ١٩٢٢ م باعتراف ساراي، وربما كانت

(١) الوثائق الفرنسية عن كتاب: [تطور الحركة الوطنية]، وكتاب: [دروز سورية ولبنان في

عهد الانتداب الفرنسي].

(٢) لا أستثني إلا النصارى والنصيريين والدروز.

(٣) صحيفة المقطم ٤/٩/١٩٢٠ م [عن تطور الحركة الوطنية ص: ٥١] مصدر سابق.

الحقيقة أضعاف ذلك. فكم كانت خسائرها قبل ذلك؟، وكم كانت هذه الخسائر بين ١٩٢٢ - ١٩٢٥ م؟!، وأين الدروز من هذه الثورات المجيدة؟!.

لقد كانت قيادتهم الدينية والسياسية قد رتبت أمورها مع فرنسا أثناء الحكم الفيصلي - كما رأينا ذلك كله فيما مضى - وكان غورو قد اتخذ حرسه الخاص من الدروز!! وهذه المسألة في غاية الأهمية لأن الزعيم أو الحاكم لا يتخذ حرساً إلا من أقرب الناس إليه، فكيف إذا كان هذا الحاكم مستعمراً فرنسياً، والحرس ممن يجترؤون العروبة صباح مساء، ويزعمون ويزعم معهم المغفلون من أبناء ملتنا أنهم كانوا قادة الثورة السورية ضد الاحتلال الفرنسي؟!، لا يستوي هذا وذاك، وغورو لم يكن مغفلاً عندما أئتمنهم على نفسه.

وبعد معركة ميسلون بأيام كان دخول القوات المحتلة إلى جبل الدروز برداً وسلاماً على فرنسا، فسارعوا إلى تثبيت مركز رَجُلهم وابن رَجُلهم وعميلهم سليم بن يحيى الأطرش كحاكم للجبل وأنعموا عليه بلقب أمير، وعينوا إلى جانبه مستشاراً فرنسياً يشاركه الحكم إن لم يكن هو الحاكم الفعلي.. ثم شكّلت فرنسا دولة لهم، وهذا ما يتطلعون إليه دائماً، ولم يكتفوا بذلك، بل شكّلوا كتيبةً يستخدمونها في قتالنا وفي إطفاء شعلة الثورة.

فعندما شبَّ لهيب ثورة الحورانيين بعد معركة ميسلون بأيام قليلة، كان الفرنسيون يقاتلوننا من جهة^(١)، وجيراننا الدروز يقاتلوننا من جهة أخرى، دون

(١) عندما نتحدث عن مثل هذا الموقف، فهذا لا يعني أنّ كل درزي كان كذلك، فبينهم من

أي مراعاة لحقوق [الجيرة] ، ولن أستدلّ على ذلك بأقوال الحورانيين الذين شاركوا في هذه الثورة، وإنما بوثيقة فرنسية تشير إلى سبب انتقال المفاوضات الفرنسية الدرزية من عاليه في لبنان إلى دمشق. تقول الوثيقة:

" .. وإذ تعذّر على الرؤساء الروحيين الانتقال إلى عاليه بسبب نشوب ثورة الحوارة على الفرنسيين، وقيام اضطرابات بينهم وبين الدرروز، وكّل غورو مهمة متابعة الاتصال، الذي بدأته الغرفة السياسية في بيروت، بزعماء الجبل إلى مندوب المفوضية الفرنسية في دمشق، الكولونيل كاترو، مزوداً إياه برأيه الذي يشكّ فيه بإمكانية إلحاق سكّان الجبل بسكان السهل الحوراني ".^(١)

أجل، لم يقف الدرروز على الحياد من ثورة جيرانهم الحورانيين ضد فرنسا. لقد قاتلونا بطريقة أو بأخرى، مما دعا إلى توتر الأجواء، وأصبح طريقتهم إلى عاليه غير آمن، وهذا يحدث دائماً عندما تقع مناوشات بين الحورانيين والدرروز لأن معظم الطرق التي يسلكونها إلى دمشق ولبنان تصبح غير آمنة. وبكلمة موجزة أقول: لقد كان يصدّق فينا وفي الدرروز قول القائل:

سارت مشرّقة وسرت مغرباً شتان بين مشرّق ومغرب

كان يكتّم إسلامه ومنهم من يمتلك شعوراً عربياً، ولا نشك في إخلاصه لوطنه.

(١) ٣١٠، P. ١٩٥٧، Paris، ١٩٢٢-١٩١٩، "Deux-orient"، Catroux، عن كتاب [درروز

سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي. ١٩٢٠-١٩٤٣] مصدر سابق.

ثورة سلطان الأطرش

ثورة سلطان الأطرش سنة ١٩٢٢م^(١)

الذين يجعلون من القشة الصغيرة شجرة ضخمة يصفون كثيراً من الأقاويل والعبارات الإنشائية على ما يُسمّى بثورة سلطان الأطرش سنة ١٩٢٢م، وما هي بثورة وإنما هي ردة فعل محدودة على موقف فرنسي كان فيه كثير من الحمق والاستفزاز. وهذه هي الحقائق التاريخية التي لا يستطيع أحد ردها:

اتُّهم أدهم خنجر [شيعي لبناني] بأنه كان من أفراد المجموعة المتهمة بمحاولة اغتيال غورو، وعندما علم بأن الأجهزة الفرنسية تبحث عنه وتنوي إعدامه، التجأ إلى الأردن، " واحتتمى بالقائد فؤاد سليم -وهو درزي- إلى أن شعر هذا أنّ المخابرات البريطانية علمت بوجوده، وعزمت على أن تقبض عليه. فنصحته بالالتجاء إلى مكان آمن، وأرسله بصحبة شكيب وهّاب -وهو درزي- إلى القرية ليحتمي بحمي سلطان الأطرش "، وعند وصوله إلى القرية في ١٧ تموز ١٩٢٢م اعتقلته السلطة الفرنسية وأرسلته مخفوراً إلى سجن السويداء.

وكان سلطان آنذاك في قرية [أم الرمان] فأعلمه شكيب وهّاب بما حصل فأسرع يطالب بإطلاق سراح أدهم خنجر الذي لم يكن يعرفه لأنه جاء إلى داره

(١) ولد في ٥ آذار ١٨٩١م والده ذوقان بن مصطفى بن اسماعيل الثاني، ومما يقوله عن والده كان مقرباً من الهيئة الروحية في الجبل وكان معتمداً وملتجياً. في عام ١٩١٠م خدم الجنديّة الاجبارية في الجيش العثماني. أعدم الأتراك ذوقان والد سلطان عام ١٩١١م بسبب تمردّه على الدولة العثمانية. إخوان سلطان هم: علي، ومصطفى وزيد.

مشهداً^(١)، ولأن عمل الفرنسيين مناقض للبند الثاني من النظام الأساسي لحكومة جبل الدروز الذي ينص على وجوب انطباق إدارة الجبل على العوائد المحلية التي منها تقليد الإجارة شبه المقدس، وهو تقليد مارسه السكان في عهد الحكم العثماني، والعهد المصري، واشتهروا به، وكانت ممارسته شاهد قوة ومدعاة فخر واعتزاز.

وحين لقي الأطرش صدماً لطلبه، وتحديداً من المستشار الفرنسي [ترانكا] الذي قال لأخيه علي الأطرش: " إن الرجل أدهم خنجر في القلعة، ليأت أخوك ويأخذه، لقد صار في حوزة الجند الفرنسي .. عندكم المحافظة على الضيف وعند الجند المحافظة على الجاني ".

استنفر أنصاره من قرى المقرن القبلي والسويداء، وقاموا بقطع طريق السويداء-دمشق، ثم بتطويق قلعة السويداء التي كان أدهم خنجر نزيلها .. لكن القيادة الدرزية الفعالة تحركت ضد سلطان والقلّة القليلة من الدروز هي التي استجابت لندائه: " فعمم قائد الدرك توفيق الأطرش في ١٩ تموز باسم الحاكم العام سليم الأطرش الذي كان في دمشق، بلاغاً على نواحي الجبل يصف فيه مجيء سلطان ورفاقه إلى السويداء لإنقاذ أدهم بالجهالة، وينذر من يشاركهم بأشد العقاب، وينصح الجميع بالتزام السكينة ".

(١) الضيف المشهد هو الذي يعرف الناس أنه لاجيء إلى دار امريء وفي حمايته، فيصبح لزاماً على هذا المرء أن يدافع عنه حتى لو لم تطأ أقدامه أرض الدار، [عن كتاب دروز سورية ولبنان] مصدر سابق.

وسارع سليم الأطرش في العودة إلى السويداء برفقة نسيب الأطرش، وتسلم الأسرى الفرنسيين من سلطان ومن معه ووعدهم بتسليم أدهم خنجر، لكن هذا الوعد لم ينفذ، وأدهم خنجر نُقل بالطائرة، وحوكم وأعدم في بيروت، ثم أرسل حاكم الجبل سليم الأطرش البرقية التالية إلى القيادة الفرنسية: "إنني وحكومتني نبدي لسعادتكم شديد التأثر مما فعل في غيابي بضعة أفراد من الفظاعة. الحركة فورية محضة. ستقوم الحكومة بواجباتها بشدة. إخلاص الطائفة لا يتزعزع. أرجو تأكيد ذلك لفخامة المفوض السامي مع احتراماتي".

وأرسل رؤساء الدين: علي الحناوي، وأحمد الهجري، ومحمود أبو فخر، وحسن جربوع للفرنسيين البرقية التالية: "بصفتنا رؤساء جبل الدروز الروحيين، نؤكد إخلاص طائفتنا لسعادتكم وللجمهورية الجلييلة، مع شدة تأثرنا مما أجرته فئة عندنا، ونقبّح أعمالهم الفورية، والدروز يُقبّحون ذلك ويتبرأون منه".

كما أرسل نسيب الأطرش البرقية التالية:

"نحن دروز حوران نتبرأ من فظاعة الحركة الإفرادية التي أجراها أفراداً عندنا. ومن حاكمنا ومستشارنا تتأكدون إخلاصنا، نسترحم حصر الذنب بمرتكبيه، وعرض هذا على فخامة المندوب السامي".

يقول الباحث الدرزي حسن البعيني:

"إن وقوف الفريق الأكبر من سكان جبل الدروز وزعمائه، إضافة إلى الرؤساء الروحيين الأربعة، وجميع مسؤولي السلطة المحلية، إلى جانب الفرنسيين أدى إلى

عزل الثوار واستفرادهم، وغدت معركتهم السياسية مع الفرنسيين معركةً درزية درزية، وكادت تتحول المعركة العسكرية كذلك إلى معركة درزية درزية نتيجة لإشراك الجند المحلي إلى جانب الجند الفرنسي في تعقبهم لو لم يتجنّب سلطان الاشتباك مع الجند المحلي. وجميع هذه العوامل أدّت إلى لجوئه إلى شرق الأردن".^(١)

وقفات:

وبعيداً عن العبارات الإنشائية الفضفاضة أقول:

إنها حركة محدودة نهض بها سلطان الأطرش دفاعاً عن كرامته وسمعته، ولا ينبغي لرجل مثله أن يصمت أمام استفزاز الفرنسيين له. ولم تتجاوز هذه الحركة الدائرة الدرزية في جبل حوران، وليس لها أية علاقة بالثورة العربية السورية، بل لقد حاول الإفراج عن أدهم خنجر سلمياً، فناشد ابن عمه حاكم الجبل سليم الأطرش بالتدخل كما ناشد الفرنسيين وعندما فشلت كل محاولاته السلمية عمل على إطلاق سراح ضيفه بالقوّة، ففعل ما فعل. لكنه فشل عندما واجهته القيادة

(١) اعتمدتُ فيما ذكرته عن ثورة سلطان الأطرش عام ١٩٢٢م على كتاب الباحث حسن أمين البعيني في كتابه "دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي"، لأن الكثير من المراجع اعتمدت على هذا المصدر، ولأن المؤلف أجرى مقابلات مع الذين كان لهم دور في هذا الحدث من أمثال: أسعد سليم، وشكيب وهّاب، وزيد الأطرش. واعتمد المؤلف أيضاً على المراجع التي تحدّثت عن هذه المسألة في وقت حدوثها.

السياسية والدينية والغالبية العظمى من الدروز، وأصبح وحيداً في الساحة، فحتّى الذين يتعاطفون معه، ظهر من بينهم من يقول: إنها حركة ارتجالية.

وسلطان هو الذي تراجع ورضي من الغنيمة بالإياب، ولولا ذلك لتدخل الجند المحلي وهم دروز، ولقاتلوه إلى جانب الفرنسيين، وهو لا يريد أن يقاتل الدرزي درزياً آخر، ولهذا انسحب والتجأ إلى الأردن، واستمرت علاقاته مع الفرنسيين في توتر، وما نسيّ ولن ينسى ما فعلوه به، ولهذا كان أول شيء فعله في الأردن إنشاء تكتل درزي يجمع ما بين دروز الجولان الذين التجأوا إلى الأردن خلال عامي ١٩١٩-١٩٢٠م، والدروز الذين يتولون مسؤوليات عسكرية وسياسية في الحكومة الأردنية. أما الشيء الثاني: فقد تلاقى رغبة سلطان الأطرش، وبعض الزعماء الضباط في الأردن، مع رغبة الأمير عبدالله بن الحسين على احتلال جبل حوران، واتخاذ بموقعه الحصين منطلقاً لثورة ضد فرنسا، ولكن حال دون ذلك التعاون الفرنسي - البريطاني الذي يربط بينهما، ووضع الأردن آنذاك الذي لا يسمح باتخاذ قرار سياسي.

لجأت السلطات الفرنسية إلى مفاوضة سلطان الأطرش، بعد فشل مكائدها ضده، وأرسلت إليه وفداً برئاسة متعب الأطرش يعرض عليه المصالحة والعودة فرفض، ثم أرسلت إليه وفداً آخر من زعماء الجبل، وأبلغه الوفد أن السلطات الفرنسية ستصدر عفواً عاماً عن كل الذين شاركوا معه في ثورته، وبدون شروط

مسبقة فقبل وعاد في ٥ نيسان ١٩٢٣ م.^(١)

وبعد عودته سوّى أموره مع أبناء عمومته حكّام الجبل، ومع الرؤساء الدينيين، وليست هذه التسوية هي الأولى ولا الثانية بعد الخلافات الشديدة التي تنشبت بينهم، ويظن غيرهم وهو يسمع تصرّجاتهم وتهديداتهم أن الدماء بينهم ستصل إلى الركب، لكن هذه التسوية تجري داخل الدائرة الدرزية المغلقة، ولا يمكن أن تستبعد منها شيئاً من توزيع الأدوار.

(١) دروز سورية ولبنان. البعيني. ص: ١٦٣، والدور الأردني في النضال العربي السوري.

محمود العبيدات. ص: ٤٣٣.

**ثورة سورية الكبرى سنة
١٩٢٥م**

ثورة سورية الكبرى سنة ١٩٢٥م

لم تتوقف ثورة الشعب السوري منذ احتلال الفرنسيين لدمشق سنة ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٥م، وتكبّد الغزاة خسائر فادحة، إلا أن أهل الحلّ والعقد من العلماء وأهل الرأي استصغروا ما فعلوه، واتفقوا في جلسات سرية على تطوير هذه الثورة، ومن أجل ذلك التجأوا إلى شيخ شيوخ الشام العالم الكبير بدر الدين الحسيني، وطلبوا منه أن يقوم بجولة على المحافظات السورية، ويلقي دروساً في مساجدها يتحدث فيه عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ثم يتوسع في شرح آيات الجهاد في سبيل الله وبيان أحكامه وآدابه.

استجاب الشيخ رحمه الله لهذه الدعوة، ورافقه في رحلته عدد جُمٌّ من كبار العلماء، وقد استقبله الشعب أينما حلّ وأينما ذهب بالترحاب، وكان الناس يخرجون لملاقاته خارج القرى والمدن باستقبال منقطع النظير.

وفي كل مدينة كان الشيخ بدر الدين يلقي درساً في أكبر مساجدها، ثم يتوزّع العلماء على أهم المساجد، وما كانوا يغادرون المدينة إلا وقد حرّكوا المشاعر، وهزّوا الضمائر وهيأوا الناس لأمر قادم. يقول الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله:

"وكانت هذه الجولة هي الشرارة التي أشعلت الثورة، لا أقول هذا من عندي، ولا نقلاً عن الثقات العارفين من مشايخي وصحبي، كلهم يعرف هذا، ويعرفه كلّ من أدرك تلك الأيام، ولكن أنقله عن تقرير رسمي لمندوب المفوض السامي الفرنسي، نشرته جريدة [الأحرار] في بيروت العدد ٦٧٨ الصادر في الثاني من

شعبان ١٣٥٤ هـ."

وقال مثل هذا القول عبد الغني الأسطواني في كتابه "العرب من وراء اللهب" والأسطواني مجاهدٌ شارك في الغوطة وغيرها. وفرنسا ما كانت تستطيع منع الشيخ بدر الدين من جولته، لأنه كان منقطعاً لدروسه وعبادته، ولم يكن من الناشطين في الحقل السياسي.

بدأت الثورة بعد عودة الشيخ من رحلته، وعن بدايتها يحدثنا الشيخ علي الطنطاوي الذي استكتب الشيخ محمد إسماعيل الخطيب، وكان مع نفر من إخوانه أول من خرج إلى الغوطة، ولهذا فأنا ألخص منها ما حاول الشيخ علي أن يلخصه فأطال:

- تحدّث الشيخ محمد إسماعيل الخطيب عن زيارة كراين الأمريكي لدمشق التي تبعها اعتقال: عبد الرحمن الشهبندر، وحسن الحكيم، وزكي الخطيب، وسعيد حيدر، ثمّ نفيهم إلى جزيرة أرواد مقابل الساحل السوري.

- ونفيهم كان يوم الأربعاء، وكانت الأحداث كلها والتظاهرات تبدأ من الجامع الأموي، بعد صلاة الجمعة، فلما كانت الجمعة، وقُضيت الصلاة، قام الدكتور خالد الخطيب فخطب مطالباً بالاستقلال، وإطلاق المعتقلين، وخطب غيره، وخرج المصلّون متظاهرين، فقابلهم رجال الشرطة، ثمّ جاء الدرك .. ثمّ دارت معركة انتهت بقتل خمسة من الشباب، وكان هؤلاء أوّل فوج من الشهداء، بعد ميسلون.

- ويمضي الشيخ الخطيب في حديثه: [...] وصار تشكيل جماعات جماعات لأجل أن تقوم البلاد بمساعدة بعضها البعض على الفرنسيين، وأنا العبد الفقير، كانت وظيفتي أن أحمل مصحفاً وخنجرأً، ونحلفُ الناس، والله حَلَفْتُ مقدار أربعة آلاف من صنف الزكزية والرجال المشهورة ... ثم ذكر أسماء من حَلَفهم من العمارة، والشاغور، والميدان، وسوق ساروجة، وحارة الأكراد].

- بعد عودة الشيخ من رحلة الشمال، كان قد اقترب يوم المولد، وكان أهل الشام كغيرهم في أكثر البلاد، يجتمعون لقراءة قصّة المولد، وتوزيع قراطيس السكر الملبّس ... فجَدَّ جديد تلك السنة، هو أن الاحتفال تحوّل من اجتماع على قراءة قصّة المولد، وإنشاد الأناشيد، وأكل السكاكر إلى مهرجان وطني شعبي، وإلى مباراة بين أحياء دمشق في نصب أقواس النصر، وتغطيتها بفروع شجر الغوطة وتزيينها بالورد والزهر، ورفع الأعلام عليها، واللوحات الداعية إلى النضال، التي تمجّد الاستقلال، وتنكر الاحتلال ... وكانت مسابقةً إلى إقامة الحفلات الوطنية، كل يوم من الأيام من الأحياء، يقيم أهل الحي العراضات، وهزجون بالأهازيج ثمّ يحضر موكب الزعماء الوطنيين فيخطبون وتشتدّ الحماسة وربما مشوا بمظاهرة، فاصطدموا بقوى الحكومة. وكانت الحكومة حكومتين: المحلية وأعضاؤها كدُمى مسرح العرائس، لا يتحركون حتى تحركهم أيد لا نراها، والحكومة المتدبة، أي الفرنسيون.

- وعن بداية الثورة يقول الشيخ الخطيب:

[وفي منتصف الليل خرجنا من عند بستان عرنوس، وحطينا عنده -أي وضعنا- لفاتنا -أي عمائمنا- وقنابزنا، ولبسنا لباس الثورة وخرجنا مع إخواننا وذكر الأسماء التي خرجت معه.. حتّى وصلنا جسر تورا اعترضنا اثنان من الفرنسيين فقتلنا الأول وشلحنا الثاني، وقعدنا في الزور عند جسر الغيضة] ثمّ خرج أكثر المجاهدين وبدأت الثورة.

جولة الشيخ الحسني في مذكرات الحوراني:

يعترف أكرم الحوراني بأن استقبال الناس في مدنهم وقراهم للشيخ بدر الدين الحسني يفوق الوصف، وقد شاهد مدينته حماة تخرج عن بكرة أبيها لاستقبال الشيخ، لكنه يقرأ هذه الجولة قراءة معكوسة ومُبغضة ليس فيها إلا الحقد والكراهية. يقول: " كان الشيخ بدر الدين الحسني رجل دين يبدو عليه أنه كان منقطعاً للعبادة والتصوف فأغراه الفرنسيون بأن يقوم بجولة في المدن مصطحباً معه ابنه الشيخ تاج الدين الحسني^(١) الذي سيكون صنيعتهم. ولا أزال أذكر كيف خرجت حماة عن بكرة أبيها لاستقبال الشيخ بدر الدين استقبالا يفوق الوصف، فقد كانت الانتهات الصوفية من أقوى المحرّكات الاجتماعية في الأوساط الشعبية

(١) ويل أكرم الحوراني من مشهد يوم عظيم!! فما هي علاقة شيخ شيوخ الشام والعلماء الكبار الذين رافقوه بالشيخ تاج الدين وحكمه وتعاونه مع فرنسا؟!، هؤلاء يبيعون الناس إلى ثورة وهذا [تاج الدين] يمشي- بطريق مختلف كل الاختلاف؟!.. لقد بيّنت تهافت أقوال الحوراني في جريدة القدس العربي التي تصدر في لندن أثناء نشرها لمذكرات أكرم الحوراني.

التي ورثت تخلف خمسة قرون من الحكم العثماني، وفي تلك الفترة ازداد عدد اللغات البيضاء حول رؤوس الناس بشكل ظاهر، وجعل المشايخ أبناءهم الأطفال يتعمّمون بلغات بيضاء كبيرة، مما كان موضوع تندر المثقفين، حتى أن شاعراً حمصياً، وقد شهد مثل هذا الاستقبال في بلده، أبدع قصيدةً لاذعة لا مجال لذكرها هنا... وهكذا أرادت فرنسا أن تستغل العاطفة الدينية البريئة لدى أبناء الشعب البسطاء تمهيداً لتعيين الشيخ تاج الدين الحسيني رئيساً للوزراء في ١٥ شباط ١٩٢٨ م. " (١).

وقفات:

الشيخ بدر الدين الحسيني شيخ شيوخ الشام، كان محدثاً، فقيهاً، أصولياً، رياضياً، عالماً بالمنطق. تتلمذ على يديه عددٌ جُمٌّ من كبار علماء الشام. فهل يستوي هذا ووصف أكرم الحوراني له بأنه كان منقطعاً للعبادة؟! هذه واحدة، أما الثانية، فقد كان مهتماً أشدّ الاهتمام بالتدريس والعبادة، ومع ذلك فحضوره القوي في قضايا الأمة العامّة لا ينكره إلا من كان جاهلاً أو من طمس الله على بصره وبصيرته، وفيما يلي بعض الأمثلة على هذه المشاركة الفعّالة:

١ - جاءه جمال السقّاح يطلب أن يفتيه في مشروعية إعدام الذين كانوا يتأمرون مع فرنسا وبريطانيا ضد الدولة العثمانية فأبى لأنه يعلم استبداد جمال باشا وطغيانه.

(١) مذكرات أكرم الحوراني: ٨٣ / ١. مكتبة مدبولي.

٢- أبا الشريف حسين أن يعلن الثورة ضد الدولة العثمانية قبل أن يأتيه توقيع الشيخ بدر الدين وعدد معين من علماء الشام بالموافقة، وقد كان وأعلن الثورة.

٣- جولته التي وصفها الضال المضلّ أكرم الحوراني بأنها جاءت بإيحاء من فرنسا، كانت تمهيداً لإعلان الثورة وشهد بذلك عشرات من العلماء والدعاة الذين شاركوا في هذه الثورة، كما شهد بذلك عشرات من المجاهدين الذين كانوا يصلّون صلاة الفجر مع الشيخ، ثم يتلقّون منه التعليمات والمساعدات، ثم يخرجون لواداً إلى الغوطة التي كانت منطلقاً للثورة.. أفنعرض عن هذا كله، ونأخذ برواية طفل سفيه [كان عمر الحوراني قرابة عشر سنين أو يزيد قليلاً] أشرب كره العلماء والدعاة والجماعات الإسلامية؟!.

أما الثالثة: فهذا الذي يفترى على شيخ شيوخ الشام، ويسخر من الأمة التي خرجت عن بكرة أبيها لاستقباله، ويهزأ من اللغات [العرائم] وهي تيجان العرب لننظر إلى رفته ولطفه وندمه طوال عمره على غلطة ارتكبتها وهو طفل صغير.. لندعه يتحدث عن هذه الغلطة:

" زار ساطع الحصري مدير المعارف آنذاك مدرستنا كما زارها الحوري اسطفان وهو لبناني من كبار الخطباء المُفوّهين، ومن أبرز الدعاة لفيصل وللإستقلال. وقد وقع اختيار الحوري اسطفان عليّ من بين الأطفال فاستدعاني وسألني عن عاصمة سورية، ولم أكن أفهم معنى كلمة عاصمة، فقدرت بشكل عفوي أنه يسألني عن أكبر مدينة فأجبتة: الشام.. قال: ولماذا نحن نحارب الفرنسيين؟ فأجبتة: لأنهم

نصارى كفّار!!، إنني ما أزال حتى الآن أشعر بالخجل لهذا الجواب الذي أربك اسطفان، بينما أراد أن يعلمني بلغة الكبار معاني الوطنية والعروبة والاستقلال".^(١)

ربّي أهل الحوراني ابنهم تربيةً صحيحةً على الفطرة، فهم قالوا له: نحن نحارب الفرنسيين لأنهم نصارى كفّار، ولأنهم اعتدوا علينا واحتلوا بلادنا وصادروا حرياتنا، ولو كانوا نصارى ذميين لما جاز لنا أن نحاربهم، بل الواجب أن نحسن إليهم. ولكن أكرم كطفل حفظ بعض ما قاله أهله ونسي بعضه الآخر. وليس مستغرباً أن ينسى الطفل، والخوري اسطفان يعرف عقيدة المسلمين في النصارى، ولكن المستغرب أن يذوب هذا الطفل خجلاً وندماً أمام هذا الخوري، ويرافقه هذا الندم طوال سنيّ عمره، ولم يندم على ظلمه للشيخ بدر الدين الحسني، وسخريته من علماء المسلمين؟!، سبحان الذي يُضللّ من يشاء ويهدي من يشاء.

أما الرابعة وهي الأكثر خطورةً، فهذه عينة من عينات العلمانيين الذين يكتبون تاريخ أمتنا المعاصر. إنهم يصنعون بطولات لا أصل لها للأقليات التي تدين بغير الإسلام، ويفترون على العلماء والدعاة والهيئات الإسلامية، والعقلاء منهم يكتفون بتجاهل هذا الدور!!.

(١) مذكرات الحوراني. ١/٥٥. مكتبة مدبولي.

دور الدروز في ثورة سورية الكبرى

لا يستطيع باحث منصف أن يتجاهل ثورة الدروز ضد المحتلين الفرنسيين سنة ١٩٢٥م، ولا ما قدموه من بطولات وتضحيات، ولكن هذا الباحث لا يستطيع تجاهل صمتهم طيلة خمس سنين ولا الأسباب التي دفعتهم إلى إعلان هذه الثورة. وليبيان هذه الأسباب لابد لنا من تلخيص أهم ما مرر معنا في بحثنا هذا عن الدروز ثم ننتقل منه إلى ما جدّ من أحداث.

نوجز ما مرر معنا في مسألتين:

الأولى: الدروز مجتمع مغلق له خصوصياته التي لا تسمح لغير الدروز بالتدخل بها، ولا يستطيعون العيش مع غيرهم في بقعة جغرافية واحدة، ولهذا فحروبهم مع جيرانهم لا تنقطع، ولهذا أيضاً فقد حافظوا على كيان خاص بهم منذ القديم، ومن أجل هذا رحّبوا بالاحتلال الفرنسي عندما صنع لهم هذا الكيان.

الثانية: لم ولن ينسى سلطان الأطرش ما فعله الفرنسيون به، ومن يعرف طبيعة هذا الرجل وتاريخه يعلم أنه لا بدّ أن يثار منهم. وقد وجد خلال إقامته في الأردن من يلتقي معه على هذا الهدف من الدروز ومن المسؤولين الأردنيين، وقد عاد إلى الجبل وفي نيته التخطيط لتحقيق هذا الهدف، ويعلم جيداً أنه لن يستطيع التحرك دون موافقة القيادتين: السياسية والدينية، ولن يتغير موقف القيادتين إلا إذا خالف الفرنسيون برنامج الاستقلال الذي تم الاتفاق عليه بين الطرفين: الدرزي والفرنسي.

تسلسل الأحداث:

- كان الدروز يعلمون أن إعدام أدهم خنجر غلطة ارتكبتها فرنسا، ومخالفة صريحة لبنود برنامج الاستقلال، ومع ذلك فقد عارضوا حركة سلطان الأطرش لأن ما حققوه من مصالح يدفعهم إلى تجاوز عدة أخطاء وليس خطأ واحداً.

- هناك تنافس تقليدي بين آل الأطرش على زعامة الجبل، وعندما أنعمت فرنسا على سليم بن يحيى بلقب أمير وعيّنته حاكماً، فهذا يعني عند بعضهم انحيازها لدار "عري" على حساب دار "السويداء" وسيدها عبد الغفار الأطرش. وتجدد هذا الخلاف عند موت سليم الأطرش، واختيار فرنسا عمه حمد ليخلف ابن أخيه في مسؤوليته. لقد رفض عبد الغفار الأطرش هذا الاختيار وقال: "كل واحد زعيم بيته".

- استغل الكابتن كارييه مستشار الحاكم هذا الخلاف وأعلن عن نفسه حاكماً بالوكالة لمدة ثلاثة أشهر، ريثما يتم الاتفاق بين داري [عري والسويداء] على اختيار الحاكم الوطني للجبل، وكان ذلك سنة ١٩٢٣م، وطال أمد هذا الخلاف، واستمر كارييه يدير هذا المنصب بالوكالة حتى أعيد انتخاب المجلس الوطني في تشرين الأول من عام ١٩٢٤م، فجمع أعضاء المجلس وتكلم فيهم وهو يمدّ يده بقبّعته السوداء، فقال: "من يريد اختيار حاكم وطني يضع ورقة سوداء، ومن يريد اختياري يضع ورقة بيضاء"، فكانت النتيجة أنه انتخب بإجماع الأصوات.

سار كارييه أول الأمر سيرة لين وعطف، حتى تمكّن من العَضّ فنهش. ومن

نوادره الفذة أنه كان إذا ذهب إلى قرية ولم يخرج أهلها لاستقباله بالخيل والرّجل كليهما فرض عليها الغرامات الباهظة وحشاها في جيبه كما فعل في قرية [عرمان] مثلاً.

ومن ذلك أن هرّة للملازم [موريل] ضاعت في السويداء فغرم الأهلين بسببها عشر ليرات عثمانية، وأنه استاء مرّة من فهد الأطرش خرّيج الأستانة فضربه بيديه ورجليه وبالسياط على مرأى ومسمع جميع الناس. وكان إذا سمع وشايةً من الجواسيس على أحد من الأعيان أو شيوخ العقل أرسله حالاً إلى السجن من غير محاكمة أو استنطاق، وشغله بتكسير الحصى لتعبيد الطرقات كما فعل بسليمان بك نصّار مثلاً وهو شيخ قرية [ساله] وعين أعيانها، وبالشيخ صالح طريه وهو علمٌ في الفقه والصلاح في الجبل. هذه نبذة مختصرة من نوادره في الظلم وحجز الحرية الشخصية أجمع الرواة عليها وبلغت حدّ التواتر.

لم يقبل الدروز من الحكّام السوريين والعثمانيين أقلّ من هذا الظلم فكيف يقبلونه من فرنسا؟! لقد أعربوا عن استنكارهم لهذه المظالم في نواديبهم ومجالسهم العامّة، ثمّ سيّروا المظاهرات، ثمّ وقع شيءٌ من الصدام بينهم وبين حامية الجبل، وذهب وفد من قادتهم إلى بيروت لمقابلة المفوض السامي [ساراي] وليطلبوا منه تصويب ما وقع من أخطاء والاحتكام إلى برنامج الاستقلال، فرفض المفوض السامي استقبالهم، وردّهم خائبين، فتضاعفت الاحتجاجات وأدركوا أنه لا مناص من الثورة، وكانت مخبرات الفرنسيين ترصد تحركاتهم وبداية اتصالاتهم وتنسيقهم

مع ثوار دمشق، وقابل الفرنسيون حمقهم بحمق أشدّ عندما أرسلوا إلى الدروز من يطلب منهم الحضور إلى بيروت لأنّ المفوض السامي [ساراي] يرغب في مقابلتهم، فلمّا بلغ قادتهم: عبد الغفار الأطرش، ونسيب الأطرش، والأمير حمد الأطرش دمشق قبض عليهم [شوفلر] مندوب المفوض السامي وساقهم إلى المنفى... وبعد أيام سيق إلى [حسجة] كل من برجيس بك الحمود وعلي بك الأطرش وحسني بك صخر وعلي بك عبيد، وأخذوا معهم في طريقهم إلى دمشق يوسف بك الأطرش.

جاءت الفرصة المناسبة التي كان سلطان الأطرش ينتظرها ويهيء نفسه وأنصاره لها، ولن يدعها تمرّ دون أن يضرب ضربته. لقد اتخذ قرار الثورة، وأطلع عليه بعض المقربين، والرئيس الروحي علي الحناوي الذي بارك القرار باسمه وباسم زميليه أحمد الهجري وحسن جربوع.

ثمّ تجوّل في قرى [المقرن القبلي] يستثير الجماهير، فاستقبل بالنخوات، وانضمّ إليه الكثيرون، وأول عمل عسكري قام به الثوار هو إسقاط طائرة فرنسية حين كانوا في عرمان، ثمّ توجهوا إلى صلخد وأحرقوا سرايتها والأوراق الرسمية، وكانت قواتهم في مواجهتها للفرنسيين تنتقل من قرية لأخرى حتى معركة المزرعة الشهيرة، وأنا في هذا الصدد لا أكتب تاريخاً، وإنما أجيب على أسئلة حددتها في بداية بحثي هذا، وحسبي بيان أسباب هذه الثورة. يقول الدكتور ذوقان قرقوط: "تصوّر صحافة تلك الأيام ومصادر الأنباء انقسام أهل الجبل إلى فئتين أو حزبين:

أحدهما يطالب بحاكم وطني وآخر يؤيد الحاكم الفرنسي، وأن المطالبين بحاكم وطني ذهبوا لمقابلة المندوب السامي، الجنرال ساراي في بيروت فرفض مقابلتهم أو أساء استقبالهم.. "ثمّ يضيف: "فالحزبان المعنيان [بيتا عرى والسويداء] هما أصلاً من مؤيدي الانتداب، ومن قبل كانا من مؤيدي الحكم العثماني وأقطابها من المنتفعين بالسلطة في كل عهد".

غير أن قرقوط يرى أن سلطاناً ومن معه استعملوا هذا الحدث لتفجير ثورتهم التي كانت موضع اتفاق القيادتين: السياسية والدينية، وكان منطلقه وهدفه وطنياً عربياً.^(١)

القائد العام للثورة السورية:

أطلق بعض السوريين على سلطان الأطرش لقب القائد العام للثورة السورية، ولم يكن للثورة السورية قيادة عامة فعلية، ولا قائد عام فعلي، وإنما كان هذا اللقب نوعاً من المجاملة، وأهلنا في سورية يجيدون المجاملة، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فأهل الحلّ والعقد في الثورة يريدون قطع الطريق على الفرنسيين الذين يدعون أن حماية الأقليات من بطش الأكثرية المسلمة من أسباب احتلالهم لسورية، فيقولون لهم: نحن نواجهكم بالسوريين كلهم، فقائد ثورتنا الدرزي سلطان الأطرش،

(١) المصادر: [تطور الحركة الوطنية في سورية]، د. ذوقان قرقوط. و[دروز سورية ولبنان في عهد الانتداب الفرنسي]، د. حسن أمين البعيني. و[مذكرات الدكتور عبد الرحمن الشهبندر]. و[سورية من الاحتلال حتى الجلاء]، د. نجيب الأرمنازي. و[تاريخ وطن]، سلطان الأطرش.

ويليه في الأهمية القائد النصيري صالح العلي، ثم الكردي إبراهيم هنانو، ومن أهم القادة السياسيين الذين نواجهكم بهم النصراني فارس الخوري... وسار علماءنا على هذا المنوال، ومن أشهرهم: الشيخ بدر الدين الحسيني الذي أرسل رسالة دعم وتأيد لسلطان [كما جاء في مذكرات سلطان الأطرش] وحملها إليه الشيخ المجاهد محمد الأشمر الذي كان من أصدقاء سلطان، والشيخ كامل القصاب الذي كان من أكثر العلماء تردداً على ميادين الجهاد وصلةً بالمجاهدين، ومفتي فلسطين الشيخ الحاج أمين الحسيني الذي كان يرأس لجنة المساعدات لثوار سورية.

غير أن زعيم حزب الشعب الدكتور عبد الرحمن الشهبندر استغل هذا النوع من مجاملة المسلمين للدروز، فأقام تحالفاً مع سلطان الأطرش وحزبه داخل الطائفة، وأراد من وراء هذا التحالف ترسيخ زعامته، ومواجهة خصومه أقطاب الكتلة الوطنية بجبهته التي كسبت الطائفة الدرزية إلى صفها، مع أن سلطان لا يسمح له بالتدخل في الشأن الدرزي لو أراد، أما أن يتدخل سلطان بالشأن الإسلامي أو السنّي فقد فتح له الشهبندر باباً لم يغلق حتى بعد هلاك زعيم حزب الشعب. وكل من يقرأ في مذكرات عبد الرحمن الشهبندر أخبار معارك الدروز مع الفرنسيين، وخياله الخصب في وصف شجاعة القوم وبطولاتهم يظن أن هذا الذي بالغ في وصفه، وقف على الدروز دون غيرهم أو يظن أن هذه المعارك أهم بكثير من بدر والقادسية واليرموك.

فهل كان الشهبندر صادقاً في انحيازه لسلطان ودروزه، أم كان انتهازياً يقول ما

لا يعتقد من أجل تحقيق الغاية التي يصبو إليها؟! . يجيبنا على هذا السؤال أحد أشهر زعماء الدروز الذين هداهم الله إلى جادة الصواب. قال الأمير شكيب أرسلان في إحدى رسائله:

" .. وإنما أكثر ما أنقده على سلطان هو ليس اختلافه مع أخي لأن المنافسة بينهما وهما في محل واحد كان لا بد منها، ولكن انحيازه إلى أولاد لطف الله الذين ليست وطنيتهم إلا حكاية وظائف وإمارات ومناصب وخزعبلات، مما لم يعد خافياً على أحد، وكذلك انحيازه إلى الشهبندر الذي منذ رحل المجاهدون إلى النبك لم يترك وسيلة لقطع الإعانات عن المجاهدين إلا أجراها، وملاً أمريكا مكاتب بتزويد الناس في إرسال الإعانات إلى النبك بحجة أنها تؤكل ولا توزع وبحجة أن الدروز أخذوا حقوق المسلمين في الإعانات، وقد أحدث بهذه الوسطة شقاقاً في أمريكا بين المسلمين والدروز لو لم يتداركه عقلاء الفريقين لكان اتسع كثيراً. وما زال هو الذي يهيج المهاجرين الشوام الذين كانوا بمصر وفلسطين وعمّان قائلاً لهم إن حزب الاستقلال العربي والحاج أمين الحسيني حصروا الإعانات في الدروز وأكلوا حقوقهم ... الخ .." (١)

(١) وهذا موقف جدير بالتأمل: فعلمنا أنّنا الأفاضل أمثال الشيخ بدر الدين، والشيخ القصاب، والشيخ الحسيني وغيرهم يحيطون بعنايتهم الدروز مع معرفتهم بحقيقة ديانتهم، بل يقدمونهم على غيرهم من المسلمين، فأين من هذا الخلق الدول الكبرى التي تخفي أطماعها في بلادنا، خلف شعار كاذب يسمونه حماية الأقليات، وأين من هذا فرنسا التي بطشت بهم فحاهم وأكرمهم

وبدوره أرسل الزعيم السوري شكري القوتلي، رسالةً إلى ملك العراق فيصل بن الحسين يخبره فيها بناءً على رسائل وردته من سلطان الأطرش وعادل أرسلان، وغيرهما بأن الأموال التي يرسلها جلالته عن طريق الدكتور الشهبندر للمجاهدين اللائذين بالصحراء المعوزين للقوت والدواء لا تصل إليهم، ويستأثر بها عبد الرحمن الشهبندر. (١)

كان الشهبندر مثلاً لكل من لا يتورع عن فعل أيّ شيء في سبيل أهدافه وطموحاته، ولو كان هذا الشيء تعاونه غير المحدود مع الأقليات التي تدين بغير الإسلام، وتمهيد الطريق أمامها لتتولى شؤون الحكم في بلادنا، ولقد تسلّم هذه الراية المنكوسة من بعده أكرم الحوراني فمهّد الطريق أمام النصيرية لتحكم بلادنا بالحديد والنار قرابة نصف قرن.

في البداية عمل أكرم على استغلال النصيرية في مدينته وريفها ليهزم بهم زعماء حماة كابرًا عن كابر، وقد كان، ثم عمل على استغلالهم: عسكرياً ومدنياً وعلى مستوى الطائفة ليهزم بهم زعماء سورية كابرًا عن كابر، وقد كان، ولكن على المستوى العسكري، الذي أتقن الحوراني التخطيط له في ظلمة الليل، وادّعاء الديمقراطية والحرية في رابعة النهار، وكان لأكرم الحوراني ما أراد. غير أنه اكتشف

علمنا. أجل، ليس لهؤلاء مستقبل آمن إلا في ظل شريعة الله.

(١) ليعد من شاء إلى كتاب: [تطور الحركة الوطنية لقرقوط] صفحات ٢٨٢ و ٢٨٥، وليقرأ

رسالتي شكيب أرسلان وشكري القوتلي.

بعد فوات الأوان، وبعد أن ردّه الله إلى أرذل العمر أنه هو المغفل الأحمق، وليس أبناء الطائفة النصيرية الذين دخلوا في حزبه أفواجاً... وكان لسان حالهم يقول: إن كنتَ ريحاً فقد لقيت إعصاراً، وقسماً بإلهنا لو خرجت من جلدك فلن نثق بك. قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ ٤٦

الحج: ٤٦.

نعود إلى الشهيد ودروزه. لقد هزمتهم فرنسا في السويداء [٢٥/٤/١٩٢٦م]، وفي أوائل أكتوبر [تشرين الأول] ١٩٢٦م غادر سلطان والشهيد الجبل فراراً لا يلوون على شيء واتخذوا من الأزرق في الأردن ملجأ لهم.

أهل حوران وثورة ١٩٢٥م

قال الذين تلاعبوا بالتاريخ: لم يشارك أهل حوران بثورة ١٩٢٥م لأن الدروز لم يقفوا معهم في ثورتهم سنة ١٩٢٠م. وقال فؤاد الأطرش وهو ولد يوسف هلال الأطرش: "لماذا يقاتلنا أبناء حوران؟، لقد قاتلونا مع الفرنسيين ولا زالوا يقاتلوننا مع الوطنيين. لماذا يقاتلنا أبناء دمشق في هذا العهد؟، لقد قاتلونا في زمن الأتراك، وفي عهدي جميل مردم والشيشكلي، وهم يقاتلوننا الآن في عهد البعث".^(١)

ما يردده الدروز في مجالسهم الخاصة، ويُربّون أبناءهم عليه باح به فؤاد الأطرش في كتابه، أما قادة الدروز فيقولون الكلام نفسه ولكن في مجالسهم الخاصة. فهل صحيح قول الذين زعموا أن الحورانيين لم يشاركوا في ثورة ١٩٢٥م لأن الدروز لم يشاركوا الحوارة في ثورتهم سنة ١٩٢٠م، وهل صحيح قول فؤاد الأطرش بأن الحوارة قاتلوا الدروز مع الفرنسيين؟!.

- الصحيح - وكما أثبتنا فيما مضى - أن منازلة الحورانيين للفرنسيين لم تتوقف، بدأوا بثورتهم ١٩٢٠م التي كبدوا الفرنسيين فيها خسائر فادحة، وتكبدوا مثلها، ثم تحوّلت المنازلة إلى حرب عصابات تمتدّ من جنوب الكسوة وحتى غاية جرش وعجلون.

يقول محمود عبيدات^(٢) ما خلاصته: إن مجموعة المجاهد مصطفى الخليلي

(١) الدروز. مؤامرات. تاريخ. حقائق. ص: ٧٤، ٢٩٥، ٣٥٣. فؤاد الأطرش.

(٢) انظر كتابه الدور الأردني في النضال العربي السوري.

وحدها خاضت أكثر من خمسين عملية جهادية شملت معظم مناطق حوران، وكان ذلك خلال بضعة أشهر.

- والصحيح أيضاً أن الدروز هم الذين قاتلوا الحوارة مع الفرنسيين، وحرس غورو كانوا من الدروز.

- والصحيح أيضاً أن الفرنسيين ظنوا أنهم سيأخذون من الحوارة ما أخذوه من الدروز، ولكن قادة حوران خيَّبوا ظنهم، وأفشلوا خططهم، ووجهوا لهم صفعَةً لم تستطع فرنسا هضمها ولا نسيانها، وهذا موجز ما حدث:

في [٤/٨/١٩٢٥م] طلب وكيل المندوب السامي بدمشق المسيو شوفلير، وصبحي بركات رئيس الحكومة السورية سابقاً، زعماء حوران، فحضر منهم: إسماعيل الحريري من الشيخ مسكين، وزعل الحريري من بصر الحرير، ومنصور الحلقي من جاسم، وعبد المجيد الفيصل الحريري من داعل، وعقيل الياسين الحريري من بصر الحرير، وأحمد الرفاعي من نصيب، وعبد الرحمن الرفاعي من أم ولد، ومحمد الزعل من المسيفرة، وفندي الحشيش من تلّ شهاب، وفاضل المحاميد من ذرعا. وبعد أن التأم شمل المدعوين تحدث شوفلير، فكان مما قاله:

أنتم تعلمون ما لفرنسا عليكم من الأيدي البيضاء، وأعمال البر التي لا تصدر إلا من الأم المشفقة، والآن تسعى لاستتباب الأمن بينكم، ولذا قرّر فخامة الجنرال [ساراي] إعفاء حوران من دفع الضريبة، والنظر لاحتياجاتكم لدفع الثوار عن أراضيكم، مع إجازة حمل السلاح، ونحن نقدّم لكم ألفي بندقية لتحاربوا العدو

المغتصب لبلادكم [الدروز الذين سكنوا جبل حوران بدءاً من عام ١٧١٠م]
وستعلن الحكومة المنتدبة استقلال حوران.

قلت: إنها عروض مغرية يسيل لها لعاب الكثير .. الكثير هنا وهناك .. وكان بنو معروف قبلوا وبلهفة مثل هذا العرض عام ١٩٢٠م وحاربونا مع الفرنسيين. لقد أنهكت الحروب والضرائب والغرامات شعب حوران، وتخلّى عنهم القريب والبعيد، ولم يجدوا في محنتهم طيلة خمس سنين إلا أبناء عمومتهم في حوران الأردنية، ولا يستطيعون بعد هذا التاريخ [اجتماعهم مع وكيل المندوب السامي ١٩٢٥ / ٨ / ٤ م] الدخول في مغامرات جديدة .. ولكن هل يستطيع الوفد رفض هذا العرض ولا سيما وهم يعلمون جيداً أن فرنسا ضاقت ذرعاً بحوران وأهل حوران، ولن يتركوا أحداً من هذا الوفد يدب فوق هذه الأرض إن هم رفضوا. إنه موقف عصيب، ولا بد من التأمل طويلاً قبل البت في هذه المسألة!!.

لم يفكر شيخ شيوخ حوران ورئيس الوفد طويلاً، فالمسألة محسومة عند شعب ووفد حوران الحرّة الأبية .. وما أن أنهى وكيل المندوب السامي كلامه حتى ثار الشيخ إسماعيل الحريري في وجهه، وكان مما قاله:

" أمّا بخصوص المنحة الأولى فنحن نشكر السلطة الفرنسية، وأمّا بخصوص حمل السلاح لمحاربة [الدروز وثوار الجبل] فنحن قررنا عدم محاربتهم لأن لهم حق الجوار علينا والوطنية أيضاً. أما استقلال حوران فلا أوافق عليه، لأن حوران هي جزء من سورية الكلية".

راح الفرنسيون بعد هذا اللقاء يتربصون شراً بالشيخ إسماعيل الحريري وبقيادة أهل حوران، وفوجيء الشيخ بعد بضعة أيام بإنذار من الجنرال [اندريا] قائد حملة الجبل يطلب منه أن يستنفر الحوارة، خلال مدة أقصاها ثلاثة أيام، ويأمرهم بالسير أمام القوّات الفرنسية لمحاربة الثوّار الدروز، وفي حالة الرفض سيكون مصيره الإعدام.

ومن أجل إنقاذ أبيه من حبل المشنقة قابل الشيخ محمد خير الحريري المستشار الفرنسي في ذرعا، وطلب منه منحه ثلاثة أيام ليقوم خلالها بعقد مؤتمر عائلي لإقناع والده بالسير مع الفرنسيين ومؤازرتهم في الحركات الحربية ضد الدروز، فوافق المستشار على ذلك .. وهي مكيدة أراد محمد خير من ورائها تنظيم مغادرة أبيه إلى الأردن، ولم يخطر بباله وهو من هو أن يقنع والده بالعمل مع الفرنسيين ضد الدروز. وهذا الذي حدث. لقد غادر الشيخ إسماعيل ومعه قادة أهل حوران بلدهم في جنح الليل المظلم، والتجأوا إلى الأردن، وجنّ جنون الفرنسيين، فأصدروا حكماً بالإعدام على الشيخ إسماعيل الحريري وعلى ابنه الشيخ محمد خير، والشيخ سالم، وفي غيابهم نهب الفرنسيون أثاث المنزل، ثمّ هدموه انتقاماً من صاحبه.

إنها النخوة العربية في أروع صورها .. والخلق الإسلامي الرفيع في أعزّ معانيه .. والاستعلاء الشامخ على شهوات الدنيا ومغرياتها .. وأين من هذا السمؤال الذي خُيّر بين قتل ابنه الذي أسره القوم أو تسليمهم من استجار به،

فاختار قتل الإبن.

أمّا الشيخ إسماعيل الحريري، فكانوا سيعدمونه ويعدمون أبناءه لو ظفروا به، وفضلاً عن هذا وذاك فقد ضحّى بالمال وأثر التشريد والغربة دون أن يقبل الدنيّة في دينه، ويسير في جيش العدو المحتل ليقاتل أبناء وطنه مهما بلغ أبناء هذا الوطن^(١) من السوء:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم إذا جمعتنا يا جريرُ المجمعُ

سلطان الأطرش اعترف في غير موضع من مذكراته بتأييد الحورانيين لهم، ووقوفهم إلى جانب الدرّوز في معركتهم ضد الفرنسيين، ومن ذلك قوله: " ووفد علينا ونحن في مخيم المزرعة، إسماعيل الترك الحريري ومعه بضعة عشر فارساً من حوران، وأعلن استعداداه للانضمام إلى الثورة، بعد أن رفض الإذعان لدسيسة [شوفلير] وكيل المندوب السامي الفرنسي بدمشق، الذي كان يعمل على تسليح

(١) الدور الأردني في النضال العربي السوري. محمود عبيدات، ص ٤٧٥، [عن كتاب: صور مشرقة من نضال حوران. أحمد محمد عطا الله الزعبي]. وهذه الرواية سمعتها من كبار السن الذين شهدوا الحدث... وتنقل بالتواتر.

- وقال الباحث الدرزي سلامة عبيد: "وقف الشيخ إسماعيل، شيخ مشايخ حوران في وجه القوات الفرنسية الزاحفة إلى الجبل، فتدخلت الطائرات الفرنسية لتفريق الهياج العام. فاضطر إسماعيل الحريري إلى اللجوء إلى شرق الأردن، ثم التحق بالثوار في اللجاة رغم تقدم سنه، وعدم تعوده على شظف العيش وحرب العصابات." الثورة السورية الكبرى على ضوء وثائق لم تنشر. سلامة عبيد. مطابع دار الغد، بيروت [عن كتاب تطور الحركة الوطنية في سورية. ص: ٢٢٥].

الحوارنة، ويحرضهم على محاربتنا".^(١)

وقال سلطان في صفحة [٢٦٥] من مذكراته:

"بالإضافة إلى ما ذكرنا آنفاً من المجاهدين، فقد كان يلازمنا، أو يتردد علينا في تلك الآونة عدد من الزعماء والقادة أمثال: الدكتور شهبندر، شكري القوتلي، نسيب البكري، نزيه المؤيد العظم، فوزي القاوقجي، الشيخ محمد الأشمر، سعيد العاص، منير الرئيس، الدكتور أمين رويحة، الدكتور محمد الشواف، إسماعيل الحريري [شيخ مشايخ حوران]، منوخ الحريري [من حوران]، مصطفى أبو الحسين، فندي الحشيش العباس [من حوران]، مصطفى الخليلي [من

(١) وهذا اعتراف مبتور، وفيه تقليل من شأن ما فعله أهل حوران في هذه الثورة، فالحوارنة لم يكن دروهم قاصراً على زيارة مجاملة لسلطان وقومه في مخيم المزرعة كما زعم، لم يكن الأمر كذلك. الحوارنة كانوا يقفون في وجه القوّات الفرنسية - كما اعترف بذلك الباحث الدرزي سلامة عبيد- كانوا يقاتلون بشجاعة نادرة هذه القوّات الأجنبية. قال أحمد الزعبي: "كانت معركة إزرع من أهم وأقوى المعارك التي خاضها الحوارنة ضد القوّات الفرنسية التي كانت متجهة إلى الجبل، فقد أصدر الحريري أمراً للقوى المحيطة بإزرع للتصدي لهذه القوّات تضامناً مع الثوّار في جبل العرب، ولبتّ القرى النداء وتنادت الاستنفارات الشعبية، وكان اليوم الأول من شهر آب ١٩٢٥م باتجاه إزرع والتي بلغت خمسة آلاف مقاتل اتجهت نحو المزرعة في السويداء، وبعد مرورها في بلدة [بصر الحرير] انقضّت عليها الثوّار الحوارنة، وغنموا الأسلحة والعتاد والمواد التموينية... وقد ساهمت العمليات الحربية التي وصلت إلى المزرعة منهكةً، مما سهّل على ثوّار الجبل القضاء عليها".

انظر كتاب: صور مشرقة من نضال حوران. أحمد الزعبي. وقول الأطرش عن الحريري ورد في

صفحة: ١٢٢ من مذكرات سلطان الأطرش [تاريخ وطن].

حوران]، خلف المقبل المحاميد [من حوران]، الأمير عادل أرسلان، رشيد طليح، وأسعد كنج أبو صالح." (١)

- وقال سلطان أيضاً [١٩٥] في صدد حديثه عن الحورانيين: "... وإزالة كل أثر للخلافات الفردية والجماعية التي كانت قائمة .. ذهب أخي علي إلى بصرى، ومعه وفدٌ من أهالي [القرية] ... واجتمعوا هناك بالسادة: منصور المقداد و... واتفقوا معهم على أن يكون مبدأ حسن الحوار من المبادئ الأساسية التي يجب أن يقوم عليها تعاون المواطنين وتأزرهم لتخليص البلاد من الحكم الأجنبي القائم، وتوطيد دعائم وحدتها واستقلالها." (٢)

- كان الاتفاق السابق مع الحوارنة في الجنوب الشرقي من حوران [بصرى الشام وما حولها من قرى] أمّا في الشمال والغرب، فيتحدث سلطان عن رسائل متبادلة، وعن ترحيب أهل حوران بالقوّات الدرزية المتّجهة نحو الغوطة، وهذا بعض ما قاله:

" .. وبعد مرور الحملة بقري: ناحته، المليحة الشرقية، المليحة الغربية، الحريك، الحراك. تكاثر عدد الذين انضموا إليها من الحوارنة، بقيادة عبد الغفار

(١) هؤلاء الذين كانوا يترددون على الجبل وقيادة الدروز [وبينهم عدد من زعماء أهل حوران] ما كانوا يذهبون لشرب القهوة والشاي، وإنما كانوا ينسّقون لتكون المعركة معركة الجميع.
(٢) وإذا اتفق الدروز مع الحوارنة على التعاون والتنسيق. وهذا من سلطان ردّ على الأباطيل التي كان يرددها البعض هنا وهناك.

[الحريري] ومحمد ذيب الحريري، وكان الضاربون على الطبول الحربية يتقدمون صفوف المتطوعين في كل قرية تخرج للجهاد، إثارةً للحماسة في نفوس الأهالي، وإشعاراً لمناوي الثورة بتصميم المجاهدين على خوض المعركة ضد الاستعمار الفرنسي مهما بلغ الثمن وعظمت التضحيات.

وقد تابعت الحملة طريقها إلى بلدة الشيخ مسكين، ثم انتقلت إلى نوى فإنخل والصنمين حيث عقد قاداتها اجتماعاً مع هولوا الحريري، فارس الزعبي، عبد المجيد الفيصل الحريري، وإبراهيم الصالح، وقد انفقوا معهم على ما يلي:

- ١- تسهيل طريق الاتصال بين ثوار الجبل وإخوانهم في الغوطة والإقليم.
- ٢- عدم استعمال السلاح الذي وزّعه السلطة الفرنسية عليهم ضد الثوار عامة والدروز خاصة.

- ٣- تعاون الفريقين على تدمير الخط الحديدي بين درعا ودمشق.
- ٤- تقديم يد العون للثورة، بتسهيل نقل المؤن والسلاح والذخيرة إلى مختلف جبهات القتال، وتشجيع الشبيبة الحورانية على التطوع في جيوش الثورة.^(١)

(١) ولي ملحوظتان على ما ذكره سلطان الأطرش:

الأولى: غاب شيخ شيوخ حوران إسماعيل الحريري عن هذا الاجتماع لأنه كان قد التجأ إلى الأردن، وصدر عليه حكم بالإعدام، ولهذا ففي نفسي شيء من قول سلطان بأن الشيخ إسماعيل جاءهم إلى نخيم المزرعة ومعه عشرات من الحورانيين.

الثانية: تدمير الخط الحديدي بين درعا ودمشق، إحدى العمليات الكثيرة التي كان ينفذها

موقعة المسيفرة:

تحدّث سلطان الأطرش عن هذه المعركة، وتداول هو وكبار مستشاريه مسألة مباغطة الفرنسيين ليلاً واحتلال البلدة قبل أن يصبح موقعهم منطلقاً لغاراتهم على الجبل، فاستبعدوها أولاً، ثمّ عادوا إلى قبولها بعد أن طغت الأفكار الحماسية بينهم. مشواً في ظلمة الليل، وعندما أشرفت قواتهم على خطوط العدو، وإذا بعيارات نارية يطلقها العدو، ويعقبها في الحال شعاع تلك الأضواء الكاشفة التي ملأت الجو وبهرت عيونهم، وتمكّن العدو من تحويل المباغطة لصالحه.. ثم يسرف في الحديث عن بطولة قومه، وينتهي إلى القول:

" تراجعنا عن المسيفرة دون أن نتمكن من دفن قتلتنا، وإنقاذ البعض من جرحانا، وقد أجهز الفرنسيون على هؤلاء وأحرقوا جثثهم مع جثث القتلى الآخرين، وكان من ضحايا الغدر الفرنسي ثلاثة من أعيان القرية، وهم: محمد الزعبي، حمد الموسى، وعبد الحليم المصطفى، أعدموا رمية بالرصاص في أعقاب المعركة بسبب تأييدهم للثورة. لقد بلغ عدد الأبطال الذين استشهدوا في هذه المعركة نحو مائتين وخمسين شهيداً..".^(١)

المجاهدون الحوارة، ولا أدري لماذا حشر سلطان دروزه وجعل منهم شركاء في هذه العملية؟!.

(١) مذكرات سلطان الأطرش. تاريخ وطن، دار علاء الدين، ص: [١٣٠-١٣٣].

وقفات: ولي على رواية سلطان الأطرش الملحوظات التالية:

الأولى: كيف حوّل الفرنسيون المباغطة لصالحهم؟!، ولماذا تعمد سلطان إخفاء الحقيقة المرّة التي

كشفها صديقه الحميم الدكتور عبد الرحمن الشهبندر: " وخلاصة ما جرى، أن الثوّار أرادوا الزحف على المسيفرة خلصة قبل طلوع فجر السابع عشر من شهر أيلول، فاتفقوا أن لا يأتي أحدهم بحركة من شأنها تنبيه العدو، إلا أن عياراً نارياً أطلقه أحد المشتبه فيهم [إبراهيم الأطرش] أيقظ الحرس الفرنسي قبل وصول المجاهدين بنحو خمس دقائق، فأخذوا في إطلاق الأسهم النارية في الفضاء لإنارة الظلماء، ومن ثمّ ابتدأت المعركة بصورة شديدة جداً بحيث اضطرّ الجنود إلى الانسحاب والالتجاء إلى الاستحكامات التي أقاموها داخل القرية. " مذكرات الشهبندر ص: ١٧٢. سلطان لا يريد القول: إن أحد أبناء عمومته [إبراهيم الأطرش] كان خائناً، ويعمل في صفوف الثوّار لصالح فرنسا، وجاء شاهد عيان ليكشف الحقيقة.

الثانية: المسيفرة قرية من قرى حوران القريبة من جبل الدروز، والمباغثة تعني أول ما تعنيه عدم إعلام أهل المسيفرة بأي شيء عن هذه المعركة التي ستدمّر بلدهم، ومع ذلك فلقد فتح أهل هذه البلدة الكريمة منازلهم وشرفاتهم أمام الثوّار الدروز، وقدّموا لهم كل عون ومساعدة غير مبالغين بما سيحدث، وكان هذا من أهل المسيفرة التزاماً منهم باتفاقيات التعاون والتنسيق بين الدروز والحوارنة التي تحدّثنا عنها فيما مضى. فلماذا تجاهل سلطان الأطرش في روايته هذه الحقيقة؟!، وأين الأمانة وهو في مثل هذه المكانة؟!

الثالثة: لينظر من شاء إلى قوله: " .. وكان من ضحايا الغدر الفرنسي أيضاً ثلاثة من أعيان القرية، هم: محمد الزعبي، حمد الموسى، وعبد الحلیم المصطفى. "

ولولا أني من أبناء حوران ما عرفت أن قرية المسيفرة من قرى حوران، وليست من قرى الدروز، ولا عرفت أن أعيان القرية الثلاثة هم مسلمون حوارنة وليسوا دروزاً، فلماذا لجأ سلطان في روايته إلى هذا التجهيل؟. هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فهل إعدام ثلاثة من أعيان المسيفرة هو كل ما نالها من خسائر؟! لا، ليس الأمر كذلك، لقد قتلت القوّات الفرنسية عدداً من شباب البلدة، بحجة أنهم كانوا يقاتلون مع الدروز، ونهبوا المنازل، وبعد أن ساموا الناس ألواناً من الخسف والهوان يعجز عنها الوصف حرقوا القرية بعد أن طردوا أهلها منها، وفضلاً عن هذا وذاك فقد

وقصارى القول: لقد شارك أهل حوران في ثورة سورية الكبرى ١٩٢٥م، وحفظوا للدروز حق الجوار، في حين لم يحفظ الدروز مثل هذا الحق سنة ١٩٢٠م. ومما ينبغي التأكيد عليه أن حوران عندما تعلن الثورة، تستجيب لإعلانها حوران الأردنية، وتصبح الأخيرة قاعدةً للدعم والمساعدة، وملجأً آمنًا لثوار سورية، وهذه ميزة تنفرد بها حوران عن المحافظات السورية.

إن حقائق التاريخ أكبر من أن يخفيها أصحاب الأهواء، وإذا كان سلطان ودروزه قالوا بعض الحقيقة دون بعضها الآخر، فإن الدكتور عبد الرحمن الشهبندر وحسن الحكيم وغيرهما لم يقولوا شيئاً، مع أنهم شهدوا على ما كان يجري من أحداث والشهادة أمانة. قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ عَانِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٣).

انتشر مرض الطاعون بين أهلها بسبب كثرة الحرائق وشدّة روائح القتلى، ولا يزالون يطلقون على ذلك الحادث الأليم: [عام الحريق].

الدروز بعد فشل الثورة السورية الكبرى

سلطان بعد فشل الثورة:

غادر سلطان الأطرش سورية بعد فشل الثورة في أوائل أكتوبر [تشرين الأول] من عام ١٩٢٦م، وكان قد مضى على هذه الثورة قرابة عام، وأصبح لاجئاً سياسياً في الأردن [الأزرق] الذي يجاور الجبل، وبعد حين من الزمن ضغطت فرنسا على بريطانيا طالبةً منها إبعاده من الأردن كلها، وكان لها ما أرادت، فالتجأ سلطان ومن معه إلى النبك السعودية [قريات الملح]، فعاش فيها بضع سنين عجاف. يقول الأمير عادل أرسلان واصفاً الحالة التي كانوا عليها في هذه الصحراء:

طال انتظاري للنهار الصبيح	ماذا عن الأجفان لو تستريح
شرار فحم الليل لا ينظفي	كأنها هبت على الليل ريح
ياساهراً في النبك أين الألى	أنت من الشوق إليهم قريح
أبق على القلب المعنى ولا	تجهز عليه فهو منهم جريح
في مهمه قفر كأن السما	لم تروه بالقطر من عهد نوح
إنسانه ضبُّ وأشجاره شيح	وأصوات التغني فحيح
ينوح فيه الذئب مستوحشاً	وارحمنا للذئب فيما ينوح

ويقول في آخر قصيدته:

قد زعموا الوادي لنا مرقداً فكل بيت محتويه ضريح

ويتحدث أكرم الحوراني عن الحال التي كان يعيشها سلطان الأطرش وعادل أرسلان في النيك، فيقول: "وإني لا أزال أذكر كيف قرأت بشغف واهتمام ريبورتاجاً طويلاً ترجمته جريدة الأحرار التي كان يصدرها جبران التويني، وقد كتبه صحافية فرنسية رأت أولئك المجاهدين الصامدين، بمساعدة رياض الصلح الذي غامر باصطحابها إلى تلك المجهل الصحراوية اللاهبة بعد أن جعلها تنتكر بزي امرأة بدوية، وقد رجعت عند كتابة هذه المذكرات إلى مجموعة جريدة الأحرار التي نشرت المقال بتاريخ ١٩/٨/١٩٢٩م وورد فيه:

[مضت ساعات والسيارة تنهب الأرض نهباً في الصحراء الحمراء الرمال، الحرارة درجتها ٤٥ في الظل و ٦٠ عندما نجتاز نقطة تكتنفها الأحجار البركانية السوداء، فتنعكس عليها الشمس وترسل منها جواً يخال لك معه أنك أمام فوهة لاهبة تتمازج فيها المعادن. رمال، ثم رمال، لا شيء يتحرك، ولا شيء يهتز في تلك الصحراء المملة والجميلة معاً، أمن الممكن أن يعيش الإنسان والحيوان في مثل هذه البقعة من الأرض، وأن تقام فيها البيوت؟. سرنا مئات الكليومترات، دون أن يعترضنا مخلوق، واعتراضي اليأس وكدت أقول علام السير؟.]^(١)

(١) مذكرات أكرم الحوراني. ص: ١/٩٢.

استطردت في الحديث عن حياة سلطان الأطرش ومن معه في النيك من أجل أن يعلم القاريء بأنهم أصبحوا مقطوعين عن العالم، ولا يستطيعون إدارة شؤونهم هناك^(١)، وحكاية قائد الثورة ليست إلا نوعاً من أنواع المجاملة - كما أسلفت فيما مضى -، وهم الذين يحتاجون إلى من يمدّ إليهم يد التعاون، وقد كان.

تقويمنا لموقف سلطان الأخير:

١- درزيّ قبل كل شيء، وملتزم أشدّ الالتزام بعبادات وتقاليد وقوانين وعقائد الدروز، ولهذا فقد قاطع ابنه منصور عندما تزوّج من نصرانية أحبها، ورفض استقباله أو الحديث معه، وبقي على ذلك مدّة طويلة تزيد على عشر سنين حتّى قبل وساطة بعض الأصدقاء، وداخل الطائفة الدرزية المغلقة، هو من حزب [الطرشان] وإن تظاهر بالاعتدال أو الحيادية أحياناً.

٢- فقد الثقة بكل من الإنجليز والفرنسيين، فالإنجليز تنكروا لكل الاتفاقيات بينهم وبين الدروز وسلّموا الجبل للفرنسيين دون قيد أو شرط، هذا بالنسبة إلى الجبل، وبالنسبة إلى سلطان بالذات فقد رفضوا بقاءه لاجئاً في بلد عربي ابتلاه الله باستعمارهم له، وأجبروه على مغادرته.

والفرنسيون نقضوا برنامج استقلال دولة جبل الدروز الذي وقّعوا عليه،

(١) بسبب الخلاف الذي أخذ يتفاقم بين سلطان الأطرش، وعادل أرسلان، وكان لكل منهما أنصار، وقد تؤدي الأمور إلى حمل السلاح بينهم، ولولا تدخل الوسطاء وإقناع أرسلان بمغادرة المكان.

وتعهدوا باحترامه، وراح كاريبه يسوسهم بلغة الحديد والنار.

وفي المقابل لم يجد سلطان في محتته غير السوريين. لقد رحّبوا به، ورفعوا من مكانته فأمرّوه عليهم، وقدّموا له ولدروزه مساعدات مادية سخية، ومن جهة ثانية فإن الوضع الخاصّ لهم في الجبل كان أيام العهدين: الفيصلي والعثماني أفضل بكثير ممّا صار إليه في العهد الفرنسي. ولهذا فقد أصبح سلطان في الجبل رمزاً لالتّجاه وطني سوري، لكنه لا يتعارض أو يصطدم مع المصالح والأهداف الدرزية وإن حدث التعارض، فهو مع الطائفة دائماً، وإن كان ذلك وفق أسلوب يختلف شكله عن أسلوب دعاة الانفصال.

٣- دخل سلطان الأطرش النضال^(١) الوطني وإن شئت فقل النضال العروبي من باب حزب الشعب [الشهبندر] وضد حزب الاستقلال [شكري القوتلي]، مع أن رجالات الاستقلال كانوا سبّاقين في مداهنة سلطان وقومه، وإعطائه كل ما يريد. وعندما عاد من منفاه سنة ١٩٣٧م، وضعته السلطة الفرنسية تحت ما يشبه الإقامة الجبرية، وصار بعد ذلك لا يتدخل إلا في الأزمات، فعندما اشتدّت الأزمة بين الانفصاليين والوحدويين في استفتاء ٢٦ / ١ / ١٩٣٩م وقف موقفاً وسطاً منبثقاً من رغبة توفيقية بين الطرفين، وهذا يعني أنه لم يقف إلى جانب الوحدويين، وفي جميع الحالات كان مع دروزه ضدّ حكومة دمشق، وكان يتذرع في إدانته للسلطة الوطنية بأسباب واهية لكنها في مضمونها لا تختلف عن مواقف

(١) من الألفاظ التي يستخدمها هؤلاء وأمثالهم من بني عمان.

الانفصاليين.

عاد الوضع في الجبل بعد فشل الثورة أسوأ مما كان عليه في عهد كارييه. فلقد عين الفرنسيون منهم حكاماً عسكريين على الجبل لإعادة فرض وضع سابق رفضه الدروز، وكان أهم أسباب الثورة. صحيح أن الوضع يتطلب حاكماً عسكرياً بعد ثورة دامية، ولكنه لا يتطلب تعيين ثمانية حكام عسكريين، واستمرار الحكم العسكري عشر سنوات.

فالحاكم الفرنسي حصر بيده كل السلطات، وتدخل في جميع الشؤون، ونواب الجبل معينون تعييناً، ومناصبهم أصبحت وظائف تطلب من أجلها مرتبها، لأنهم تخلوا عن دورهم الأساس، وكانوا مقيدي الإرادة، محدودي الصلاحيات.

كانت أجواء الجبل في ظل هذا الحكم الفرنسي المباشر، أجواء قمع وإرهاب، فحرية الناس في التعبير عن آرائهم أصبحت مقيدة، ورافق سوء الوضع السياسي الناتج عن عودة الحكم العسكري الفرنسي المباشر، سوء الوضع الاقتصادي والاجتماعي، فقد أحلت مواسم عام ١٩٢٥م، وفي العامين الذين تلياه تعذر على الفلاحين أن يزرعوا ويحصدوا بسبب تتابع المعارك العسكرية، ولهذا فقد شهد الجبل هجرة عدد كبير من سكانه، اتجهوا نحو الغوطة ودمشق وفلسطين ولبنان ودول أمريكا وإفريقيا.

ورغم كل ما فعلته فرنسا في الجبل، فقد ظلّ الدروز متمسكين بالانفصال عن سورية، ورفضوا أن يكون الجبل محافظةً كسائر المحافظات السورية التي صارت

تتبع الحكومة الوطنية في دمشق، وفيما يلي بعض الشواهد على دعوتهم إلى استقلال الجبل وفق كيان خاص به:

١- في ١٤ / ١٢ / ١٩٣١ م زار المفوض السامي بونسو جبل الدروز، وأخذ من حسن الأطرش العريضة المؤيدة للانفصال التي وقّعها الزعماء، وكان من المفروض أن يقدّمها وفد منهم في بيروت، وعلى أساسها أشار بونسو في تقريره إلى عصبة الأمم إلى السكون والهدوء في الجبل، وأشاد بموقف حسن الأطرش الذي قام على رأس إحدى الحركات ليوطّد حق الجبل في استقلاله.

٢- أذاع عبد الغفّار الأطرش بياناً جاء فيه: "إن الأطارشة الذين تحمّلوا عبء الجهاد في خدمة الجبل الدرزي منذ ثمانين عاماً، والذين تعرفهم البلاد أنهم ممثلوها الحقيقيون في المراجع الرسمية وسواها، يعلنون أنهم لا يعترفون بكل ما يشاع أنهم في صدد المفاوضة مع السوريين على أساس الانضمام، وأنهم يرمون إلى طلب الاستقلال الصحيح على الطريقة اللامركزية".

وعندما صار الجبل محافظةً سورية، واكتشفت الدولة أن عبد الغفّار الأطرش وقادة الدروز يرسلون فرنسا وعصبة الأمم المتّحدة مطالبين باستمرار الانتداب الفرنسي، واستقلال الجبل وفق كيان خاصّ به. ألقى الرئيس شكري القوتلي خطاباً في المجلس النيابي السوري، طلب فيه من الحكومة السورية أن تتخذ منتهى الحزم وأن تأتي بعبد الغفّار الأطرش بالسلاسل والقيود، جاءه الردّ من جهتين:

من جهة النائب الدرزي زيد الأطرش الذي ألقى كلمةً في المجلس حمل

الحكومة مسؤولة هذا التسرع، وختمها بقوله: "إن عبد الغفار باشا هو الآن في السويداء. فليفضل شكري القوتلي، وليأت به مكبلاً بالسلاسل والقيود".

ومن جهة الدروز فقد تجمهروا أمام بيت عبد الغفار الأطرش، ثم خرجوا بمظاهرة إلى السراي، وطلبوا إلى المسؤولين إبلاغ الحكومة السورية أن الجبل قطع كل علاقة بسورية.

خطاب القوتلي نشرته [الصفاء] في عددها ٣٠ كانون الثاني ١٩٣٨ م، وكان صحيحةً في واد أو نفخةً في رماد. فلا المؤامرات توقفت، ولا قوات الحكومة حاولت أن تأتي به مقيداً أو بدون قيد.. ثم تمر الأيام فيصبح هذا الخائن المتآمر ولو في نظر الحكومة الوطنية وحدها وزيراً للدفاع، ووزارة الدفاع من أخطر الوزارات في دولة تنشد الاستقلال التام [مات عام ١٩٤٢ م وهو وزير دفاع] كيف يكون ذلك كذلك؟.

٣- أراد أصدقاء إبراهيم هنانو أن يقيموا له حفلةً تأبين في دمشق، وأراد بعض أبناء الجبل حضورها وقد فعلوا، فكانت النتيجة أن الاستخبارات الفرنسية أوعزت إلى رجال الدين في الجبل، فوزع هؤلاء كتاباً هذا نصّه:

" بعد السلام عليكم ورحمته وبركاته: أما بعد قصدنا بهذا الكتاب لحضراتكم أولاً لكي تطمنوننا عن صحتكم وإخوانكم، وثانياً بما أن من الواجب علينا دائماً أن نحافظ على حقوق الجبل وبما يضرّه من الوجهتين الأدبية والروحية المحافظة الشديدة. ولما كنا رأينا أنه يوجد فئة قليلة من رجال الجبل يرون أن يقلقوا الراحة،

ويتداخلوا في أمور لا نفع للجبل منها سوى إضرارها لا مزيد عليه ... وبحيث يتطلب من الدين الشريف القيام بكل واجب به نفع للمصلحة العامة ولراحة الأهلين أتينا بهذا الكتاب مبينين فيه الأمور الآتية:

علمنا أن علي بك مصطفى الأطرش قد سافر إلى دمشق وحضر الحفلة التي أقامها السوريون إلى إبراهيم هنانو، ولما كان عمله هذا غير موافق لمصلحة الجبل ومخالفاً لأساس الدين ... وحيث أن لا تربطه ولا رابطة مع السوريين إن كان من الوجهة الدينية والمعنوية، جئنا نبلغكم كي تعرفوا علي بك أن أصبح تحت البعد والحرام، لأن سفره هذا مما يضرّ بالمصلحة العامة أتينا معلّمكم بهذا البيان ودمتم والله يحفظكم. السويداء في ٢٣ كانون الأول ١٩٣٦ م.

الحقير	الحقير	الحقير
علي الحناوي	أحمد جربوع	أحمد المهجري

نقل هذا البيان عادل أرسلان في مذكراته، وقال في تعليق له عليه: ما في هذا الكتاب شيء صحيح سوى كلمة [الحقير] قبل كل اسم من أسمائهم.

استنكر بعض الدروز منشور رجال الدين الدروز، وقالوا في بيان لهم: إنه يسيء إلى سمعة بني معروف بين بقية الطوائف العربية. وقال آخرون من الدروز: يعزّ علينا أن يكون رجال الدين آله تديرها الأهواء. ولا نستغرب وجود أحرار بين الدروز يتجهون اتجاهات وطنية، ويمدّون يد التعاون لأبناء عموماتهم في سائر أرجاء سورية، لكن عدد هؤلاء محدود. صرّح مدير داخلية حكومة جبل الدروز

توفيق الأطرش:

" إذا جرى استفتاء في جبل الدروز كانت النتيجة مئة بالمئة في جانب الانفصال التام " انظر [العاصفة]: عدد ١٥ / ١٢ / ١٩٣٣ م.

وسلطان الأطرش - كما مرّ معنا فيما مضى - عندما يجدد الجدد يقف إلى جانب دروزه، ويضرب بغيرهم عرض الحائط: وقف إلى جانبهم عندما كانت المسألة المطروحة، فيمن يكون حاكم الجبل هل يكون درزياً أو غير درزي؟!.

وأثر مصلحة الدروز عندما اشتدّ الخلاف بين الوجوديين والانفصاليين وأثر مصلحة دروزه أيضاً في مسألة الموظفين الغرباء [أي الذين كانوا من غير الجبل].^(١)

(١) انظر مذكرات الأمير عادل أرسلان ص ١ / ٣٠٠ وغيرها. ودروز سورية ولبنان في عهد الانتداب والذي نقلته وثائق مع بيان مصدرها.

أيام القرية

أيام القرية

تركتكم تعيشون معي أيام الاستقلال التي شهدتها، وكنا نشدو مع شاعر الشام

شفيق جبري:

حلم على جنبات الشام أم عيد لا الهَمُّ همُّ ولا التسهيد تسهيدُ

أتكذب العين والرايات خافقَةٌ أم تكذب الأذن والدنيا أغاريدُ

من كان يحسب أن الشام يلفظهم وأن طيفهم في الشام مفقودُ

أين الأعاجم؟ ما حلّوا وما رحلوا كأنهم حلّم في الفجر مردودُ

ثم قادتنا تلكم الأيام إلى الحديث عن الثورة الشامية الشامخة التي صنعها رجال ينشدون إحدى الحسينيين، فكان الفعل لهم والادعاء لغيرهم، وعرّجنا على دور كل من الحورانيين والدروز في هذه الثورة، ونقلنا من الوثائق التاريخية ما يتعارض كل التعارض مع كتب التاريخ الرسمية التي كتبها الذين خانوا الأمانة التي عجزت السموات والأرض عن حملها، فكان هؤلاء العلمانيون فيما قالوا وكتبوا من كبار المزورين.

وأعود بكم بعد هذا الاستطراد إلى القرية التي كنا ندندن حولها، ولم نبارحها إلا قليلاً.. أعود إلى أيامنا التي كنا نحياها في تسيل. كان الناس -كل الناس- يعملون، وكان عملهم في الأرض دون سواها، ففي مرحلة الأربعينيات من القرن الماضي لم يكن أحدٌ من ناسها موظفاً في دوائر الدولة سواءً كانت هذه الوظيفة في

الإدارة أو في التدريس لا أستثني من ذلك إلا دركياً واحداً، كان يزور القرية في فترات متباعدة.

وكانت الأرض من حيث استغلالها ثلاثة أقسام: القسم الأول يسمونه "شتوي" وهو مخصص لزراعة القمح، والقمح أنواع، فنوع منه يسمونه حوراني، وكان من أجود أنواع القمح، وكان مشهوراً حتى في بعض بلاد أوروبا. والقسم الثاني يسمونه "صيفي" وهو مخصص لزراعة الحمص، وقليل من الذرة والكرسنة. والقسم الثالث يسمونه "بارد" يبقونه بدون زراعة أي شيء لتستعيد الأرض خصوبتها، وتكون مهيتة لزراعة القمح وقليل من الشعير في العام القادم.

أرض تسيل خصبة يكفيها لتنبت قليل من المطر، وكذلك القرى الواقعة غرب طريق درعا دمشق، وهذا بخلاف القرى الواقعة شرق الطريق فهي لا تنبت إلا إذا جاء مطر غزير. ورغم خصوبة الأرض، ووفرة المياه، فقد كان الناس مقصرين أشد التقصير في استغلال أرضهم ويصدق فيهم قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمول

فأنا لا أعرف في قريننا إلا "كرميين"^(١) من شجر الزيتون، وقليلاً من شجر اللوز، ولا فضل للأحياء الذين شهدتهم في زراعتها، بل أتلف هؤلاء الأحياء الذين شهدتهم أشجاراً كانت مزروعة من قبل. لكن الذي كنت أتمناه منذ صغري

(١) الكرم قطعة أرض تعتبر جزءاً من القرية ومحاطة بسياج من الحجارة.

نهض به أهل تسييل وغيرهم من قرى حوران، ولقد تحوّلت المنطقة بفضل من الله جلّ وعلا إلى غوطة غنّاء. أهلي يعلمون عمق ارتباطي بالأرض، وحرصي على تطوير زراعتنا، ومساهمتي الفعّالة في هذا الشأن، فيرسلون لي صور مزارعنا، ويتصدّر التصوير أو هم يختارون خالداً [ابن أخي]، وخالد أثناء التصوير يظن أنه يمشي ببطء، في حين لا يجاريه في هذا البطء من يمشي هرولةً.. وفضلاً عن ذلك لن أصفه بالفوضى حتى لا يغضب، وأسأل الله تعالى أن يمتّعنا بسقوط نظام آل الوحش [الأسد]، وأن نعود لديارنا ومزارعنا لنستأنف الجهاد في شامنا الحبيب.

الحراثة:

يبدأ الفلاحون حراثة الأرض في نهاية فصل الخريف ويستمرّون حتى نهاية فصل الشتاء، والعامل المتمرّس في هذه الصنعة يسمّونه حرّاثاً، ولا بد أن يكون قد مضى على عمله بضع سنين حتى يصل إلى مرتبة "مربع" وصغير السن المبتدئ يسمونه "قطروزاً"، والمحراث آلة خشبية يجرّها ثوران أو بغل.

يبدأ الحرّاثون عملهم اليومي بعد الفجر، والمُصليّ منهم قد يصلي في الطريق، ومما سمعته من بعضهم أنه يخرج من بيته جنباً فيذهب إلى بركة الماء المتجمدة من شدة برد الشتاء، فيغتسل فيها ويصلي ثم يمضي في طريقه إلى أرضه.

وقفتُ ذات مرة أتأمل حرّاثاً يبذر أرضه، وكنت يومئذ في سنّ الطفولة. بدأ عمله بالبسملة وأتبعها بالدعاء إلى الله سبحانه وتعالى، ثم صار يتناول بيده حفنةً من القمح ويذروها في الأرض بطريقة لا يجيدها إلا من أتقن صنعته، وبعد فراغه

من بذر كمية القمح التي أعدها عاد ليحرق الأرض التي بذرها، وهذا يعني أن قمحه أو بذوره أصبحت في جوف الثرى.

مشهد هذا الحراث لم يغادر ذاكرتي طيلة أيام عمري وكأني أراه الآن، بلباسه، بمكان الأرض التي كان يزرعها، وبالتأكيد لم أنس اسمه رحمه الله. هذا المشهد كان طفلاً يوم كنتُ طفلاً، لقد كانت تشدني طريقة إلقائه للبذور وربما قلّدته في فعلته، وربما كنت أتساءل بشيء من السذاجة: لماذا لا يحتفظ بهذا القمح ليستفيد منه وكيف يليقه فوق هذا الثرى ليكون طعاماً للطير؟!.

ثم كان هذا المشهد يكبر، كلما كبرت وتعلمت وبحثت. لقد وجدت معانيه الرائعة في كتاب الله الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. قال تعالى: ﴿نِسَاءُكُمْ حَرَّتْ لَكُمْ فَأَتُوا حَرَّتَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَكُمْ مُلْكُهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ البقرة: ٢٢٣.

"ففرج المرأة كالأرض، والنطفة كالبذر، والولد كالنبات"^(١)، وأنت أيها الحارث ليس لك إلا فعل الأسباب، ويجب أن تعتقد اعتقاداً جازماً ليس فيه أدنى شك بأن الله هو الزارع المنبت، والناس لا قدرة لهم على ذلك، قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ

مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ ۗ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾﴾ الواقعة: ٦٣ - ٦٥.

(١) الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي.

وسمى الله ما يعمله العامل مما يتغني به الفائدة والزكاء حرثاً أي تشبيهه بالزرع، ولذلك قيل: [الدنيا مزرعة الآخرة]، ومن كان عمله للدنيا أعطي شيئاً منها، لا ما يريد ويبتغيه، وهو رزقه الذي قُسم له وفرغ منه ^(١). قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ الشورى: ٢٠.

هذه الأرض التي رأيتُ كيف كانت تُحرث، زرتها بعد أيام معدودات، فشاهدت النبات وقد بدأ يظهر، ولكن لا يبصره إلا من ولج الحقل، ألا ما أشبه هذه النبتة بالطفل، الذي خرج لتوّه من بطن أمه، فسبحان الخالق، ثم كررتُ الزيارة بعد حين فرأيتُ الأرض التي كانت جرداء بالأمس، وقد تحوّلت إلى بساط أخضر يسرّ الناظرين.. ثم يمرّ الزرع بجميع المراحل التي يمرّ بها الطفل من الرضاعة إلى سن العاشرة إلى بداية الشباب، ثم يشتدّ الشباب عندما يبرز شيء يسير من السنابل، وأخيراً تأتي مرحلة الشيخوخة، فيصفّر الزرع، ثم تُرغم السنبلّة الكبيرة الحجم ساقها إلى الانحناء، فيقصر طول النبتة، ويتغير شكلها، وشتان شتان بين منظرين: الأول لون أخضر واحد، وطول باسق يشقّ عنان السماء. والثاني: لون أصفر، وظهور منحنية تنتظر يوم الحصاد، ولو نطقت لهفتت:

ألا ليت الشباب يعود يوماً لأخبره بما فعل المشيبُ

(١) تفسير القاسمي.

كنت أعيش بين هذه الحقول، وأراقب نمو هذه المزروعات من يوم زرعها إلى يوم حصادها، ثم يتكرر هذا المشهد كل عام ليكون في ذلك عبرة لأولي الألباب، فعمر الإنسان كعمر هذه المزروعات، وإن اختلفت المدّة، فالإنسان إن كتب الله له الحياة يعيش أكثر من ثمانين عاماً، والمزروعات أربعة أشهر أو يزيد قليلاً، والعبرة بالولادة ثم بالموت، ومن كان هذا هو مصيره فليعمل ليوم الخلود، ولا يشغله عنه زينة الحياة الدنيا من مال وولد وجاه. قال تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ الكهف: ٤٥ - ٤٦.

اضرب لهم يا محمد ﷺ مثل الحياة الدنيا في زوالها وفنائها وانقضائها، كما أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض من الحبّ، فشبّ وحسّن، وعلاه الزهر والنور والنضرة، ثم بعد هذا كله أصبح هشياً يابساً تفرّقه الرياح، وتطرّحه ذات اليمين وذات الشمال، وكان الله قادراً على هذه الحالة وعلى غيرها. وكثيراً ما يضرب الله مثل الحياة الدنيا بهذا المثل كما في سورة يونس: قال تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُوا عَلَيْهَا آتْنَاهَا أَمْرًا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْرَب بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ يونس: ٢٤.

وقال جلّ وعلا:

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهْرِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَمًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾ الزمر: ٢١ .

وقال تعالى:

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهْرِجُ فَتَرْتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٤٠﴾ الحديد: ٢٠ .

وقوله: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ﴾ أي كمثل مطر أعجب الزراع نباته، والمراد بالكفار هنا: الزراع لأنهم يكفرون البذر، أي يغطونه بالتراب.

والعبرة في هذه الآيات أواخرها، كقوله تعالى:

﴿ وَالْبَاقِيَتُ الصَّلِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ الكهف: ٤٦ .

وقوله:

﴿ كَذَلِكَ نَفْصَلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ يونس: ٢٤ .

وقوله:

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾﴾ الزمر: ٢١.

وقوله:

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾ الحديد: ٢٠.

" اللهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وأسألك حسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً، وأسألك لساناً صادقاً، وأسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب " (١). وهذه هي الباقيات الصالحات.

وأختم الحديث عن الحراثة والمحراث بقصيدة للشاعر محمود غنيم يصف فيها

المحراث:

يخَطُّطُ الأرض في نظم وإتقان	كأنه ريشةٌ في كفِّ فنان
يخَطُّطُ الأرض لكن لا يلونها	فإن نما زرعها ازدانت بألوان
تلك السطور سطورٌ بات ينقشها	في صفحة الأرض بالمحراث ثوران
شاهدت في الحقل بعد الحرث هندسةً	ليست تقوم على دعوى وبرهان

(١) المسند: ١٢٣/٤، ورواه أيضاً النسائي في سننه الكبرى برقم [١٢٢٧] عن تفسير ابن كثير:

١٦٤/٥. دار طيبة، الرياض.

حسبُ المزارع إن لم يغشَّ مدرسةً ما في المزارع من علم وعرfan
 ما أجمل الأرض والمحراث ينظمها قصيدة ذات تقطيع وأوزان
 يمشي ومن خلفه كفُّ توجَّهه كالفلك سكَّانها في كفِّ رُبان
 ما قلقل الأرض إلا زاد غلَّتْها ضعفين فاعجب لهذا الهادم الباني
 له سلاحٌ إذا ما شقَّها انفتحت فيها كنوزُ يواقيت ومرجان
 لولاه^(١) ما جاد بالخيرات باطنها ولا جنى ثمرًا من ظهرها جان

(١) أي لولا فضل الله تعالى ومنتته على عبده. انظر ديوانه صرخةً في واد ص ١٤٥ عن كتاب

[المختارات الشعرية لعلي آل ثاني رحمه الله: ٢/٨٣٣].

فصل الربيع:

في البلاد الحارّة يبسط الصيف سلطانه على بقية الفصول فيمحقها أو يكاد لولا برد الشتاء الذي يندر أن تصاحبه أمطار، ولا يستمرّ إن طال أكثر من شهرين، ولكن هذا البرد بسبب جفافه ينخر العظام. وفي البلاد الباردة تصبح الفصول كلها شتاءً إلا ما شدّ وندر، والأجواء الغائمة التي تجعل النهار قريباً الشبه بالليل تبعث الكآبة والأمراض النفسية عند سكّان هذه البلاد، وتصبح من أمانيّهم شدُّ الرّحال إلى البلاد الحارّة ليتمتعوا برؤية الشمس وبحرارتهما.

أما بلاد الشام فمن ميزاتها المساواة والعدل بين الفصول الأربعة، فلا يعتدي فصل على فصل آخر، ولا يسلبه شيئاً من ميزاته، ولكل فصل دوره ووقته ونكهته.

وفصل الربيع في القرية غيره في المدينة. فابن المدينة لا يرى أمامه إلا المباني الشاهقة والمصانع التي تضاهي القلاع، والأسواق التي تغصّ بالباعة والمتسوّقين، ولا يشمّ إلا رائحة الدخان الذي ينبعث من السيارات والمصانع والمطاعم، ولا يسمع إلا الصّراخ والضجيج الذي ينبعث من هنا وهناك. أما ابن القرية فهو يقف على أرض الربيع وكل ما حوله ربيع، منزله المتواضع بين الربيع. يتمتع بهوائه النقي، ويشمّ روائح أزهاره التي لم يزرعها أحد.. ويمشي سعيداً هانئاً بين السواقى والأنهار، فلا يجسسه عنها وعن ربيعها حابس ولا يزعجه ضجيج المازّة، وصراخ الباعة. ابن القرية يعرف الربيع من أوائل أيامه فضلاً عن حساباته الفلكية، ويتمثل

جيداً قول البحري:

أتاك الربيع الطلق يختال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلمها

كنا في القرية وكأنا في سجن مظلم: مظلم من اكفهرار الجو.. مظلم من دخان
الوقود البدائي الذي يكاد يعمي العيون ويسيل مدامعها، وكان يجبرنا على الالتفاف
حول الموقدة والصبر على لأوائها من شدة البرد.. فإذا جاء فصل الربيع عرفناه
وعرفنا وكأنا أصدقاء غُيبنا عن بعضنا حيناً من الزمن ثم التقينا "مشتاقاً يسعى إلى
مشتاق"، وكنا بعد ترحيبنا بالوافد الجديد ننطلق جميعاً من هذه السجون: كان
الحرّاثون ينطلقون إلى أرضهم التي حالت بينهم وبينها الأمطار، وكان الأطفال^(١)
ينطلقون إلى أماكن اللعب في الساحات العامة، والمروج الواسعة.

والنساء يخرجن لبعض أعمالهن خارج المنزل. كحلب الشياه ونقل المياه من
البرك والعيون إلى المنازل.

والدّوابّ يسرح بها الرعاة، فتأكل حتى تشبع وتتخم وتشرب حتى ترتوي.

أما أعمال الفلاحين فكثيرة: منها: التعشيب أي تنقية حقول القمح الخضراء من
الزيوان، وكل النباتات الضّارة. ومنها: زراعة الصيفي كالحمّص وهو الوحيد
الذي كان يُباع في الأسواق، وكان سعره أحسن من سعر القمح.

(١) أعني بالأطفال كل من كان دون سنّ البلوغ.

أما الزراعات الأخرى في الكروم وبعض الأرض فهي: بندورة، كوسا، بصل، بطيخ أحمر وأخضر، خيار، قرع.. وهذه كلها لا تُباع، بل من المعيب أن تُباع. يأكل أصحابها منها، ويُجفّفون ما يصلح تجفيفه، ويهدون قسماً منها للجوار والأصدقاء، وكل من لا يملك أرضاً، فلا يَمُنّ المعطي ولا يشعر الآخذ بأي حرج، وهذه ميزة من ميزات التكافل الاجتماعي بين أهل القرى. ثم أصبحت هذه المزروعات تُباع في الأسواق، عندما تقدّمت طرق زراعة الأرض، وتحسّنت شبكة المواصلات، وصارت بعض القرى مدناً، وهذا كله حدث خلال هجري القسرية.

العزبة:

ذكرياتي الجميلة عن ربيع القرية كثيرة ومتنوعة، وأجملها أيام العزبة، وهذه تعني أن تتفق بعض العائلات، [والبعض كما هو معروف دون العشر] على الخروج بأنعامها إلى أرض خصبة لا تبعد كثيراً عن القرية، وكانت الأراضي المشاعة للرعي واسعة. وعلى هذه الأراضي تُنصب بيوت الشّعر، وتصبح حياتنا شديدة الشبه بحياة أهل البادية. فالرجال وهم من وجوه القرية يجتمعون يوماً في بيت من هذه البيوت وأمامهم موقدة من الحطب تتربع عليها دلال القهوة المرّة التي لا يملّون من شربها طوال النهار، ومعظمهم يشرب الدّخان أو النرجيلة.. ولما يمرّ يوم دون أن يستقبلوا ضيوفاً فيذبحوا لهم "طلياً" خروفاً صغيراً وأنثى الخروف يسمونها "عابورة"، ثم يقدمون لضيوفهم الثريد أو المليحي الذي يتربع فوقه الطلي ويُدار عليه السمن. ولو أردت تحديد عمل هؤلاء الرجال أصحاب هذه البيوت،

بعد استثناء الحراسة لوجدتني أردد المثل العامي: "أكل ومرعى وقلة صنعة".

أما النساء فيحلبن الشياه، ثم يقمن بعملية تحويل الحليب إلى لبن، وخضّ اللبن بالجف [وهو قربة كبيرة] لاستخراج الزبدة ثم تحويل الزبدة إلى سمن، وهذا [السمن] الوحيد الذي كان يُباع أما الحليب واللبن الرائب والشينة فلم تكن تُباع، وفضلاً عن هذه الأعمال كلها فقد كانت المرأة تهيب طعام الضيوف الذي يكاد يكون يومياً. فهل يستوي عملهن الشاق مع رجالهن الذين لا يعملون شيئاً؟!

أما الأنعام فترعى مع الرعاة طوال النهار، وتعود في المساء، فتُحبس في أمكنة وقتية بسيطة يسمونها [صيرة] ويجرسها الرجال الذين يحتفظون بأسلحتهم، والحراسة لا تشغلهم عن شرب القهوة والدخان.

أما الأولاد وبالسعادة الأولاد في العزبة!!، فيكاد هذا الفضاء المتباعد الأرجاء لا يتسع لنا. كنا نطلق صباح كل يوم وأين نتجه؟ فهذا لا يحتاج إلى تشاور واتخاذ قرار، فيكفي أن يمشي كبارنا باتجاه نهر العلان لنسير معهم ومن ورائهم. وفي العلان نتسابق على حافة الجسر العثماني وتحتنا غدران عميقة وصخور، فلو زلت قدم أحدنا لأصبح جثة هامدة، واستخراجه يحتاج إلى أولي العزم في السباحة من الرجال وليس من أمثالنا الأولاد، أكتب اليوم هذه السطور وإلى جانبي مدفأة، وتغير الجو القليل يترك أثراً في جسمي العليل فأتساءل هل كنا بشراً أم جنّاً لا نشعر بالبرد ولا بالخوف ولا نحسب أي حساب للمغامرات فسبحان الذي يُغيّر ولا يتغير، ثم يأتي دور السباحة في الغدران، والسباحة تعني أن يخلع الأولاد

ملابسهم كلها فيصبحون كيوم ولدتهم أمهاتهم لأننا ما كنا نعرف شيئاً اسمه
الملابس الداخلية، وأنا وحدي من بين هؤلاء الأولاد خرجت على عرفهم،
فرفضتُ خلع ملابسي ولهذا لم أتعلم السباحة رغم كثرة البرك والغدران وصار
يصدق بي قول الشاعر ابن الرومي:

وإني ولو ألقيتُ فيه وصخرةٌ لوأفيتُ منه القعر أول راسب

وقبل عودتنا بساعات قليلة نيمّم شطر جزيرة النرجس وهي جزيرة صغيرة في
نهر العلان^(١)، والقادم إليها يشم رائحة هذا الورد الجميل على بُعد أكثر من ميل،
فيقتطف منه سگان تسيل وقرى أخرى، فجلّت قدرة الله تعالى التي أنبتت هذه
الزهور، فنقتطف كما نشاء، وإن شئت فقل نعبث كما نشاء ثم نعود مع الغروب إلى
بيوت العزبة فلا تعب ولا نصب.

وفي يوم آخر يصطاد الأولاد بفخاخهم الطيور، وأنا اقتنيت الفخاخ لكنني لم
أنجح بل لم أحاول اصطياد الطيور. كنت أركض كما يركض رفاقي، وأفرح
لفرحهم لكنني أعود آخر النهار خالي الوفاض. وقلّم تمرّ أيام دون اشتباكتنا مع أولاد
البدو، فبيننا وبينهم خصومات ورثناها عن آبائنا وأجدادنا، وفيما يلي نبذة عن
علاقتنا بهم أو عن خصوماتنا معهم:

(١) هو أحد روافد نهر اليرموك.

تسيل وبدو الجوار

حفظت منذ صغري المعلومات الآتية:

- والد جدّي تزوج من عرب [الويسية] في الجولان، وكنت أسمع والدي وأعمامي يُكثرون من ذكرها، وإذا جاءهم ضيف من هذه العشيرة أكرموا غاية الإكرام، ولا أدري هل كانت الويسية زوجة عبد الفتّاح الوحيدة أم هي إحدى زوجاته، وأظنها كانت والدّة جدّي عبد الغني [ولا أجزم].

- عمّي التهامي كانت زوجته الوحيدة [ترفه] من عرب المناظرة الذين يسكنون كويا وبيت أرى جنوبي قرية الشجرة، وهم فلاّحو آل الأمير عبد القادر الجزائري، وعاشت ترفه مع عمّي أكثر من ثمانين عاماً دون أن تُغيّر لهجتها البدوية. وكنا ننازع ابن عمنا محموداً فنذكر له طرائف كثيرة على أحواله المناظرة. لعلّ من أشهرها الدّبكة فكان قائد الفرقة إذا حمي وطيسها يقول لهم [لوري] أي يهتزون ويتحرّكون إلى الوراء دون أن ينظروا إلى الوراء، وفي واحدة من هذه التعليقات سقطوا في الوادي الذي كان خلفهم.

- عرب البكارّة يسكنون القرى المجاورة لقريتنا: الرفيد، غدير البستان، كودنة. ونخوتهم [عيال محمد] وكنا نقول لهم بتهكم حدّثونا كيف حاربتهم الشرقية؟! وخلاصة هذه الرواية التي لا أدري مدى صحتها:

أن فريقاً منهم كان يحدّ الخطى نحو الشرق، وكان الهواء الجاف يصفع وجوههم، وبعد تداول الرأي فيما بينهم حلّوا مقالعهم وأخذوا يقذفون الهواء

الشرقي بالحجارة وبعد معركة دامت أكثر من ساعتين شعروا بالدفء فظنوا أنهم انتصروا على الهواء الشرقي وهزموه.

- كان ولد علي جيراننا في قرية عين ذكر وما حولها، وكان زعماءهم من [آل سمير]، وكان أهل تسيل يزرعون قسماً من أرضهم تُسمى [القرية] مقابل نسبة معينة، وكانت تقع بيننا وبينهم معارك أهمها معركة عام ١٩٣٧م أي قبل ولادتي بعام واحد، ووقع قتلى من الطرفين ثم جاء شاعر تسيل [النعسان] رحمه الله، وسجّل هذا الحدث بقصيدة من شعره النبطي الموزون حفظها أهل تسيل شيباً وشباناً.. ودخل فيما بعد وسطاء فعقدوا الصلح بين أهل قريتنا وعرب ولد علي. وتناسى الطرفان ما حدث بينهما، وعادت الأمور إلى سابق عهدها، وكنت أرى آخر زعماء ولد علي [عناد بن سمير] في تسيل، وكان الوحيد في المنطقة الذي يملك سيارة جيب، ويتنقل بها، ومما أذكره أنه تُوفي عام ١٩٤٨م.

دفعني فيما بعد حُبّ البحث إلى دراسة أحوال هذه القبائل التي جاورتنا، وانتهيت إلى النتائج الآتية:

- ولد علي من قبيلة عنزة، وهم من أقرب فروع عنزة بالمساليخ الذين يتزعمهم آل سعود، وولد علي يغدون ويروحون بين بلاد الشام ونجد، وكثرتهم الغالبة في المملكة العربية السعودية، وقد كانت حماية ركب الحج الشامي في يدهم، وكانت الدولة العثمانية تدفع لهم جُعلاً معلوماً لقاء قيامهم بهذه المهمة، والطريق بين الشام والحجاز، وما جاور الطريق كان يقع تحت سيطرتهم ونفوذهم دون منازع.

وقد كان العداء والتناحر قديماً ومستمراً بينهم وبين أبناء عموماتهم الروالة. وعندما احتلت القوات الفرنسية سورية عام ١٩٢٠م وأجبرت الملك فيصل بن الحسين على مغادرتها خاصم رُشيد بن سمير القضية العربية، وانحاز إلى الفرنسيين، وقابل الجنرال غورو في بيروت، وتعهد بالولاء وتأييد انتداب فرنسا.

- ومن القبائل الذين يجاوروننا في الجولان آل فضل، ويرأسهم [آل فاعور]، والأرجح أنهم مجموعة قبائل اندمجت في حلف واحد وسمت نفسها بهذا الإسم. وفي تاريخهم أنهم عندما وصلوا الجولان وجدوا فيها قوماً من الكرد، اصطدموا بهم فردّهم الكرد، ثم أخذوا ثأرهم منهم وأخرجوهم من الجولان، ثم جاورهم الشركس حينما وفدوا مهاجرين من القوقاز. وكان للفضل مواقف طيبة من القضية العربية عام ١٩٢٠م.

- آل نعيم: عشيرة كبيرة كثيرة الفروع، متوزعة في كل مكان في بلاد الشام والعراق. وفد فريقٌ منهم إلى الجولان في القرن الحادي عشر. وهم قسمان، أحدهم مستقر أهل زرع، والثاني رُحّل أهل ضرع. ومن قراهم في الجولان كودنة، البطمية، الرفيد، غدير البستان. والرئاسة على النعيم في الجولان ووادي العجم في آل الطّحان، وقد اشتركوا مع الحورانين في ثورة ١٩٢٠م ضد فرنسا، وصدر حكم على بعض شيوخهم بالإعدام، ثم عُفي عنهم. ويحتفظ النعيم بنسبهم لآل بيت رسول الله ﷺ، ولهذا فهم يختلفون عن البدو في بعض الصفات. والبيكار من

النعيم.^(١)

لقد كان أهل زراعة الأرض في صراع دائم مع البدو المجاورين لقراهم، ولهذا أسباب منها:

- اعتداء البدو على المزروعات، ففي غياب حراس الحقول يطلق البدو أنعامهم لترعى في حمى الفلاحين الذين ربطوا مصيرهم ومصير عيالهم بمنتجات هذه الحقول.

- كان كثير من البدو قطاع طرق، وتكاد تكون هذه هي صنعتهم الوحيدة التي يقتاتون من دخلها. ومن أشهر هؤلاء في حوران السورية: السلوط في اللجاة. واللهيب في الحولة [قضاء صفد] والجولان.

يقول الباحث أحمد وصفي زكريا:

"ولهؤلاء اللهيب براعة وشهرة طائلتان في السلب والنهب، وأكثر ما يسطون على قرى الجولان، يتسللون بين الأودية والأوعار في حالك الظلام مشاةً أو ركباناً، وينشلون الأبقار من زرائبها، ويطيرون بها إلى ما وراء الحدود الفلسطينية، ويبيعونها".^(٢)

(١) عشائر الشام. أحمد وصفي زكريا.

(٢) عشائر الشام، أحمد وصفي زكريا. ص: ٣٩٨.

ولهذا السبب فقد كان الناس في القرى المجاورة لفلسطين يشتكون بمرارة من بأس اللهيب^(١) والدروز الذين كانوا يقاتلوننا في الجيش الإسرائيلي، وكانوا أشد بأساً من اليهود.

أما في حوران الأردنية وفي مناطق الأردن الأخرى، فقد كان كثير وكثير جداً من القبائل البدوية تتخذ من اللصوصية مهنة لا تقدّم عليها مهنةٌ مهما كانت مغريةً، ولهذا فقد استدعى الإنجليز الضابط غلوب باشا الذي قهر قُطّاع طرق في العراق ليؤدي دوراً مماثلاً في الأردن، وقد نجح بعض الشيء في هذا الجانب، ولكن نجاحه هذا لا يُقاس بالفساد الذي أحدثه في جوانب كثيرة، ومنها قضية فلسطين.

تسيل قرية من الحدود الأردنية من جهة الجنوب، أما من جهة الغرب فهي أقرب إلى الجولان من حوران، ولهذا فقد كانت ممراً لقطّاع الطرق، وكان مطلوباً من شبابها حماية أمن القرية. فاللصوص الذين يدخلون القرية فجأةً وفي الظلام الدامس لا ينتظرون من يركب دابته، ويذهب إلى رجال الدرك في مخفر نوى الذي يبعد عن تسيل ستة أميال، والدرك الذين تندلع كروشهم أمامهم ليسوا جاهزين لمثل هذه الطوارئ.

لم يبق أمام أهل البلدة في مثل هذه الحال إلا حماية منازلهم ودوابهم وحقولهم وطرفاتهم من اللصوص وقطّاع الطرق. وهذا الذي كان يحدث.

(١) نعتذر من أبناء قبيلتي: السلوط واللهيب، فالتاريخ لا يرحم، والله سبحانه وتعالى يقول:

(ولا تزُرُّوا زُرّاً ولا تزُرُّوا زُرّاً أخرى).

قارئ الكريم: إن جلافة الأعراب عكّرت عليّ وعليكم أجواء ربيعنا الخلاب، وعزبتنا التي لا ينسى ذكرياتها الجميلة إلا من كان صاحب ذاكرة مثقوبة. وأختم حديثي عنهما بطرفة وأبيات شعرية لشاعر حوران مصطفى وهبي التل الذي عاش قبلي أكثر من ثلاثين عاماً أياماً كأيامي وربيعاً مثل ربيعي.

الطرفة: أحد الحرائث الذين كانوا يعملون في حقولنا اسمه نوّاف، وذات يوم كان يعمل في حقل مجاور لمخيم نوّاف^(١) الشعلان، ففقدته زملاؤه في العمل، وصاروا ينادون: يا نوّاف، يا نوّاف... فسمع خدم وعبيد نوّاف الشعلان النداء، وجاءوا يهرعون، فرأوا عاملاً بسيطاً يلبس ثياباً رثة، فقالوا له: أين نوّاف، فكان جوابه أنا نوّاف، فانهاوا عليه ضرباً بسيطهم، وقالوا له: خسأت لست نوّافاً!! وتحت لسعات السياط الموجهة كان الرجل رحمه الله يقول لهم: ما هو ذنبي إذا كانت أمي سمّنتي نوّافاً، ولم يكن نوّافكم قد وُلد؟!.

أبيات من شعر مصطفى وهبي التل في ربيع حوران:

وسهل إربد قد جاشت غواربه بكل أخذ من عشب ونوّار
إن الشماليخ من حصن "الصريح" لقد حالت إلى عسل، يا بنت فاشتاري
دع المدينة لا يحدعك باطلها فزيفها بيّن من غير منظار

(١) هو ابن النوري الشعلان زعيم رواله.

ما بعد "خبيز" وادينا و"خبزته" وبيض "عكوبنا" مير لممتار

خدّاك يا بنت من دحنون ديرتنا سبحانه باريء الأردن من باري^(١)

وعاش الشاعر مثلي حياة الغربية، ومن يقرأ شعره يرثي لحاله، ويدعو له بالعودة الميمونة إلى وطنه ومرايع صباه، وقد يتساءل: هل كان التل منفيّاً في الأرجنتين أو في إستراليا؟! ويفاجأ عندما يقرأ سيرة حياته أنه كان يدرّس في مدرسة عنبر بدمشق التي لا تبعد عن إربد أكثر من مائة ميل، يقول الشاعر في هذه المناسبة:

إذا هجم الظلام كموج بحر يروم بسرعة نحو الضياء
وخيم فوق منزلنا سكونٌ ونام الصّحب من كثر العناء
أحنّ إلى بلاد عشتُ فيها وقد أصبحتُ عنها اليوم [نائياً]
فما مثل الحياة بأرض برّ بها أهل المروءة والوفاء
وإن أسكن أخي بيت شاعر بعرض القفر في وسط الخلاء
ومن حولي أناسٌ ذو قلوب صفتٌ ودأ إليّ بلا مرءاء
لخيرٍ من قصور شاهقات كحصن قد أحيطت بالبناء

(١) غواره: أعاليه. النوار: الزهر. سهل الصريح: أرض بحوران. الشالوخ: نبت له ساق حلو يؤكل. بيض عكوبنا: العكوب اللين الطري وهو من نبات الربيع الذي يؤكل، وكذلك الخبيزة. دحنون: أزهار الربيع الملونة، ومنه شقائق النعمان.

بها من كل فاكهة وطير
يزيل شجي الصدور لدى الغناء
ومن إخوان سوء ليس فيهم
سوى من كان كذاباً [مُرَائِي]]
ينبهنى الصياح صياح ديك
يسبّح ربّه قرب الخباء
وينسيني الهموم حُداء راع
وماشيّة أتت لورود ماء
إذا يا صاح جاء الموت يوماً
لكي يمضي بروحي للسماء
بحوران اجعلوا قبري لعلي
أشّم أريجه بعد العناء^(١)

فصل الصيف:

لهذا الفصل يعمل الفلاح طوال العام، وهو قبل ذلك وبعده لا يتكل على عمله، وإنما يدعو ربه في السر والعلن أن يحمي مزروعاته من كل جائحة، فإذا تأخرت الأمطار تداعى المزارعون إلى صلاة الاستسقاء^(٢). وحقل الفلاح مثل ابنه المدلل يخشى عليه من العواصف، ومن كثرة الأمطار التي تغرقه أو من شحّ

(١) عنوان القصيدة: "الحنين إلى حوران"، والشاعر مصطفى وهبي التل، وُلد في إربد عام ١٨٩٩م، تلقى تعليمه الابتدائي في إربد، ثم سافر إلى دمشق عام ١٩١٢م وواصل تعليمه في [مدرسة عنبر]، ومن عنبر انتقل إلى حلب وأتمّ دراسته فيها. وفي حياته العملية تنقل بين التدريس، ووظيفة الحاكم الإداري، ثم القضاء والمحاماة. وفاته كانت عام ١٩٤٩م، انظر كتاب عشيات وادي اليبس. جمع وتحقيق د. زياد صالح الزعبي.

(٢) الحديث هنا عن أرضنا التي كنا نعتمد في زراعتها على مياه الأمطار وحدها. وجدير بالذكر أن شحّ الأمطار يضّر حتى بالسواقي والينابيع.

الأمطار التي تميته في مهده. يتفقدته كل يوم فيعالج ما يتعرض له من الآفات قدر استطاعته. ينظر إليه بعين الأمل والرجاء، وبالعين الأخرى ينظر إلى مؤونة البيت التي نفذت قبل شهرين تقريباً، وأجبره ذلك على الاستدانة من المرابي الذي لا يعرف قلبه الرحمة، ولا يفكر بشيء اسمه القرض الحسن.

ولكل شهر دور بعملية الزراعة، ولهذا يصف الفلاح كل شهر بكلمات مسجوعة ودقيقة، فإذا أقبل الشهر الخامس من السنة الميلادية [أيار] أجرى الاستعدادات اللازمة ليوم الحصاد.. كل أبناء القرية يستعدون، ويتم تحديد اليوم والوقت وفق نظام تتولاه الهيئة [الاختيارية] لا يسع أحد الخروج عليه، ففي مساء ذلك اليوم يجوب حارس القرية الأحياء، ويصيح بأعلى صوته: [غداً بداية الحصاد]، وفي أواخر تلك الليلة يخرج الناس إلى أقرب مكان من الأراضي، ويجلسون ينتظرون تعليقات أخرى تتعلق بالجو: هل هو رطب ندي أم حار جاف، ففي الثانية يعودون إلى منازلهم، وفي الأولى يعلن الحارس الذي يعرفونه ويميزون صوته عن أصوات غيره: [الهده يا فلأحين] ولعل أصل هذه الكلمة هد، ومعناها قوموا وابدأوا، وهذا يعني أن يتوجه كل منهم إلى أرضه التي لا يخطئها، ويقف الناس صفّاً واحداً وكأنهم في ساحة حرب ثم يبدأون الحصيد بمناجلهم، وحتى المرأة تشارك في هذا العمل الشاق فتقف على يسار أخيها أو أبيها، ولا تختلط بالرجال الغرباء. وهنا تظهر مهارة الحصادين وتنتشر سمعته في القرية وما يجاورها، بل في حوران كلها ذاع صيت الحصاد [أبو زكرة] من يكون أبو زكرة؟

لا أدري، لكنني سمعتُ الناس يقولون: هل هو أبو زكرة في الحصيد؟! وهؤلاء قد يشكلون فرقةً ويستأجرهم الناس بسعرهم يفرضونه. والنساء مثل الرجال بينهن من تتمتع بمهارة وجلد، وكان أهل الزوج أحياناً يختارون لابنهم هذا النوع من البنات، ويُقدّمون هذا الشرط على غيره من الشروط.

ومن يتجول في شوارع القرية وقت الحصيد يشعر بوحشة، فيكاد لا يلقاه أحد من أهلها، فالكل في حقولهم: الكبار في السنّ يقومون بالإشراف العام على سير العمل، وتنبية المقصّرين، وبعض أصحاب الحقل ومعهم نساءؤهم يجمعون ما تمّ حصده [الشمايل] وتهيئته لتحمله الإبل، والأولاد يأتون الحصادين بالطعام، وبعضهم يشارك في [الرجود] أي قيادة الإبل وما تحمله من الحقل إلى البيدر وبالعكس، ووراء الحصادين يتجمع [اللوقيط] وهم نساء وأولاد يلتقطون سنابل القمح التي لم تظفر بها مناجل الحصادين ومعظم هؤلاء يعيش من مثل هذه الأعمال البسيطة، فيجب على أصحاب هذه الحقول أن يكونوا كرماء مع إخوانهم الفقراء الذين ألبتاهم أمورهم الحياتية إلى ذلك العمل.

قال تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا

تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ الأنعام: ١٤١.

ومن أقوال المفسرين في شرح هذه الآية:

قال ابن عمر: " وآتوا حقه يوم حصاده " كانوا يعطون شيئاً سوى الزكاة.

وقال عطاء بن أبي رباح: يعطي من حضره يومئذ ما تيسر، وليس بالزكاة.
وقال مجاهد مثل ما قاله ابن عمر وعطاء، وأضاف: ويتركهم فيتبعون آثار
الصرام.

وعن سعيد مرفوعاً: ما سقط من السنبل.

وعاقب الله أصحاب الجنة^(١) الذين قال بعضهم لبعض: لا تمكّنوا اليوم
فقيراً: قال تعالى: ﴿فَانْطَلِقُوا وَهَرَبِيحًا يَخْفَوْنَ ۗ (٢٣) أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ۗ (٢٤)﴾
القلم: ٢٣ - ٢٤. [وقد ورد في حديث رواه الحافظ البيهقي من طريق جعفر بن
محمد علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عن أبيه، عن جدّه: أن رسول الله ﷺ
نهى عن الجداد بالليل، والحصاد بالليل].

وقال ابن الأثير في النهاية [١ / ٢٤٤]: "الجداد: هي صرام النخل، وهو قطع
ثمرتها، يقال: جدّ الثمرة يجدها جدّاً، وإنما نهى عن ذلك لأجل المساكين حتى
يحضروا في النهار فيتصدق عليهم منه"^(٢).

إن الأيام دول، فليتصور صاحب الحقل أن الأيام أعوزته، وجاء يلتقط سنابل
القمح وراء هذا الفقير الذي أغناه الله، فليعامله بما يجب أن يعامله الناس به. كان
محمد كرد علي يكثر من نقد شكري القوتلي وتجريجه، ورغم ذلك فهو يعترف بطيب

(١) سورة القلم الآيات: ١٧-٣٣.

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة. دار طيبة. ١٩٧/٨.

أرومته، قال في مذكراته: "قصصت يوماً على شكري القوتلي قصةً رُويت لي مرةً عن جدّه العظيم قلت: بلغني أن جدك حُمّل إليه ذات يوم من قرينته إثنا عشر حملاً من الحطب، وكان يطلّ من طنف غرفته على الشارع، فشاهد أحد الحمّالة يقتنع حمليّن ويسوقهما أمامه، فأتبعه السيّد حتى رآه أناخ الحمليّن أمام بيت في محلّة النوفرة، فبصر في الدار فرآها خاليةً من كل شيء يدلّ على حياة، فأمسك بيد الحمّال وابتاع له كيسين من الدقيق وصفحة سمن وصفحة زيت وصفحة دبس وسلّة أرز وسلّة بُن وكل ما يلزم للطعام، وقال له مماًزحاً: الآن يلزمك الحطب، أما من قبل فماذا تعمل به؟ مثال في التفنن في الإحسان." (١)

موسم حصاد القمح لا يستمر أكثر من شهر، ثم يعود الحصادون الذين جاءوا من خارج تسيل إلى قراهم، ويتنقل المشهد إلى البيادر في أطراف القرية. وعالم البيادر غير عالم الحصاد، ففي البيدر لا حاجة إلى ذاك الحشد الكبير من الناس، ولا من النساء، ويكفي عمل [المرايعين] وشباب أهل الدار.

أما الأدوات التي يكثر استعمالها فهي: اللوح الخشبي، الشاعوب، المذراة، الغربال، الصاع.

اللوحة الخشبي [النورح] يُربط بالبغال أو الخيول التي تجرّه، وفوقه الدارس الذي يتحكم بالدابّة من خلال المقوّد، ويدور فوق القش المفروش على أرض

(١) المذكرات. محمد كرد علي. طبعة الترقّي بدمشق. ٧٠ / ١، [١٨٧٦-١٩٥٢م] من أبواب

القلم، وكان إماماً في الصحافة أنشأ أولّ مجمع علمي عربي في دمشق وترأسه.

البيدر بحركة دائرية، فيسحق السنابل حتى تصبح ناعمةً وقابلةً للتذرية.

والدارس في سن التمييز أو يزيد قليلاً، ويبدأ عمله منذ الصباح الباكر ويستمر حتى قرب غروب الشمس، فيشويه حرّاً شهريّ تموز وآب فتتغير لون بشرته، ويدفع المسكين السأم عن نفسه بأغاني عذبة تطرب لها حتى خيولهم، ويردُّ عليه دارسون في بيده أو في بيادر مجاورة، ومن أشهر أغاني الدارسين الخاصة بهم دون غيرهم:

هَبِّ الهوى يا ياسين يا عذاب الدارسين

هَبِّ الهوى هَبِّ الهوى مريض ماني عاسوا

وهكذا فكل قرية يضيف الدارسون فيها أبياتاً أخرى. أما الهوى الذي يكرر الدارس ذكره، فهو ينتظره لينقذه من لهيب الصيف، والمربع ينتظره للتذرية التي تلي الدراسة وهي تعني عملية الفصل بين الحبّ والتبن، والمذري لا يملّ من رفع مذارته وخفضها، فالقمح يعود إلى الكومة التي ارتفع منها، والتبن يسقط في جانب قصي من البيدر.

وأما الغريلة التي تلي التذرية فهي أروع فصل في رواية البيدر كلها. والغربال أداة تشبه الدُّف ذات ثقوب، ولكل نوع من أنواع الحبوب غرباله الخاص، فغربال القمح يختلف عن غربال الحمّص من حيث اتساع الثقوب، وغربال الطحين يسمونه منخلاً.

وفي الأمثلة: " من غربل الناس نخلوه ". وغرَبَلُ الناس: كشف حالهم، وغربل القوم: قتلهم^(١) وطحنهم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: " [كيف بكم وبزمان] أو يوشك أن يأتي زمان يُغَرَّبِلُ الناس فيه غربلةً تبقى حثالة من الناس قد مرَّجَتْ عهدُهم وأماناتهم واختلفوا فكانوا هكذا وشبَّك بين أصابعه، فقالوا: وكيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم وتذرون عامتكم. " ^(٢).

قوله: [يُغَرَّبِلُ الناس] أي يذهب خيارهم ويبقى أراذلهم، كتثقية الغربال للطحين وغيره.

قوله: [حثالة] هي ما سقط من قشر الشعير والأرز والتمر، والرديء من كل شيء. قال القرطبي: عبارة عن موت الأخيار وبقاء الأشرار، كما يُبقي الغربال من حثالة ما يغربله.

(١) انظر قواميس اللغة العربية.

(٢) وردت أحاديث بهذا المعنى في مسند الإمام أحمد، وسنن أبي داود، وسنن ابن ماجه، ومستدرک الحاكم وصححه. وقال الشيخ الألباني عن حديث عبد الله بن عمرو بن العاص: قال الحاكم: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي، وهو كما قال. انظر سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤١٥/١.

ومن جميل ما قرأت مقال للأديب ميخائيل نعيمة عن البيادر، ختمه بقوله:
 "تلك هي حكاية البيادر الوضيعة التي ما كنت لأرويهما لكم لولا اعتقادي أن لكل
 واحد منكم بيدراً، وأنكم الزارعون والحاصدون والدارسون والمذرون
 والمغربلون. فالويل لزارعي الزؤان لأنهم زؤاناً يحصدون. والويل لحاصدي
 القطرب والعوسج لأنهم قطرباً وعوسجاً يدرسون، والويل لمذري التراب
 والحصى لأنهم تراباً وحصى يغربلون. ثم الويل لمن لا يحسن غربلة بيده بيده
 وبغرباله. فذاك لن يجد لبيده مغربلاً.

وهنيئاً لمن إذا حوسب في هذه اللحظة استطاع أن يشير إلى بيدر طافح بالخيرات
 المنقاة، وأن يقول بلا صلف ولا خجل ولا وجل: هذا هو بيدري. وتلك هي
 غلتي.. " (١).

قلت: تلك هي حكاية الناس في هذه الحياة الدنيا التي لا تساوي عند الله جناح
 بعوضة، وكما أسلفت: فإن هذه الحكاية تتكرر كل عام ليتعظ المرء ويعتبر، وليغيّر
 ويبدّل. يذكره الحق جلّ وعلا بأن مثله في هذه الحياة كنبته القمح في نشأتها ونموّها
 وحصادها. ومثل صحيفة أعماله كمثله حقله. هل خدمه كما ينبغي، ونقاه من
 النباتات التي تضرّ ولا تنفع؟! ومما يجدر ذكره أن المهملين درجات فليس من
 قصّر في خدمة أرضه، كمن تركها بوراً، وليس أمر من تركها بوراً، كمثله من
 زرعها بما يغضب وجه الله سبحانه وتعالى كالمخدّرات.

(١) المجموعة الكاملة لميخائيل نعيمة. البيادر. مع تصرف يسير.

أسألك اللهم بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلاء أن تنقنا من ذنوبنا كما يُنقى الثوب الأبيض من الدنس.

وبعد الغرلة يصبح القمح أو الشعير أو الحمص كومةً نقيّةً من الشوائب، يسمّيها الفلاحون [صبّة]، ويأتي صاحب الدار أو من ينوب عنه بالكيل في صاعه الذي يزن عشرة كيلو غراماً تقريباً، ويبدأ الكيال بنغمة تألفها نفوس المستمعين من جهة، ومن جهة ثانية فهي تؤكد ثقة الفلاح بربه وقوة اعتماده عليه، وما زلت أحفظ بعض ما يقوله الكيال:

الله واحد	يعني ١
ما له ثاني	يعني ٢
سترك يارب	يعني ٦
يا الله الأمانة	يعني ٨
تسعد يلي تصلي علنبي	يعني ٩

أنا والأرض:

يرتبط الفلاح بأرضه ارتباطاً وثيقاً لا تنفصم عراه. يعشقها كما يعشق الحبيب المتيم حبيته. يحن إليها إن غاب عنها كما يحن قيس إلى ليلاه، أو كما يحن جميل إلى بشيائه.

هي عنده لا تُباع مهما تضاعف الثمن، وهل يبيع الوالد ابنه الذي يحبه أشدّ الحب؟ وهي وطنه وهل يطيق الإنسان صبراً على حياة بلا وطن؟، ولو أنه رحل عنها وامتلكت أضعافها، ثم تزوج في غربته ورزق بنين وحفدة وعاش حياة رغداً، لما أغناه ذلك كله عن أرضه التي أرققه العمل فيها، ومنزله القديم البسيط، وفراشه الخشن.

أنا ذلك الفلاح!!، قال محدثي: ما كنت أظنك كذلك. وإذا استثنيت بعض الأعمال البسيطة، فإنك لم ترتبط بهذه الأرض كما ارتبط بها أهلك، ولم تبدل فيها شيئاً من الجهد الذي بذله أصحابها، وفضلاً عن هذا وذاك فقد عشتَ غريباً عنها، وإنني أفهم أن تحن إلى وطنك، أما هذه الأرض فقد كنتُ أظن أنك نسيتها.

قلت: هذه أرضي وأرض إخواني، كما كانت من قبل أرض آبائي وأجدادي، ولا يغيّر من الحقيقة شيئاً كوني أنا الذي زرعتها بيدي أو استأجرت من يزرعها، ومع ذلك أنا أعرفها شبراً شبراً كما عرفها من أفنى سنّي عمره في خدمتها، وأغار عليها بل ولا أقبل أبداً أن يمتلكها أو يستأجرها غيري. وهي قبل ذلك وبعده أمانة في عنقي وأريد أن تنتقل لأبنائي من بعدي وهي في أحسن حال.

محدثي الكريم: سأعود بك إلى نهاية عام ١٩٦١ م وبداية عام ١٩٦٢ م. كان عمري ثلاثة وعشرين عاماً. وكان والدي رحمه الله قد باع ثلث أرضنا، وأصبح الأمر خيفاً، فالبيع قائم ولا ندري متى سيحدث، والرجل كريم، ولا يبالي في بيع كل شيء من أجل إكرام ضيوفه، وإذا باع أو اشترى لا يستشير. وفي هذا العام [نهاية ١٩٦١ م] أقدم على تأجير أرضنا كلها، وأخذ مقابل ذلك مبلغاً من المال على الحساب، وستتبعه مبالغ أخرى، وفي النهاية سيعطي المستأجر قطعة من الأرض، والمستأجر يعرف والدي ويطمع في الانتقال من الاستئجار إلى التملك. الوضع مخيف.

كنا - أفراد العائلة - نتهامس ولا ندري ماذا نفعل، فنحن من جهة لا يجوز لنا أن نقف مكتوفي الأيدي، ومن جهة ثانية لا نجرؤ على مواجهة الوالد ومراجعته بقرار اتخذه، سواء كنا منفردين أو مجتمعين، فالرجل قوي الشخصية، وليس بيننا من يتناول على أبيه أو أمه!.

خلوتُ بنفسي، وحسبت الأمور من كافة وجوهها، وهذا هو شأني طوال عمري عندما أواجه مشكلة شائكة، ثم توجهت نحو أصحابي الميسورين وكانوا قلّةً واستدنت منهم المبلغ الذي أخذه والدي من المستأجر. ولن أنس فضل من أقرضني هذا المبلغ رغم صغر سني وحادثة تجاربي. ثم حملت هذا المبلغ وجلست مع أخي الكبير محمد هاشم رحمه الله، وأحد أبناء عمومتي رحمه الله، وكان اختياري له دقيقاً في حساباتي وذلك لأن المستأجرين من أحواله، وأريدهم أن يفهموا بأن

ابن أختهم سيكون أشدّ خصومهم إذا وقعت الواقعة. ومما يجدر ذكره أن كلاً من أخي وابن عمي يكبرانني بأكثر من عشرة أعوام.

أرسلنا ابن عمي للمستأجر فجاءنا وجاء معه أحد وجوه عشيرته، وقلت لهما: هذا هو المبلغ الذي أعطيته يا فلان لوالدي وجزاك الله خيراً، فنحن نريد أن نزرع أرضنا. كنت هادئاً ومهدّباً في استقبالي لهم، وفي حديثي معهم، وكذلك المستأجر. وشعر الوجيه أن الأمر سيخرج من أيديهم، فصار يخاطبني بعبارات نابية، وبصوت مرتفع ومفتعل، فخرج والدي يستمع دون أن يدخل غرفتنا التي نجلس فيها، وخرج كذلك عمي الشقيق يشنّف آذانه.

وظنّ صاحبنا أن الأجواء أصبحت مهياً لتدخّل والدي إلى جانب من أجّره أرضه، فصرخ بي متحدياً: أبوك شيخ تسيل، وأهلها يأخذون بقوله ولا يخرجون عن رأيه، ثم لا يملك تأجير أرضه.. وها هنا نفذ صبري، وقلت له: أنت لا تستحق الاحترام، فهذا حقك الذي أخذه منك والدي، ونحن ذاهبون لزراعة أرضنا، وإن كنت ومن معك رجالاً فسنلتقي غداً. وقطعت جهينة قول كل خطيب.

فخرج الرجل وقريبه بوضعية لا يُحسدان عليها، وعاد والدي إلى مضافته دون أن ينهني ولو شاء لفعل، وخرجنا في اليوم الثاني، وزرعنا أرضنا، ثم توقفت عملية بيع الأرض حتى فارق والدي هذه الدنيا رحمه الله رحمةً واسعةً وأسكنه الفردوس الأعلى، وقبل وفاته بأعوام قليلة، أراد أن يعطيني بعض الأرض مقابل أرض كان

قد أعطاهما لإخوتي، فأبيتُ وسامحتهم فيما أخذوه وقضوا بثمنه بعض شؤونهم.

عملتُ ما عملته لوجه الله تعالى.. ومع ذلك فمن طبائع الإنسان أنه يجب أن يُذكر بعمله الصالح بين الناس، لاسيما إذا كان هذا الإنسان غريباً ويظن أن الناس قد نسوه، وشاء الله أن ألتقيَ في ديار الغربية مع أحد أبناء أخواني الذين وُلدوا في غيابي. قال هاني: كان زملائي طلاب الجامعة يسألونني عنك عندما يعلمون بأنني ابن أخيك، وكنت أشعر بالإحراج، ماذا أقول لهم وقد يكون ما عندهم أكثر مما عندي، وكان الحديث عنك بين الأهل والأقرباء من الممنوعات التي قد تعرّض المتحدث والمستمع للسجن.. لا يخفى عليك بأن أهلنا اضطروا لإحراق مكتبتك.. لم أجد من أُلجأ إليه إلا أُمي، وأمه هي ابنة عمي حمزة الذي حدّثكم عنه في بداية مذكراتي. وماذا قالت أمك لك؟!..

أفاض هاني في الحديث، وأنا أستمع إليه بشغف، وهاني كما وجدته [ودوداً هروجا] لا يحتاج لمن يسأله حتى يجيب.

وكان مما قاله: قالت أُمي في بداية حديثها: لولا عمك هذا يا هاني لما كان لنا شبر أرض لا في تسيل ولا في عدوان. لقد أنقذ عمك العائلة، ثم روت له قصتي مع المستأجر بتفاصيلها. سبحان الله كم هي وفيّة هذه المرأة!. قلتُ: وهل يعلم أحد بهذه المسألة غيرك، فأجاب: كلهم يعلمون، وكلهم يدعون لك.

قلت: يكفيني من أهلي هذا، ووصيتي لأبنائي وأبناء إخواني، أن يحافظوا على هذه الأرض كما حافظنا عليها وأن يستثمروها أحسن استثمار، ويسخّروها لطاعة

الله سبحانه وتعالى، فالرجال يأتون بالمال والأرض، ولكن المال لا يأتي بالرجال،
فكونوا يا أبنائي رجالاً.

الظلم الذي لحق بالفلاح:

الفلاح من أكثر طبقات المجتمع التي تعرّضت للظلم سواء كان ذلك في تسيل
أو في ريف سورية كلها، وأخذ هذا الظلم أشكالاً مختلفة:

منها: الإقطاع^(١) كما صار إليه، وليس كما كان في البداية، فصاحب الإقطاع
كان يملك عدداً من القرى يزرعها الفلاحون سكان هذه القرى مقابل نسبة معينة
يأخذها صاحب الأرض، وهو الذي يحدّها، وكان يعامل الفلاحين كما يعامل
السيد عبده بل أسوأ من العبيد، فالأرض التي يزرعها لا يملك شيئاً منها، ثم
لا يجد آخر العام ما يسدّ به مستلزماته، ومستلزمات عائلته من ضروريات الحياة،
ومنها تعليم أبنائه الذين يرتبطون بزراعة هذه الأرض، ويعيشون كما يعيش أبائهم
حياةً يسودها التخلف والأمية، والحكومات المتعاقبة تنتصر دائماً لصاحب الإقطاع
إن وجد حاجةً للاستعانة بها.

وجاء من يستغلّ هذه المشكلة، فكان مثلهم كمن يطفىء النار بالنار، فلا
يزيدها إلا اشتعالاً. أثار هؤلاء الهدّامون فتنةً عمياء عندما قسّموا المواطنين إلى
طبقتين متصارعتين ليس بينهما أدنى لقاء: طبقة الإقطاع والرأسماليين وطبقة العمّال

(١) لم يكن في حوران إقطاع، ولم يعرف أهلها هذه المشكلة.

والفلاحين، وانحازت أحزابهم الاشتراكية إلى الطبقة الثانية شكلاً لا مضموناً، فقادَت انقلابات عسكرية، وسيّطرت على الحكم بالقوة، وكان أول شيء فعلوه احتلال المصانع، وطرد أصحابها، وتنحية كبار الصناعيين الذي قام على سواعدهم اقتصاد بلدانهم، وأحلّوا محلهم أصحاب الرتب العسكرية الذين لا يفهمون إلا لغة القوة وإصدار الأوامر والتعليمات التي تضر ولا تنفع.. تهدم ولا تبني..تفسد ولا تصلح.

وكذلك فعلوا بالأراضي الزراعية عندما انتزعوها من أصحابها الذين أقاموا فيها مشاريع زراعية عملاقة، وأعطوها لمن لم يعطها حقّها من الرعاية والاهتمام، وما اكتفوا بهذا التخريب وإنما أضافوا إليه التلاعب بالأسعار وقت الحصاد، فأصبح سعرُ بعض المنتجات الزراعية أقلّ من أجره جنيهاً ثم نقلها وتسويقها، مما اضطرّ بعض الفلاحين إلى حرق هذه المنتجات في أرضها.

وإذاً: فلقد أصبح الصعاليك الاشتراكيون هم الإقطاعيون والرأسماليون الجدد فاغتنوا غناءً فاحشاً، وأفقروا البلاد والعباد، وأحلّوا قومهم دار البوار في حياتهم الدنيا.

وهذا شأن المسلمين عندما يضعف روح التدين في نفوسهم، ويقعد علماءهم ودعاتهم عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويتقدّم سفاؤهم وزنادقتهم فيتسلّمون زمام الحكم، ويفرضون على المسلمين أموراً ما أنزل الله بها من سلطان، ففي شرع الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ وليس لابن البيضاء على ابن السوداء

فضل إلا بالتقوى أو بعمل صالح. وفي شرع هؤلاء: إنما المواطنون أعداء، والسيادة للاشترائيين، ولا مكان في دولهم للرجعيين [المسلمون] ولا للرأسماليين والاقطاعيين.

ومنها: استغلال الفلاح: كان الفلاح متخلفاً جاهلاً، لا يحسن إدارة أموره، ولا يفكر بوضع ميزانية سنوية مهما كان دخله، وكان يستدين ولا يبالي عند الحاجة. وكان المرابون يراقبون هذا الوضع بدقة وبمتهى الخبث، فهم يشترون المنتجات الزراعية وقت الحصاد بثمن منخفض، ثم يقومون باحتكارها، وفي نهاية العام [أي قبل الحصاد بثلاثة شهور] يلجأ الفلاحون إلى هؤلاء المرابين الذين لا يعترف جشعهم بشيء اسمه القرض الحسن، فيفرضون السعر الذين يريدون، ونسبة الربا التي يريدونها، وليس أمام الفلاح إلا القبول بما يفرضه المرابي عليه، بل هو من فرط جهله أو حاجته لا يفكر كثيراً بوقت السداد ولا بكيفيته.

ويأتيه المرابي يوم الحصاد يطلب السداد، ولا شيء عنده إلا الحصول على المبلغ الذي فرضه على الفلاح، فهو لا يفكر برداءة الموسم، ولا بحاجة أطفال هذا الفلاح المسكين، وقد يمنّ عليه [فيدور] شيئاً من دينه للعام القادم والتدوير يعني أن الفلاح سيدفع ضعف ما أخذه من المرابي أو أكثر، ولن يجد الفلاح من يرحمه، فالسلطة تنصر في النهاية للمرابي، فله أن يحجز على أموال المدين أو أن يطلب الزج به في السجن ويبقى فيه حتى وفاء الدين، وقد لا يجد الفلاح بداً من بيع جزء من أرضه لينقذ نفسه من جشع هذا المرابي، ثم تصبح خسارته مضاعفةً.

هذا الظلم الذي لحق بالفلاح زهده بأرضه التي يكاد مردودها لا يسد رمقه فباعها أو أجزها، ثم راح يبحث عن عمل بسيط في أقرب مدينة من قريته، ولن يتعدى هذا العمل أن يكون شرطياً أو حارساً أو عاملاً أو نحو ذلك، وهذا يعني أنه فرّ من الفقر إلى فقر أشدّ.

كان له في القرية بيتٌ واسعٌ، فصار في المدينة يعيش في كوخ بمكان صار يُسمّى "حزام الفقر"، وحزام الفقر شوّه جمال المدينة، وعقد شؤون الحياة فيها، مما دعا أهل اليسار إلى بناء أحياء جديدة خارج المدينة بعيدة عن الازدحام والفوضى.

ومن أجل إنقاذ اقتصاد بلدنا، وعودة الأمور إلى أفضل مما كانت عليه قبل أن نُبتلى بهذا النظام الباطني الاستبدادي، فإني أدعو أصحاب العقول والأموال إلى وضع خطة تفضي إلى تشجيع كل من يملك أرضاً زراعيةً ويسكن حزام الفقر في المدن الكبيرة بالعودة إلى قراهم، واستثمار أرضهم أفضل استثمار، وليكن شعارنا أن نأكل مما نزرع، وفي أرضنا خير كثير، ولن يتأتى هذا إلا في ظل نظام يحترم حرية المواطن.

الريف في شعر محمود غنيم

أحبت شعر محمود غنيم منذ قرأت رائعته:

ما لي وللنجم يرعاني وأرعاهُ أمسى كلانا يعاف الغمض جفناهُ

وما تركتها حتى حفظتها، ثم صرت أتابع شعره قدر المستطاع، حتى وقفت على قصيدته في وصف المحراث، فقلت وأنا أتأملها بيتاً بيتاً. إن في قول الشاعر:

ما أجمل الأرض والمحراث ينظمها قصيدة ذات تقطيع وأوزان

وصفاً راقياً يصعب إن لم أقل يستحيل أن يتذوقه غير ابن القرية، وفي قوله:

حَسْبُ المزارع إن لم يغشَّ مدرسةً ما في المزارع من علم وعرفان

انحياز للقرية والأرض والزراعة.. ولهذا فقد قادني اهتمامي بالشاعر إلى قراءة سيرة حياته. قالوا: " ولد محمود غنيم عام ١٩٠٢م في قرية مليج، وهي إحدى قرى محافظة المنوفية. وتفتحت عيناه على خضرة الريف وهدوئه ونقائه وقيمه فتأثر بهذه الطبيعة البكر، فكانت بمثابة رافد من روافد الأصالة والانحياز إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، وقد نشأ في أسرة يحترف أفرادها مهنتي الزراعة والتجارة، وهي أكثر المهن شيوعاً في الريف المصري. "

وإذا فالشاعر نشأ في بيئة تشبه بيتي، وتذوق المشاعر التي تذوقتها، وكتبت عنها في أيام القرية، فعبر عنها في قصيدة لم أقف على مثل لها في وصف الريف،

وحياة أهل القرى، وليس هذا مستغرباً على شاعر قال عنه النقاد ما خلاصته: " فكل قصيدة من قصائده أشبه بلوحة رائعة أبدعتها يد صانع، وهيئات أن تجد في بيانه المحكم السبك ما يتجافى عنه الذوق السليم، وتنبو عنه النفس الشاعرة، ومردّ ذلك إلى مكونات الشاعر، من ثقافة واسعة متنوعة، وموهبة فطرية تفاعلت معها أسرار الحياة، فلا عجب وقد تكاملت له عناصر الشاعرية المبدعة أن يهيم في كل واد من أودية الشعر، وأن يصبح بحق دعامةً راسخةً من الدعائم التي ارتفع عليها صرح النهضة الأدبية المعاصرة." (١)

وقال محمود غنيم يصف الريف:

عشقوا الجمال الزائف المجلوبا	وعشقت فيك جمالك الموهوبا
قدّستُ فيك من الطبيعة سرّها	أنعم بشمسك مشرقاً وغروباً
ولقد ذكرتُك فاذكرتُ طفولتي	وتمايمي طوبى لعهدك طوبى
زعموك مرعىً للسّوام وليتهم	زعموك مرعىً للعقول خصيباً
فهي القرائح أنت مصدرٌ وحيها	كم بتّ تُلهمُ شاعراً وخطيباً
حييتُ فيك الثابتين عقائداً	والطاهرين سرائراً وقلوباً
والذاهبات إلى الحقول حواسراً	يمشي العفاف وراءهنّ رقيباً

(١) هذا ما قاله الشاعر عزيز أباطة. انظر ويكيبيديا، الموسوعة الحرّة.

سلبت عذاراك الزهور جمالها فبكت تريد جمالها المسلوبا
 كست الطبيعة وجه أرضك سندساً وحبت نسيماك إذ تضيوع طيبا
 بسطت ظللها الغصون فأينما يمتت خلت سرادقاً منصوبا
 مالت على الماء الغصون كما انحنت أم تقبل طفلها المحبوبا
 وبدا النخيل غصونه فيروزج يحملن من صافي العقيق حبوبا
 رأيت عملاقاً عليه مظلة أو مارداً ملء العيون مهيبا
 يارب ساقية لغير صباية أنت وأجرت دمعها مسكوبا
 وحمامة سمع الفؤاد هتافها فسمعته بين الضلوع مجيبا
 والغيد تغمس في الغدير جزارها فيظل يضحك ملء فيه طروباً
 سربان من بط وبيض خرد يتباريان سباحة ووثوباً
 وترى الجداول في الأصيل كأنها من فضة فيها النضار أذيباً
 يا بدر أنت ابن القرى وأراك في ليل الحواضر إن طلعت غريباً
 نشر السكون على القرى أعلامه فتكاد تسمع للفؤاد وجيباً
 بدت الحياة هناك في ريعانها ولو أنها سارت تدب ديباً
 ولقد ينام القوم ملء العين في زمن يقص مضاجعاً وجنوباً

وهي السعادة كم أوت كوخاً وكم هجرت أشم من القصور رحيبا
قالوا: الحضارة قلت: أسفر وجهها وبدت محاسنها فكُن عيوباً
ما ضرَّ أهل الريف ألا يحفلوا بالطبِّ أو لا يعرفوا (الميكروبا)
ضمنت سلامتهم سهولة عيشهم وصفا هواؤهم فكان طبيبا
رضعوا رحيق السائحات وما دروا غير النَّمير وغيره مشروبا
وسرى شعاع الشمس في أبدانهم فجرى بأوجهم دماً مشبوباً
شمس القرى كست الوجوه نضارةً أرأيت وجهاً في القرى مخضوباً؟
سر في الحقول ترّ الرياضة عندهم فنأ وخطأ عندنا مكتوباً
أكبرت في القروي حدة عزمه وحسبته في صبره "أيوباً"
ورأيت طيب النفس فيه سجيةً ووداده سهل المنال قريباً
فيه ترى الخلق الصريح ولا ترى ضحك النواجذ بالخداعة شيياً
أنا لا أقول: تشينه أميةً كن خيراً لا كاتباً وحسيباً
كم ضل من أهل الحواضر قاريءً فاغتال أعراضاً وشق جيوباً
في الريف فتیان تسيل جباههم عرقاً فيصبح لؤلؤاً مثقوباً
لا فتية مُردُّ بأيدي بضة في كل يوم يلبسون قشيباً

بذلوا "لمصر" فوق ما في وسعهم ورضوا بما دون الكفاف نصيباً
[عن كتاب المختارات الشعرية، للشيخ علي آل ثاني رحمه الله . ٨١٩ / ٢] .

من بدع وخرافات القرية

إذا حلَّ الجهل في بلد قالت له الخرافة: أنا حليفك الدائم، فحاضرنا ومستقبلنا واحد، وعدونا اللدود واحد. إنه العلم ولا شيء غيره. هذه هي حال أهل قريتنا قبل أكثر من ستين عاماً. كانت نسبة الأمية بين الرجال تزيد على ٩٠٪، وكانوا يقولون لنا: قبل جيل واحد، لم يكن في تسيل كلها من يقرأ ويكتب إلا رجل واحد اسمه "خليف"، وعلم خليف لا يتجاوز "فك المكتوب" أي قراءة رسالة وآيات من كتاب الله، وكان بعلمه هذا بين أهل القرية أهم ممن يحمل جائزة "نوبل" اليوم. هذا ما كان عليه الرجال، أما النساء فلا تجد امرأة واحدة تقرأ وتكتب. وعندما فُتحت المدارس. فقد كانت للذكور دون الإناث، بل كانت نسبة من يقبل إرسال أولاده الذكور إلى المدارس من الآباء قليلة جداً، لأنهم لا يستغنون عن أبنائهم في شؤون أرضهم وزراعتهم.

وكما أن أبواب العلم واسعة، فأبواب الخرافة أوسع وأسهل، وسأذكر فيما يلي أهم الخرافات التي شاهدتها في تلك المرحلة:

أولاً: الجن والشياطين والأشباح:

لا بدّ في البداية من ذكر عقيدتي في الجنّ والشياطين: الجنّ والشياطين من مخلوقات الله، ووجودهم ثابت في الكتاب والسنة وإجماع الأمة، وهم مكلفون، كما

قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ (٥٦) الذاريات: ٥٦ (١).

لست عن هذه المخلوقات أتحدث، وإنما أتحدث عن خرافات يُكثِرُ عامّة أهل القرية [بل عامّة كل قرية] من ذكرها حتى أصبحت حقيقةً في أذهان الناس: فعند البئر الفلاني يظهر بين الحين والآخر وليٌّ من أولياء الله لا يؤذي أحداً وقد رآه فلان وفلان، وفي الحارة الفلانية يظهر شيطان رجيم، وقد ضرب فلاناً فصار مجنوناً، بدرة امرأة بلغت الستين من عمرها، ولم تمنعها الشيخوخة من المحافظة على عاداتها في غسل ملابسها عند ساقية ماء تبعد عن منزلها ميلين، ولأمر ما غضب منها الجانّ الشيطاني الذي يسكن الساقية فضربها، ثم جاء الناس فحملوها بعد أن أصبحت مقعدةً وخرساء. أتذكر اليوم الحالة التي كانت عليها فيما تبقى لها من العمر وهي لا تعدو أن تكون جلطةً قويّة.

وما من اصطبل إلا وقد رأى ناس من الناس فيها جنّاً أو شيطاناً أو شبحاً. محمود رأى في قاعة داره عرساً للجنّ، كان طول الواحد منهم لا يزيد عن شبرين وكانوا يدبكون ويغنّون على قريب له اسمه عقلة فحفظ الأغنية وحفظها للناس. عند تل حمد رأى بعضهم شبحاً يخرج في أوقات معيّنة، وقالوا: إنه قتيل خرج ليذكر أهله بأخذ الثأر له!! قصص لا يملّ الناس من ذكرها.. فلماذا ترعبنا أو تعتدي علينا هذه المخلوقات؟!، وما الذي يغيرهم بقريتنا؟!، ولماذا يصرون على الظهور في

(١) انظر شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة لمؤلفه هبة الله بن الحسن بن منصور الطبري

اللالكائي. تحقيق د. أحمد بن سعد بن حمدان الغامدي: ١٢٩١/٤ دار طيبة. الرياض.

ظلمات الليالي، فليخرجوا في وضح النهار، ونقتسم القرية، وليعيش كل طرف بأمان؟!.

كنت عندما أسمع هذه الروايات أسأل نفسي لماذا لا أرى مثل ما يرون؟! ولماذا لا يذكر الرجال المشهود لهم بالصدق أنهم رأوا شيئاً من هذا؟!، فأسارع إلى تكذيب ما أسمعه، ولكن الجانب النفسي في شخصيتي يهزم الجانب العقلي فأشعر بالخوف عندما أجتاز الحارة الفلانية أو البئر الفلاني.

ولي في معمعة الخرافات قصتان فيها شيء من الطرافة:

الأولى: مع والدي. كان رحمه الله كثير السهر في الليل وينام بعض الوقت في النهار، والمشكلة بالنسبة لي أنه يختار غرفةً كانت تُسمّى عندنا [بيت الخرج] لينام فيها، وهي غير صالحة للنوم، هذا من جانب، ومن جانب آخر، ففي ذلك تقييد مزعج لحركة الفتى في ممارسة ألعابه، فأينما تحركت تقول لي الوالدة التي كانت قدوةً صالحةً في طاعة زوجها: انتبه أبوك نائم، لا توقظه.. لا تزعجه، وأنا لا أدري متى يستيقظ والدي من نومه، ولا أستطيع الجلوس مكتوف اليدين خلال هذه المدة المجهولة، فمن طبعي الذي اعتدت عليه كثرة الحركة. إذاً فأنا أمام مشكلة، ولا بدّ من البحث عن حل. فكّرت طويلاً، ثم اهتديت إلى الحل الذي يجب أن يكون سرّياً لا يعلمه أحد من أهلي وبالأخص والدي.

اقتنيت قطعة من البخور، وأشعلتها ثم وضعتها في طاقة قصية من بيت الخرج، وكانت حركتي محفوفةً بالحذر الشديد، وانتظرت ساعةً ثم قلت لأختي الكبيرة

فاطمة رحمها الله: أيقظني أباك حتى لا تفوته صلاة العصر فاستجابت وهي لا تدري أن وراء الأكمة ما وراءها، ثم رحت أراقب المشهد!!.

يقول الراوي: عندما رفع والدي رأسه شمَّ رائحة البخور، ثم التفت إلى الجهة الأخرى، فكانت الرائحة أشدَّ، وهذا يعني أن الغرفة مسكونة، وأن الشيخ الولي الذي يسكن هذه الغرفة يقول له: دع هذا المكان لي، ولن أقبلك شريكاً لي، وإن لم تستجب سيكون لي معك موقف آخر. غادر والدي الغرفة مسرعاً ومدعوراً، ولا أدري هل انتعل حذاءه من شدة خوفه أم لا، ثم لم يعد لينام فيها مرةً أخرى.

صار والدي يتحدَّث للناس عن الوليِّ الشيخ، وما كنا قد سمعنا يومذاك بالوليِّ الفقيه. ووالدي يرحمه الله كان يتحدَّث بصدق عما حدث له، وما سمعته ولو مرة واحدة يتحدَّث عن أشباح رآها. كنت كلما سمعت والدي يتحدَّث عن أسطورة صنعها ابنه وهو دون سنِّ البلوغ أشعر بتأنيب ضمير، فالناس يحترمون والدي، وإذا قال صدِّقوه وها هو الفتى يساهم في ترويج الخرافة، وما كان يريد ذلك، وإنما كان يريد أن يدع والده النوم في هذا المكان ولا شيء آخر. وعندما سقط الحق العام بالتقادم كما يقول رجال القانون، صارحت والدي بما فعلتُه، وبيّنتُ له مقصدي، وقلت له: هذا الوليِّ الذي كنتَ تتحدَّثُ عنه أنا الذي صنعتُه، فابتسم ابتساماً لا يفهم أبعادها إلا هو وابنه.

الثانية: محمد رجل عامي يمتاز بالذكاء والمكر، وعنده دكّان استأجرها من الحاجِّ راجي وينام فيها. محمد [وهذا أول اسمه] جلس ذات مرة في مضافتنا يحدث

روّادها عن صراع مخيف بينه وبين جنّي، لا يدري هل هو رحماني أم شيطاني؟. هذا الجنّي أيقظه من النوم، ونهض مذعوراً فرآه رأي العين، ثم اختفى، وبعد جهد جهيد غفت عينه فأيقظه هذا الجنّي بشيء من الغلظة، ثم رآه يتجول داخل الدكان.

كان محمد عابس الوجه، مقطّب الجبين وهو يتحدث، وكان الناس يصغون لروايته وكأن على رؤوسهم الطير. ومضى محمد يسرد فصولاً من صراعه مع هذا المخلوق فقال: كان يأتيني في الأسبوع مرتين ثم تضاعفت أوقات زيارته، وصار أكثر شدة في خطابه لي، وذات مرة أيقظني بغلظة ثم شعرت بصوت انفجار حتى ظننت أن البناء أطبق عليّ وقال بصوت مجلجل: محمد لا مقام لك في هذا المكان إنه سكن لي ولعائلي، وإني أشفق عليك، فاخرج قبل أن يأتيك وقت لا ينفعك فيه الندم.

وعندما انتهى محمد من عرض روايته التي كان بارعاً في حبكها، كما كان أكثر براعةً في أدائها، أمطره الناس بسيل من الأسئلة والتعليقات:

فمن قائل من يصبر صبرك يا محمد؟، وكيف تعود إلى النوم ويغمض لك جفن؟، والله هذه هي الشجاعة!!، فيجيب بتواضع: مكره أخاك لا بطل، ماذا أفعل؟.

ومن قائل: كيف كان شكله؟!

فيقول: مثل أيّ رجل، لكنه ضخّم الجثة، قويّ البنية. صرّت أعرفه، ولولا أن شكله يثير الرعب لقلت لكم أننا أصبحنا أصدقاء.

ومن قائل: هؤلاء أصدقاء!! محمد إلى أين أنت ذاهب؟ أنصحك أن تسارع إلى ترك هذا الدكان وتبحث عن مكان آخر. لا تُعرض نفسك للهلاك.

فيرد: أين أذهب إنها مورد رزقي، ويصعب أن ينتقل زبائني معي لو اخترت مكاناً آخر.

انفضّ السامري، وأخذ الناس يغادرون المضافة وعندما همّ محمد بالخروج استبقيته، وكان بيننا شيء من الصداقة، وقلت له عندما انفردت به:

محمد أنت كذاب فمن أين جئت بهذه الرواية التي ليس لها أول من آخر، ولماذا؟!.

قال: عيب عليك أنا أكبر منك، فكيف تخاطبني بهذه الطريقة؟.

قلت: عيب عليّ لو خاطبتك بهذه الطريقة بين الناس، والفارق بيني وبينك في السن لا يتجاوز ثلاث سنين، وأضفتُ بلغة حاسمة: قل لي لماذا اخترعت هذه الأسطورة ولماذا تتحدّث بها بين الناس؟، ولك عليّ أن يبقى الأمر سرّاً بيني وبينك.

قال بعد أن اطمأنّ للوعد الذي وعدته: عقد استتجاري للدكان ينتهي بعد شهر، وأريد تنفير الناس من هذا المكان لأفرض على الحاجّ راجي المبلغ الذي أريد وسوف لن يجد أحداً غيري يصارع هذا الجنّي!!.

لقد التزمت بما وعدت به محمداً، وتركت الناس ينشرون حكاية صراع محمد

مع الجنّي في كل مكان.

ثانياً: تعظيم القبور:

من العادات المستنكرة زيارة النساء للقبور يوم كل خميس، ففي صباح هذا اليوم تحمل المرأة الشاي أو القهوة، وتجلس عند قبر قريبها ثم يجلسن على شكل مجموعات، يشربن الشاي والقهوة، ويخضن في أحاديث الغيبة والنميمة دون أدنى خوف من الله سبحانه وتعالى. وقد توزع المرأة صدقات من المال القليل أو الطعام على الفقراء، وإذا جاءت الزيارة في الأيام القليلة التي تلي الوفاة، فسيري من يغشى هذه الأمكنة مجموعة من قريات المتوفى جالسات حول قبره يبكين وينحن بصوت مرتفع، وقد تتولى النواح من تتقنه منهن، بكلمات مسجوعة ومؤثرة، والبقية يجنبها بكاء يناسب نغمة النواح.

وكانوا يشدون الرحال إلى قبور الصالحين، ويسألونهم قضاء حوائجهم، وإذا أراد أحدهم أن يدعو لأخيه دعوةً صالحة يقول: الله يطعمك زيارة الرسول أو قبر الرسول ﷺ كناية عن الحج.

ثالثاً: سوق الدجالين:

كان سوق الدجالين مزدهراً، ويقصدهم الناس من أمكنة بعيدة، وكان دخلهم جيداً. وهؤلاء جهلة لا يخشون الله سبحانه وتعالى، ولا يتورعون عن فعل أي منكر يقدرون عليه. فهذا مشهور بكتابة "الحُجُب"، والثاني يتعاطى السحر، وسحره لا يخطيء، والثالث ولي من أولياء الله الكبار، مع أن ظاهر حاله نقيض للتدين فضلاً

عن الولاية، فيأتيك الجواب "الله يضع سره في أضعف خلقه" إياك أن تستصغر الناس، ففلان الذي احتقره واعتدى عليه عاقبه الله بكذا وكذا، ثم يمضي المدافعون عن هذا الولي: ألم تسمع من فلان وفلان أنه كان بينهم في يوم وقفة الحج، وأخبرهم أنه سيذهب إلى عرفات بعد ساعات، فحملوه طبخةً إلى قريبتهم فوصلت إليه في عرفة ساخنة. والرابع [مخاوي] الجن الذي يزعم بأن أخاه الجنّي يأتيه بعلم ما يبحث عنه السائل كالبحث عما افتقده أو عمن سرق دابته أو نحو ذلك. ولقد شهدت شيئاً من هذا. رأيت المنجم أو العراف أو الكاهن [لا أدري ماذا أقول عنه] ينظر إلى الأرض ثم يخطّ عليها خطوطاً يتمتم بكلمات لم أحفظ منها إلا "كتوم السر، قليل الهرج"، ثم يخاطب صاحب الحاجة بالأمر الذي جاء من أجله، ولست أدري هل فعلاً كان يخاطب شيطانه أم أنه كان يمثل وكلاهما ضلال وهتان عظيم.

وكان كل من يصيبه مرض مهمل كان المرض: حمى، قرحة، فشل كلوي، سرطان وغير ذلك يأخذه أهله إلى إحدى هذه العيادات^(١)، وأقول عيادات تجاوزاً، ويفحصه الشيخ الخرافي وبعد عدة جلسات، يخبر أهله بنوعية المرض: عين حاسد، مسّ من جنّ، سحر، وغير ذلك، ويحدد له الدواء الذي يراه ناجعاً كأن يكون قراءة، أو مسحوقاً من نباتات جافة ثم يحتفظ بسرية الدواء.. وقد تختلف الحاشية مع الشيخ المطبّب، فينشرون الفضائح.

(١) وقد تكون هذه التي أسميتها عيادات في قرينتنا، أو في قرى مجاورة، أو في مدن فيقصدتها

أهل المرضى رغم بعدها.

وخلاصة القول:

هذه هي حال الناس في قريننا، وفي الريف كله، بل وهذا ما كان عليه معظم أهل المدن، ثم حدث تغيير ملحوظ، فالشياطين والأشباح اختفت، ولم يعد الناس يتحدثون عنها كما كان ذلك من قبل، وأسواق الدجالين والمشعوذين أصبحت في بوار، وصار المرضى يذهبون إلى الأطباء الذين تزايد عددهم، ولمس المرضى أثرهم الفعّال في العلاج، فتضاعفت الثقة بهم.. وصرنا نعلم أن للطب اختصاصات: جراحة، باطنية، صدرية، عينية، أنف وأذن وحنجرة وغير ذلك، وكنا نظن أن الطبيب يعالج جميع الأمراض.. وصار من يضطر منا إلى خلع ضرسه لا يذهب إلى صاحب دكان، فيخلعه [بكماشة حديدية] ويصاحب ذلك ألم لا تحتمله الجبال، وإنما يذهب إلى طبيب الأسنان، فيجلسه على كرسي وثير، ويُحدّر موضع الضرس، ثم يخلعه دون أن يشعر المريض بأي ألم.. فكيف حدث هذا التغيير؟!.

إني لا أقلل من أهمية العلم، وقد قلت من قبل إن العلم أكبر وأخطر عدو للجهل والخرافة، ولقد انتشر التعليم في المدن والأرياف، وصار الطلبة الذين يحملون مختلف أنواع الشهادات: الابتدائية، والإعدادية، والثانوية، والجامعية، يفكرون بعقلية تختلف عن عقلية آبائهم.

ولا أقلل كذلك من دور وسائل الإعلام المرئية والسمعية. لقد دخلت هذه البيوت المقفلة، وصار يسمعها ويراهها: الرجال، والنساء، والصغير، والكبير، وصار يقال في هذه البرامج ما كان يُعتبر بالأمس من المنوعات، بل من أشدّ

المنكرات، وهو ليس كذلك، ولم يعد الآباء الأميون هم مصدر التلقي في أسرهم. لا أقلل من شأن هذا ولا ذاك، ولكن التغيير الجذري، الذي هز العالم الإسلامي في العصر الحديث^(١)، وهزم الشيطان وحزبه، وهتك أوكار الخرافة والخرافيين، هو الذي أحدثته دعوة الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قبل ثلاثة قرون، وعليها تربت أجيال وأجيال، وتأثر بهذه الدعوة المباركة خلق كثير من مختلف أرجاء الأرض، وحاربها خلق كثير، كان من بينهم علماء كبار وصغار، ولا غرابة في ذلك فقد لا تصاحب العالم هداية الله سبحانه وتعالى، ولأمر يريد الله أصبحت بلاد الحرمين منذ أوائل ستينيات القرن الماضي مقصداً للتجار، والمدرسين، والعمّال، والطلاب، ويضاف إلى هؤلاء الحجاج والمعتمرون، ونهل هؤلاء من معين هذه الدعوة، وتأثروا بها أشد التأثر، وأدركوا أن ما كان يقال عن الوهابية افتراءات لا أصل لها.

وعندما عادوا إلى بلدانهم كانوا حريصين على تعليم أهليهم ما تعلموه، فإذا رأوا قرية لهم تزور كل خميس القبور شرحوا لها حديث رسول الله ﷺ: "لعن الله زائرات القبور"، وحديث رسول الله ﷺ: "اللهم لا تجعل قبوري وثناً يُعبد". وإذا ذكر السحرة بينوا للذين يلتقون بهم معنى قوله جلّ وعلا: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾^(٦٩) طه: ٦٩. ومعاني حديث رسول الله ﷺ: "اجتنبوا السبع

(١) فليتبه دعاة العدل والإنصاف إلى قولي: "في العصر الحديث"، وليحذروا من الذين

يصطادون في الماء العكر.

الموبقات " وإحداهنَّ السَّحر .

وإذا سمع الناس يتحدثون عن الكهَّان والعرَّافين والمنجِّمين قال لهم: إن الغيب لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى. قال تعالى: ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يُعَلِّمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ [الأَنْعَام: ٥٩]. وقال ﷺ: "من أتى عرَّافاً فسأله عن شيء فصدَّقه، لم تُقبل له صلاةٌ أربعين يوماً".

ضاق أصحاب الأهواء ذرعاً من دعاة التوحيد الجُدِّد فقالوا لهم: هل كان ينقصنا الفكر الوهَّابي؟!، ولستم أنتم وشيوخكم النجديون أوسع علماً ومعرفةً من علمائنا، ولم نسمع منهم شيئاً من هذه الأمور التي تنشطون في الدعوة لها، فكان ردُّهم: نحن نقول لكم قال الله وقال رسوله ﷺ، وقال رجال خير القرون، وهذه النصوص الواجبة الاتباع هي أقدم من شيوخكم، ومن شيوخ الدعوة السلفية، فلماذا تجاهلها شيوخكم، وهم يعرفون أنها من فروض الأعيان؟!.

**رحلة طلب العلم
البدايات**

نبذة عن التعليم في حوران

كانت حوران ومنذ بضعة قرون تغطّ في دياجير من الجهل والتخلف، وهذه هي حال الريف بوجه عام، فالزراعة حسب الطرق القديمة والعلم ضدان لا يجتمعان، وذلك لأن الفلاح الذي يمضي سحابة نهاره في عمل شاق لا يقوى عليه إلا أولو العزم من الرجال، يعود آخر النهار إلى منزله وقد أضناه التعب، فيحتاج إلى بعض الوقت لإراحة جسمه، ثم يأوي إلى فراشه مبكراً ليصحو مبكراً ثم ينطلق إلى عمله. إن رجلاً هذا شأنه لن يجد وقتاً لطلب العلم لو كان راغباً فيه.

ففي عام ١٩٠٦م كتب مفتي حماة الشيخ محمد الحريري رحمه الله عن هجرة آل الحريري القسرية من العراق إلى الشام، فكان مما قاله:

".. وحيث أن أقاربنا وأبناء عمنا السادات الحريرية والرفاعية منذ قدموا من العراق، وتوطنوا البلاد الشامية سكن أكثرهم القرى، واشتغلوا بالفلاحة والزراعة، تأميناً لمعيشتهم، وسداً للاحتياجات الضرورية، حيث لحقهم العوز والفقر بعد تركهم وطنهم الأصلي والهجرة منه هرباً من قتال التتار في أيام هلاكوخان، كما يظهر من مطالعة التاريخ، فاشتغلوا بهمّ المعاش، ولم يتيسر لهم بعد هذا طلب العلم، حتى فات أكثرهم تعلم القرآن إلا ما ندر، وتقادم الزمن على هذه السيرة فأصبحوا كما تراهم في ديار حوران وغيرها على حالة يرثى لها من الجهل

الذي أحاط بهم إحاطة السوار بالمعصم".^(١)

ربط مفتي حمّاه رحمه الله بين فلاحه الأرض وما يصاحبها من أعمال شاقة وبين الجهل، وقول هذا العالم الخبير كان قبل مائة عام ويزيد، وأشار فيه إلى واقع الحال قبل عدة قرون. وقد يحتج المعارض لقوله وقولنا بأن حوران قدّمت على مدار التاريخ أئمة كباراً في التفسير والحديث والفقه والتاريخ من أمثال الإمام النووي، والعلامة ابن قيم الجوزية، والحافظ ابن كثير، والإمام أبي الحسن علي بن أبي العز الأذري، وغيرهم وغيرهم، والجواب إن هؤلاء العلماء الكبار رحمهم الله درسوا ودرّسوا وبرزوا في دمشق، وليس في حوران، ولم يشتغلوا بالفلاحة والزراعة.

هناك سؤال يُثار في كتب العقائد: متى يكون المسلم معذوراً بجهله؟، والجواب كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "قد يكون الرجل حديث عهد بإسلام أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحده وما يجحده حتى تقوم عليه الحجّة" وبمثل قول ابن تيمية قال جمهور علماء السنّة في القديم والحديث. والقرى الصغيرة النائية قريبة الشبه بالبادية البعيدة، أما القرى الأخرى فهي حالة وسط بين المدينة والبادية، وكان يكثر فيها الجهل والإعذار بالجهل، أما اليوم فقد اختلفت الصورة، وأصبحت بعض القرى بلداناً، ولا يُعذر فيها أحد بجهله في الفرائض الأربعة، وكذلك من جحد تحريم شيء من المحرّمات الظاهرة المتواتر تحريمها كالفواحش

(١) أنساب السادة الحريرية، دراسة وتحقيق بشير زين العابدين، ص: ١١، دار الجاية.

والظلم والكذب والخمر ونحو ذلك.^(١)

وفي العهد العثماني انتشرت الكتاتيب في المدن والأرياف، وكان أكثر القائمين على هذه الكتاتيب في الأرياف يحتاجون لمن يعلمهم، وفاقد الشيء لا يعطيه. وكانت هناك مدارس بسيطة في كبريات المدن، ويضاف إلى هذا وذاك فقد كانت الدولة العثمانية تختار قلة قليلة من أبناء العشائر وكبار الوجهاء وتدرّسهم في معاهدها في اسطنبول ونسبة هؤلاء لا تبلغ واحداً من كل ألف من المواطنين، وهذا فضلاً عن اعتذار أهل بعض من يتم اختيارهم، لأن السفر إلى اسطنبول والإقامة فيها يعتبره بعض العرب في تلك الأيام نوعاً من أنواع النفي.

وفي العهد الذي يُسمى بالوطني أو الفيصلي الذي بدأ عام ١٩١٨م كان هناك اهتمام بالغ في التعليم في المدن والأرياف، وممن أبلوا بلاءً حسناً في هذا المجال: محمد كرد علي وزير المعارف، ومؤسس ورئيس مجمع اللغة العربية في دمشق، والذي حبّب لكرد علي هذا العمل النفيس أستاذه الشيخ طاهر الجزائري رحمه الله الذي كان رائداً في فتح المدارس، وتبديد ظلمات الجهل والتخلف.

وساعد كرد علي وشدّ أزره في حوران عوض العامري رحمه الله، وإذا كان محمد كرد علي مشهوراً وكتب عنه الكثير، فمن حق العامري علينا في حوران التعريف به: عوض بن طالب العامري: [١٨٩٤-١٩٦٥] من أبناء حوران، ومن مدينة

(١) ليراجع من يشاء كتب العقائد مثل: شرح العقيدة الطحاوية، وفتح المجيد، وفتاوى شيخ

جاسم. درس في المدرسة السلطانية بدمشق، ثم انتقل إلى اسطنبول، وتخرّج من مدارسها، ثم انتقل إلى جامعة بودابست التابعة للإمبراطورية النمساوية في ذلك الوقت. وتخرّج عام ١٩١٩م في اختصاص الزراعة -مهندساً زراعياً-، وعمل في حقل التعليم من عام ١٩١٩م وحتى عام ١٩٤٩م، وكان مديراً للمعارف في حوران ودير الزور، ودمشق، وعمل على إشادة العديد من المدارس في هذه المحافظات، وعمل مديراً عاماً للعشائر في سورية، ثم محافظاً لدير الزور. تُوفي عام ١٩٦٥م، ودفن في مدينة جاسم نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

ومن عمل مدرساً في حوران عام ١٩٢٠م الدكتور الطيب الأديب صبحي أبو غنيمة الذي كان مدرساً في قرية جباب، وكتب في مذكراته شيئاً ما عن هذه المرحلة، وجميل القربي الذي فتح مدرسةً في قرية محجة، وكان من طلابه خالي يوسف حامد زين العابدين رحمه الله ورحم جميل القربي، وصبحي أبو غنيمة.

كان عدد المدارس التي نجح العامري في فتحها قليلاً جداً بسبب إعراض الناس عنها، وعدم قناعتهم بجداولها، ففي قريتنا [تسيل] لم تُفتح مدرسة إلا في عام [١٩٣٤-١٩٣٥]، وطالما سمعت الناس يتحدثون عن الأستاذ [وحيد] وأظنه عمل في هذه المدرسة أكثر من عام، وكان أهل القرية يثنون عليه، ويشيدون باستقامته في عمله، وكان أخي الكبير هاشم من طلابه رحم الله أخي هاشم وأستاذه وحيداً. ذهب وحيد ولم يأت أحد بعده إلا في آخر عام ١٩٤٦م، والمدرسة حقيقة لم تبدأ إلا عام ١٩٤٧م وكنت من طلابها، واستمرت حتى يومنا هذا.

رحلة طلب العلم - البدايات

عندما بلغت السابعة أرسلني والدي رحمه الله إلى "الكتاب"، فوجدت نفسي في عالم يختلف كل الاختلاف عن عالم البيت والمضافة والحارة، كنت حراً طليقاً، أتحرّك كما أشاء، وأعبت بما أشاء، فأصبحت مقيداً خائفاً، حولي طلبة من جميع أحياء القرية، تبدأ قراءتهم للقرآن الكريم بصوت مرتفع مع تحريك رؤوسهم للأمام والخلف منذ الصباح، ولا يتوقفون إلا عند الانصراف، وكلُّ له نعمة خاصة في القراءة، فإذا غفل عنهم الأستاذ راحوا يعبثون مع استمرارهم في تحريك رؤوسهم. الأستاذ أعرج، يمشي بصعوبة وأمامه عصا غليظة وطويلة، فإذا أراد أن يعاقب طالباً أصدر أوامره لفريق من الطلبة الكبار يستخدمهم لهذا الغرض، فيأتون بالطالب المذنب فيجلس بين يديه خائفاً مذعوراً إلا أن الشيخ مفلح يُرهب بالتهديد أكثر من استخدامه لعصاه.

النظافة عرفت الفصل وما فيه، فنأت بنفسها عنه وقالت: لن أقرب منه فضلاً عن أن أدخله، وكيف تدخله وليس فيه شيء اسمه تهوية، والحُصُر المهترئة تنبعث منها روائح كريهة، وأشدّ الأشياء قذارةً اللوح المعدني "التنك" الذي كان الشيخ يكتب عليه بحبر الكويبا الحروف الأبجدية ومبادئ التعليم العامة لتتعلّمها، فإذا تعلمنا غسلنا اللوح ليكتب لنا شيئاً جديداً. كان من المفترض أن يُغسل اللوح بالماء، ولكن أين الماء؟ فلا يجد الطالب بدءاً من مسحه ببصاقه، وبطرف ثوبه الذي يلبسه، ولهذا فأيدي الطلبة وثيابهم ملطّخة دائماً بحبر الكويبا، بل يحرص بعضهم

على هذه الظاهرة لـيتميز بها عن غيره. شيء آخر لا أنساه: كان الطلبة في الفسحة أثناء الدراسة ينطلقون إلى بقعة ضيقة من الأرض لا تبعد كثيراً عن الكتاب فيقضون فيها حاجاتهم الثقيلة والخفيفة [أي يتبرّزون] دون ساتر، وكل يرى الآخر، ولـيتصوّر أبناؤنا اليوم كيف كنا نعيش!!.

أنا لا أزعـم بأنـي كنت من عالم غير عالم القرية، ولكن القرية لم تكن نوعاً واحداً، فكيف تجمع في غرفة ضيقة كل هذه الأنواع رغم ما فيها من تناقضات؟! لم أستطع التعايش مع أجواء الكتاب، كرهته منذ اليوم الأول، ورحت أستخدم كل أنواع الحيل من أجل إقناع الوالد بإعفائي من الدراسة في هذا الكتاب.. وأخيراً أعفيت نفسي فاضطر والدي إلى إعفائي. وهنا قد يقول قائل: وماذا تريد غير حفظ كتاب الله؟، فأجيب من جهة أنت تخاطب طفلاً في مرحلة معينة، ومن جهة ثانية، لم يكن الشيخ نفسه يحفظ كتاب الله، ولم نكن نعرف شيئاً اسمه الترتيل، فكتاب قريتنا ومعظم القرى يختلف عن كتاتيب مصر أو كتاتيب المدن في سورية.

أرسلني والدي إلى كتاب آخر، فكان الشيخ عبد الرحمن لا يختلف كثيراً عن الشيخ مفلح، وكذلك الطلاب وكرّرت مع الثاني ما فعلته مع الأول، وكرّر الوالد محاولاته، ومضى على ذلك حين من الزمن إلى أن وجدت نفسي أتسكّع بين البيت والمضافة والحارة، فلا دراسة ولا تدريس، والبقاء على هذا الحال قد يحولني إلى رجل أمي لا أقرأ ولا أكتب، ومثلي في ذلك مثل من سبقني من أبناء قومي، ولكن الله سبحانه وتعالى أراد أمراً آخر ففي عام ١٩٤٧م فتحت الدولة أول مدرسة،

وكنت أحد طلابها، وكان أستاذنا عبد الرحمن ...، وفهمت فيما بعد أنه أحد أبناء حوران.

المدرسة تتألف من ثلاث غرف، كل شيء أنظف من الكتاب، لم نعد نجلس على حُصُر مهترئة، بل صرنا نجلس على طاولة خشبية، ونملك كتباً مدرسية، ودفاتر نكتب عليها. الطلبة يجلسون في غرفة واحدة، وهم صنفان: الشعبة، والأول، وعددنا أقل من عشرين. كنت طالباً في الشعبة، وهو الصف الذي يسبق الأول. لم أعد أسمع بهذا الاسم. ومن أهم ذكرياتي:

الأولى: اختارني الأستاذ^(١) سيّافاً، وإن شئت فقولوا جلاداً، ولكن العصا كانت بديلاً للسيف، لماذا اختارني الأستاذ لهذه المهمة مع أني كنت أصغر الطلبة سنّاً وحجماً؟! لا أدري، كان الأستاذ إذا أراد أن يعاقب الطلبة - وكثيراً ما يفعل - يطلبني ويعطيني عصاته، ويحدّد لي عدد الضربات لكل طالب، وكنت أنفّذ أوامره بحذافيرها. وحدث ذات مرة أني عندما وصلت في الضرب لأخي عبد الغني رحمه الله، رقّ قلبي فتهاونت في ضربه، وكان الأستاذ يرقب المشهد، فأمر شقيقي أن يضربني، فضربني ضرباً مُبرّحاً أشفى صدره وصدور الطلبة من هذا الجزار.

وحدث مرة أخرى أن الأستاذ أراد أن يعاقب الطالب يوسف بسبب كسله، فأمرني أن أمسكه من أذنه، وأذهب به لأبيه، ففعلت، وانقاد الطالب للأوامر، وسرت به طوال الطريق إلى دكان والده، وما أن رأى أبو يوسف هذا المشهد حتى

(١) كانوا يسمونه الخجا وهي كلمة تركية تعني الأستاذ.

جُنَّ جنونه، وهجم علينا بعضا مثل جذع شجرة، ووليت هارباً مذعوراً لا ألوي على شيء، وكنت أجيد الركض، ولا أتذكر هل عدت إلى المدرسة أم إلى البيت.

الثانية: كنا حديثي عهد بالاستقلال، وكان الأستاذ شديد الولاء لوطنه، ويريد أن يكون طلابه مثله، ومن أجل ذلك كان يعلمنا ويحفظنا النشيد الوطني، وفي كل يوم درس نشيد، وقد تطول مدته أكثر من ساعة، فإذا جاء درس النشيد، كان يدخلنا إلى غرفة كبيرة كانت من قبل اصطفاً، ونبدأ:

حماة الديار عليكم سلام أبت أن تذلل النفوس الكرام

عرين العروبة بيت حرام وعرش الشموس حمى لا يضام

فلا يُعجب الأستاذ صوتنا، ويعاقبنا جميعاً بعصاه التي لا تعرف الرحمة، ثم يأمرنا بالاستمرار، ويوقفنا ثم يعود إلى الضرب مرات ومرات حتى نكره الديار وحماها، ثم نتقل إلى نشيد نحن الشباب:

نحن الشباب لنا الغد ومجدنا المخلد نحن الشباب

شعارنا على الزمن عاش الوطن عاش الوطن

نحن الشباب

الدين في قلوبنا والنور في عيوننا

والحق في يميننا والنار في جبيننا

نحن الشباب

لنا العراق والشام
ومصر والبيت الحرام
نمشي إلى الموت الزؤام
إلى الأمام إلى الأمام

النشيد الوطني:

في سبيل المجد والأوطان نحيا ونبيد
كلنا ذو همّة شفاء جبار عنيد
لا تطيق السادة الأحرار أطواق الحديد
إن عيش الذل والإرهاق أولى بالعبيد
لا نهاب الزمان إن سقانا المحن
في سبيل الوطن كم قتل شهيد
هذه أوطاننا مثوى الجدود الأكرمين
وثرها مهبط الإلهام والوحي الأمين
ورباها جنة فتانة للناظرين
كل شبر من ثراها دونه جبل الوريد
قد صبرنا فإذا بالصبر لا يجدي هدى
ووقفنا اليوم كالأبطال في وجه العدى
ندفع الضيم ونبني للعلا صرحاً مجيد

نشيد العروبة:

نحن أبناء الكفاة العرب
ما ترى فينا سوى حر أبي
نحن في الهيحاء آساد الشرى
يشهد التاريخ أن لن نقهرا
وإذا متنا بعثنا في الورى
سيرة العز وعهد الشمم

إننا دون الورى نرعى العهود إننا كالروح في جسم الوجود
 كتبت أفعالنا صكّ الخلود فأمنا من عوادي العدم
 كتب الله لنا أن ننصرا لنريهم كيف حفظ الذمم

نشيد بلاد العرب:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان
 ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان
 فلا حدّ يباعدنا ولا دين يفترقنا
 لسان الضاد يجمعنا بغسان وعدنان
 لنا مدينة سلفت سنحميمها وإن دُثرت
 فهبّوا يا بني قومي إلى العليا بالعلم
 وغنّوا يا بني أمي بلاد العرب أوطاني

على كل حرف من هذه الأناشيد ضربنا الأستاذ عدة ضربات، ولا أزال أذكر جيداً عندما وصلنا إلى قول: "نحن الشباب". أصبح لون أيدينا أحمر بسبب سوء أدائنا، وعدم إعطائنا المدّحقه في قولنا "الشباب"، وليتذكر القاريء الكريم أننا في صف أول إبتدائي، وصف شعبة [أي صف تمهيدي للصف الأول]، ولسنا طلاب معهد للفنون الجميلة، والأستاذ ليس مدرساً للموسيقى، ولم يشتهر بصوته

الجميل، والذي علمناه فيما بعد أنه من أسرة محافظة، فوالده إمام وخطيب مسجد من مساجد دمشق، والأسرة من عشائر حوران، والأستاذ رحمه الله ملتزم بأعراف أسرته، فماذا كان يريد من درس النشيد الذي حوِّله إلى حصة جلد، وهل كان يدرك معاني العزّة التي تشير إليها هذه الأناشيد؟! وهل كان الأستاذ يدرك أيضاً أن التعليم يتعارض مع الضرب المبرّح والإذلال؟! لا أدري، وكل الذي أدريه أنني لا أسمع اليوم هذه الأناشيد إلا وأتذكر بمرارة ماذا كان هذا الأستاذ يفعل بنا؟!.

ثالثاً: كان للأستاذ هيبة، وكنا نخشاه أشدّ الخشية داخل المدرسة وخارجها، فإذا كنا نلعب في الحارة، ومرّ الأستاذ تتعالى الهمسات: جاء الأستاذ.. جاء الأستاذ، أصابنا الهلع، وتسألنا إلى منازلنا كالقطط، ولا يحتاج الأمر إلى المرور الفعلي للأستاذ، فيكفي أن يكذب أحدهم ويقول: جاء الأستاذ حتى يدبّ الخوف في أوصالنا، ولم يكن هذا حالنا مع الأستاذ عبد الرحمن وحده، بل مع جميع الأساتذة في المرحلة الابتدائية.

أما الأستاذ عبد الرحمن فمن جهة كان مجرد ذكره يرعبنا، ومن جهة أخرى فقد كنا نكرهه، ومما أذكره أنه تأخر عن المدرسة بعد عطلة الربيع، وسرت إشاعة مفادها أنه بينما كان قادماً من نوى إلى تسيل اعترضه الضبع وأكله، ففرحنا لهذا الخبر، وتمنينا للضبع الصحة والعافية بعد هذه الوجبة الدسمة، ولكن لم تطل فرحتنا، فتبيّن لنا كذب الإشاعة، فجاء الأستاذ وعدنا إلى ما كنا عليه، وفي آخر عام ١٩٤٧م، ذهب الأستاذ ولم يعد، ولم تذهب ذكره في نفوسنا.. وتمرّ الأيام، ويمرّ

علينا عشرات الأساتذة، وتفاجئنا أخبار لم نكن نبحت عنها ففي ذات يوم من عام ١٩٦٢م ذهبنا إلى مستشفى المواساة لعيادة مريض من أصحابنا، وقبل وصولنا إليه أبصرنا شيخاً معمماً يقف بحزن إلى جانب مريض له، فسلم عليه زميلنا أبو وائل أحمد أبو نبوت وكان يعرفه، وفعلنا ما فعله أبو وائل رحمه الله ثم علمنا أن المريض ابنه عبد الرحمن...!! إنه أستاذنا عام ١٩٤٧م، وكان في حالة يرثى لها، وما شعر المريض أبداً بوقوفنا إلى جانبه ولا بسلامنا عليه، ثم علمنا فيما بعد أنه فارق الحياة وهو لا يزال في سن الشباب. فسبحان الله على هذا المشهد الذي رأيته. إنه نقيض المشهد الذي كان عام ١٩٤٧م، وبالأخص في درس النشيد، وجلّ الله القائل:

﴿وَحُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٨).

وفي عام ١٩٤٨م جاءنا الأستاذ طالب... وهو من أهل حوران، واستأجر دكاناً، ثم قسّم الطلبة ثلاثة أقسام، أول، وثاني، وثالث، ووضعني في الصف الثاني، واختفى صف الشعبة وانضم إلينا طلبة من قرية عدوان، وكان عددهم ثلاثة، واحتوتنا جميعاً هذه الغرفة، حيث لم يكن يتجاوز عددنا العشرين. ويقسّم الأستاذ درسه إلى ثلاثة أقسام، وأحياناً يكون الدرس للجميع.

الأستاذ طالب كان من أسوأ أساتذة المرحلة الابتدائية خلقاً وديناً، وسمعت أنه تاب إلى الله في أواخر أيام عمره فأسأل الله تعالى له الرحمة. ولي معه قصة لا تخلو من غرابة في تلك الأيام. لقد اشتكى مني الطالب فواز وقال: إني ضربته وأخذ بيكي بكاءً رقيقاً له قلب الأستاذ. أنا كنت أعتقد أنني ما صنعت شيئاً يستحق هذا البكاء،

ويبدو أن الظالم لا يشعر بما فعله، فهو يظن أن الحق دائماً معه، ويلوم الناس على شكواهم منه. أمرني الأستاذ بالوقوف إلى جانب الحائط مع رفع اليد والرجل، كيف أفعل هذا والطلبة ينظرون إلي؟! إنه موقف ذليل لا أرضاه لنفسي بحال من الأحوال، فرفضت، واتجه الأستاذ نحوي ليضربني فقفزت من المدرسة إلى الشارع، وأمطرت الأستاذ ومدرسته بوابل من الحجارة، فتركتني الأستاذ وشأني حتى نالني التعب، فقال لي: أنت مطرود، وليس لك مدرسة بعد الآن!!.

مطرود من المدرسة!! أين أذهب بعد الآن؟!، وماذا سيفعل والدي بي؟! كان بوسعي تنفيذ ما أمر به الأستاذ، ولكن كيف أقبل مثل هذا الذل؟! كنت أمشي وأنا في طريقي إلى البيت وكأني لا أمشي، ماذا أقول لوالدي، بعد رفضي للكتاب... وقبل وصولي إلى البيت جاءني الفرج من حيث لا أحسب. سبحانك يارب.. جاءني ابن عمي ناجي الذي يحبني أشد الحب، ويقف إلى جانبي في كل أمر دون أن يتساءل هل الحق معي أو علي؟! ابن عمي ناجي كان شيخاً لتسيل، وكان للشيخ سلطان لا يُردّ. قال لي: لماذا أنت هنا، أين المدرسة؟!

فرويت له قصتي مع المدرس من أولها لآخرها، ثم ختمتها بقولي: هل تريدني أن أكون ذليلاً من أجل ابن "الهمطي" ^(١)؟! فما كان منه إلا أخذني من يدي برفق ومحبة، ثم قفل بي عائداً حتى لا يراني والدي، ثم وجدت نفسي في بيت الأستاذ، فطيب خاطره، وترجّاه أن يقبل جاهته، ويعيد هذا التلميذ لصفه، وهو يتكفل أن

(١) لقب والد فوزان في تسيل.

لا تتكرر هذه الغلطة. رفض الأستاذ الجاهة، وروى لابن عمي ماذا فعل هذا الولد الشقي به، وقبوله يعني الفوضى وامتهان كرامة الأستاذ أمام التلاميذ، وما زال الشيخ ناجي يرجوه حتى قبل الأستاذ، وما كان أمامه إلا القبول برجاء شيخ تسيل، ولكنه اشترط أن لا يكلمه هذا الولد الذي خرق جميع القوانين والأنظمة المدرسية، وعدت إلى المدرسة، وبرّ الأستاذ بوعده فكان لا يكلمني، وإذا وجّه سؤالاً إلى الطلبة، ورفعت أصبعي لا يسألني حتى ولو كان لا يعرف الجواب أحد غيري، وما أصعب على نفس الطالب في مثل هذا السن أن يخصّه الأستاذ بالقطيعة، فلا يكلمه، ولا يستمع إليه إذا سأل، ولكن لن أرفع يدي ورجلي وأقف ذليلاً أمام الطلبة، مهما كانت الأسباب، فليفعل ما يشاء، ويقرب إليه من يشاء. رحم الله ابن عمي ناجي ورحم الله الأستاذ طالب.

الجديد في عام ١٩٤٩م:

- أصبحت طالباً في الصف الثالث الابتدائي، واثقاً من نفسي، مقتنعاً أنني قطعت مرحلة مهمة في حقل التعليم، ولن أكون رجلاً أمياً بعد الآن.
- بنت الدولة لنا مدرسة مؤلفة من غرفتين واسعتين، وكانت أحسن من بناء أهل القرية، ولها باحة واسعة، وكانت هذه المدرسة في نظرنا أفضل من جامعة السوربون.
- تضاعف اهتمام الدولة، فبعد بناء المدرسة أرسلت لنا مدرسين: حمدي الحريري من بلدة داعل رحمه الله، وأحمد النابلسي من دمشق، ولا أدري ماذا فعل

الله به. عدد الطلاب تضاعف، وكذلك عدد الطلبة من قرية عدوان الذين كانوا يدرسون معنا، وكانوا يأتون سيراً على الأقدام، والمسافة بين القريتين من جهة المدرسة لا تتجاوز ميلين.

وفي عام ١٩٥٠م أصبح عدد المدرسين ثلاثة، من بينهم أستاذنا في الصف الرابع حمزة الزعبي من قرية دير البخت في حوران. وكان يعجبني فيه: قوة شخصيته، وعزة نفسه، وسلامة فطرته، وإخلاصه في عمله، وكان داعيةً من الطراز الأول إلى تعليم أهل حوران، وما ينبغي أن يفعلوه حتى يكونوا في طليعة نهضة سورية، وكان لا يدع أي مناسبة تمر إلا ويستغلها. ففي درس الخط كان يكتب على السبورة:

أرض حوران كنز من ذهب ولكن المحراث لا يزال من الخشب

ثم يطلب منا أن نملأ صفحةً من دفتر الخط بهذه العبارة، وكانت دعوته تخرج من القلب، فتأخذ طريقها إلى قلوبنا بدون منازع، لا سيما وأنه أول أستاذ يلفت نظرنا إلى مثل هذه الأمور مع أنه كان قد سبقه عدد من المدرسين من أهل حوران، وذات مرة صحح لي دفتر الواجبات وكتب لي عبارة لا أنساها أبداً إلا أن يشاء الله: "لك مستقبل باهر إذا تابعت دراستك" إنه يحثني على متابعة الدراسة، ويبشّرني بمستقبل مزدهر. إنها عبارة سحرية يصعب على الطالب نسيانها، فبعد مرور ثلاثة وستين عاماً ما زلت أتذكرها، وكأن الأستاذ كتبها قبل لحظات. وإن أقصى ما كان الأستاذ يتمناه لي أن أكون محافظاً أو وزيراً أو نحو ذلك، وما من الله به عليّ أكبر

من ذلك. لقد منَّ الله عليَّ بالهداية:

﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ

إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ الحجرات: ١٧.

فالحمد لله الذي هدانا لهذا الطريق، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وهذه الهداية أكبر من الجاه والسلطان، يقول سيد قطب رحمه الله:

"وصدق الله العظيم. فماذا فقد من وجد الأُنس بتلك الحقائق والمدركات وتلك المعاني والمشاعر؟ وعاش بها ومعها، وقطع رحلته على هذا الكوكب في ظلالها وعلى هداها؟ وماذا وجد من فقدها ولو تقلَّب في أعطاف النعيم. وهو يتمتع ويأكل كما تأكل الأنعام. والأنعام أهدى لأنها تعرف بفطرتها الإيمان، وتهتدي به إلى بارئها الكريم" (١).

كان حمزة الزعبي أول أستاذ أتأثر به، مع أنه لم يكن متديناً، وغادرنا آخر العام ليتطوَّع في الكلية العسكرية، وزرته مرة وكان برتبة مقدم، وهي رتبة كبيرة يومذاك، ولم تغب الأيام طبائعه رحمه الله.

وفي صيف عام ١٩٥٠م مرض أخي عبد الغني فجأة، واستمرَّ يتقلَّب على فراش المرض أسبوعين إلى أن توفاه الله، وما زلت أتذكّر عندما لفظ أنفاسه الأخيرة، وأتذكّر الزمان والمكان وأتمثل قول الشاعر أبي الحسن التهامي:

(١) في ظلال القرآن، تفسير الحجرات. ص: ٣٣٥٣. دار الشروق.

فكأن قلبي قبره وكأنه في طيه سر من الأسرار

حزن على عبد الغني أبوه وأمه وإخوانه وأبناء عمومته، ولكن لم يحزن أحد كحزني، كنا ننام في فراش واحد، وندرس في صف واحد، ونلعب في ملعب واحد، ونذهب ونغدو سوياً. كنت قوياً أشدُّ عضدي به، فأصبحت ضعيفاً. كنت أكرم حزني أمام الناس، فإن ذهب الناس واختليت بنفسي بكيت، وبكيت حتى تبطل ملابسي بدموعي الغزيرة. كان كل شيء يذكرني بعبد الغني. دخلت ذات مرة في مستودع للتبن، فقرأت على بابه الخلفي:

وأذكره لكل غروب شمس	يذكرني طلوع الشمس صخراً
على إخوانهم لقتلت نفسي	ولولا كثرة الباكين حولي
أعزّي النفس عنه بالتأسي	وما يكون مثل أخي ولكن
أفارق مهجتي ويثشق رمسي	فلا والله لا أنساك حتى
أصبح في الضريح وفيه يمسي	فيا لهفي عليه ولهف أمي

هذه قصيدة للخنساء ترثي أباها صخراً، وكانت مقرّرةً عندنا في الصف الرابع، ومناهج التعليم كانت قويةً، وكانت من عادات الطلاب التي دأبوا عليها أن يأخذوا "طباشير" ويكتبوا بها على الأبواب والجدران، وشاء عبد الغني لأمر يريده الله أن يترك لأخيه هذه القصيدة التي لا يعرف أمرها أحد في البيت غيري، وهم من باب أولى لا ينتبهون إلى ما يكتب على هذه الأبواب التي لا يدخلها أحد

غيرنا.

ما أشدّ شبه مصيبة الخنساء بمصيبتي، هي تبكي أخاها صخرًا. وأنا أبكي أخي عبد الغني، هي تعاهد الله أن لا تنساه، وأنا أتذكره الآن وكأن موته حدث قبل ساعات. عندما كنت طالباً في الصف الثامن، كان أستاذنا في اللغة العربية الشيخ أحمد الجنادي رحمه الله، وفي درس الإنشاء أعطانا ذات يوم الموضوع الآتي:

"مات عزيز لديك، ووقفت على قبره تؤبّنه، فماذا تقول؟"، وفاة عبد الغني كوّنت عندي ثقافةً واسعةً في المراثي، فتصورته وهو ممدّد بين أيدينا، وبدأت أكتب.. كان قلبي يملئ العبارات على القلم.. كانت عواطفني جيّاشة.. كنت في عالم غير عالم الصف والأستاذ والمدرسة والطلاب، لو تحوّلت ساعة الإنشاء إلى ساعات لما توقفت قلمي، وبعبصية الأستاذ المعروفة، سحب دفترتي، وراح يقرأ للطلبة ما كتبت. استيقظت من عالمي الذي كنت أعيشه لأسمع هذا الجدل بين الطلبة والأستاذ:

الأستاذ: لماذا لا تكتبون؟!.

الطلبة: أستاذ هذا موضوع فوق مستوانا، لا نعرف ماذا نكتب؟. طلاب صف ثامن يؤبّنون ميتاً!!.

الأستاذ: هذا زميلكم قد كتب، وأخذ يقرأ لهم مقالاً أدبياً راقياً.

الطلبة: انظر من أيّ كتاب نقله.

الأستاذ: يفتش درجي، ويقول للطلبة: ليس في درجه كتب لينقل منها، وكان يكتب أمامي.

قلت: في سري: الحق مع الطلبة، فقلبي هو الذي يتحكم بقلمي، ولو كان أكثر زملائي بلادةً وكسلاً ثكل بمثل ما ثكلت به لكتب مثل ما كتبت، وربما أفضل. كنت أتحمك جيداً بأعصابي ومشاعري، ولكنني أعيش أحلى أيامي مع الحبيب الراحل.

بدأ العام الدراسي لعام ١٩٥٠-١٩٥١ م بعد مرور شهر واحد على موت عبد الغني، وعدت إلى المدرسة وحدي وكفى بها مصيبة، هذه واحدة، أما الثانية فقد انتقلنا للدراسة في بلدة الشيخ مسكين التي لا تبعد عن تسيل أكثر من عشرة أميال، ومع ذلك فقد كنا نظن بأننا نعيش في الأرجنتين أو في استراليا، وكنا نتناقش في مسألة ترك الدراسة حتى لا نبقى غرباء عن وطننا. شعر أهلنا بشدة ضغطنا عليهم، فانطلقوا يطرقون أبواب وزارة المعارف لإقناعها بضرورة فتح صف خامس في تسيل، وكان لهم ما أرادوا وعُدنا إلى قريتنا، وانتهت غربتنا المريعة.

أستاذنا في الصف الخامس خالد ظاظا من أكراد دمشق، ومما يجدر ذكره أن جميع أساتذتنا في المرحلة الابتدائية غير محترفين، وكان أفضلهم من يحمل الشهادة الثانوية [بكالوريا] وتدرسه لنا مثل استراحة المحارب ينتقل بعدها إلى استئناف دراسته الجامعية أو ينتسب للكلية العسكرية أو يحترف التعليم بعد أن يُجرب به بنا، ولهذا فقد كان زاد هؤلاء الأساتذة من العلم متواضعاً. وبدهي أن تكون نتائج

طلابهم متواضعةً أيضاً.

وفي نهاية العام الدراسي ذهبنا إلى ذرعا -مركز المحافظة- لتأدية الاختبار، وصرت ممن يحملون [السرتفيكا] أي الشهادة الابتدائية، وكان لكلمة سرتفيكا وقع في نفوس أهل القرية، والكلمة في أصلها فرنسية، وكان عدد الذين يحملون هذه الشهادة منا لا يتجاوز خمسة عشر طالباً.

وفي نهاية العطلة الصيفية بدأنا نستعد للانتقال من عالم القرية إلى عالم المدينة للدراسة في الإعدادية الوحيدة في حوران، ومن هذا الإعداد شراء بنطال وجاكيت، ولسنا من أهل البنطال، وهذا بحد ذاته له ذكريات لا تخلو من طرائف مضحكة، ولا بد أثناء الدراسة الجديدة من خلع اللباس التقليدي كالثوب والسروال الأسود والغترة أي [الشورة] البيضاء، وأحياناً كنا نلبس الشماغ ونسميه [سلك].

وأصبحنا بهذا اللباس الجديد نتميز عن أهل القرية، حيث لم يكن أحد في حوران يلبس البنطال إلا من كان طالباً في المرحلة الإعدادية فما فوق، وأصبح اليوم الجميع يلبسه، ولا أدري ما علاقة اللباس الجديد بالدراسة والعلم؟!.

ولكن هل أدرس في ذرعا أم في دمشق؟!، هذا كان موضع خلاف بيني وبين والدي.

كان والدي يحب العلماء، ويكثر من مجالستهم والاستفادة منهم، وكان يجب أن يكون ابنه واحداً منهم، ولهذا فقد كان يريد لي أن أكون طالباً في الثانوية الشرعية

[كان اسمها الغراء] في دمشق، ولكنه كان يُرغب ولا يُجبر. وأنا بدوري رفضت الثانوية الشرعية لاعتبارات كثيرة: منها أنه ليس لها مستقبل، فالتعليم الإسلامي الشرعي كان محارَباً ومضيقاً عليه، ومنها أن هذه المدارس في ذلك الوقت ما كان يقصدها إلا الطلاب الفقراء. ومنها أنني لا أريد لبس العمّة [اللفّة]. لهذا ولغيره اخترت الدراسة في المتوسطة الوحيدة في حوران. وما أراه والدي قد تحقق والحمد لله. لقد أراذني والدي رحمه الله أن أكون شيخاً داعيةً يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويبيّن للناس الحلال والحرام، وقدّر الله بفضل دعاء والدي أن أسلك هذا الطريق منذ أوائل دراستي في المرحلة المتوسطة، وحتى يومنا هذا.

"ربي اغفر لي ولوالديّ ربي ارحمهما كما ربياني صغيراً".

ثم لينظر من يشاء كيف يتبدّل الحال غير الحال، فتسيل التي تأسست المدرسة فيها عام ١٩٤٧م وكان عدد الطلاب لا يتجاوز العشرين، وفي حوران كلها كان هناك متوسطة واحدة. اليوم في بلدة تسيل وحدها ثانويتان وثلاث مدارس إعدادية وأكثر من عشر مدارس ابتدائية.

الانقلاب العسكري الأول

الانقلاب العسكري الأول

كنت ضحى أحد الأيام في مضافتنا، فمرّ بنا فايز كليب سائق وصاحب السيارة الوحيدة التي تربطنا بدمشق وما حولنا من القرى السورية، وفايز هذا مع أنه أمي أو نحو ذلك إلا أنه كان قناتنا الفضائية الوحيدة التي تحيطنا بأخبار العالم، ولا تسل كيف يفهم الخبر وكيف يبته.

سمعنا فايز يحدث المارّة بأخبار غريبة لا نفهمها، ولهذا فقد تطلّعت عيوننا إليه وأرهفنا السمع عندما قال لنا وهو لا يزال واقفاً: إن انقلاباً عسكرياً قد وقع!!، انقلاباً عسكرياً ماذا يعني، سأل من في المضافة؟! فأجاب: قيادة الجيش السوري أطاحت بشكري القوتلي وحكومته وتولى الجيش الحكم.

ومن هو قائد هذا الانقلاب الذي سيكون بديلاً للقوتلي؟! فأجاب: الزعيم حسني الزعيم. وأتبع جوابه بهجوم على القوتلي وفساد حكومته، وخيانة أركان الحكم السابق، ثم تحدّث بإسهاب عن المظاهرات التي تعمّ دمشق ترخّب بالانقلاب العسكري، وتهتف ضد أركان الحزب الوطني وشركائه.

كان الناس في المضافة يقابلون أخبار فايز بصمت كصمت أهل القبور، وكان المتحدّث الوحيد بعد أن فارقتنا فايز، ومضى في حال سبيله الأستاذ حمدي رحمه الله، قال: "الزعيم حسني الزعيم خبيث وشاذ، ومضى يحدثنا عن قائد هذا الانقلاب الجديد، فكان مما فهمته: كنت عسكرياً، وجاء الزعيم يتفقّد فصيلنا، ووقف أمامي فحييته وقدمت إليه نفسي، فأمرني بمراجعتة في مكتبه، وفي مرة ثانية أمرني بحمل

حاجة إلى بيته، وفي بيته راودني عن نفسه!!، فأبيت بترفع يصاحبه احتقار له، وما زال يلاحقني حتى وجدت نفسي مضطراً إلى الاستقالة.

الأستاذ حمدي كان يتحدث بمنتهى الحرية ويسمي الأمور بأسمائها الصريحة لأن رواد المضافة من أبناء عشيرته ولن يشي به أحد منهم، ولأننا كنا أحراراً نقول ما نؤمن به ونعتقده قبل أن نُبتلى بالانقلابات العسكرية التي دمّرت بلدنا وعملت ما بوسعها لإذلال وقهر شعبنا.

والأستاذ حمدي ثقة في نظرنا جميعاً، وما قاله عن هذا القائد الجديد مستنكر أشدّ الاستنكار عندنا جميعاً وخاصة عند هذا الفتى الذي آثر الجلوس مع الكبار الذين لا يراعون وقع هذه الألفاظ على صغار السن.

راح الفتى يفكر بما سمع:

الزعيم حسني الزعيم، زعيمان، وليس زعيماً واحداً- وما كنت أدري أن الزعيم الأولى رتبة عسكرية- وقائد دولة وشاذ!!، هل كان الجيش يدري أمر هذا الرجل الذي اختاره قائداً له، وهل كانت الأمة تدري؟!.

كنت أردد هذه الأسئلة وأستحي من نفسي أن تسمعني، ولكن هذا الذي راود الأستاذ حمدي لا بدّ أنه راود غيره، ولن يبقى أمره سراً. يا حسرةً على أمتنا، ولا أدري إلى أين تسير الأمور في شامنا؟!.

ناسنا في تسيل وما حولها رحّبوا بالانقلاب لأسباب كثيرة منها: أن هذا

الانقلاب جاء بعد نكبة فلسطين بأشهر قليلة، وهي أشد ما ابتليت به أمتنا حتى ذلك الحين، وكان الناس يرددون بمرارة الأسئلة التالية:

- كيف هُزمت الجيوش العربية كلها أمام جيش يهودي صغير، ومن أهم صفات هذا الجيش الجُبْنُ؟! قال تعالى ﴿لَا يُقْنِلُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (الحشر: ١٤).

- ألسنا الأمة التي هزمت اليهود وأحبطت مكرهم، وهزمت أهل الصليب، ودحرت رايات الشرك والوثنية؟!، ما الذي أصابنا؟!.

- كيف نظوي صفحة العار، ونثأر من اليهود، ونعيد اللاجئين الفلسطينيين إلى ديارهم؟!.

ومنها: لا نريد أن يكون الحكم بأيدي " الشوام " أهل دمشق يتصرفون بالشؤون السورية كما يشاءون، ويُبعدون غيرهم ولو كان أكثرهم كفاءة. (١)

ومنها: أن الناس حملوا وزر الهزيمة في حرب فلسطين على الحكومة التي زوّرت الانتخابات، وجاءت بالفاسدين المفسدين من الاقطاعيين وشيوخ العشائر وزعماء الأحياء، وأبعدت أهل الخير والصلاح، ثم راح الناس يبالغون في الحديث عن الخيانات التي وقعت، فهذا ساعد على أن تصل صفقة السلاح إلى إسرائيل بدلاً من

(١) كذلك كان يفكر الناس في حوران، وتغيّرت الأمور اليوم، والحمد لله.

وصولها إلى سورية، وذلك مكن إسرائيل من احتلال المنطقة الفلانية، وكان بعض ما يقوله الناس صحيحاً، وأكثره روجه بعض المعارضين للحكومة التي أطاح بها العسكريون لأغراض دنيئة.

وإذاً: يريد الناس الثأر من بني صهيون، وهذا من اختصاص الجيش، ولهذا رحّب الشعب بالانقلاب، وارتفعت أسهم العسكريين، وانتشرت صور الزعيم حسني الزعيم، وصار الناس يزيّنون بها محلاتهم التجارية ومنازلهم، وكان الرجل بارعاً في إبراز صورته، وصدّره مرصّع بالأوسمة، وكان أيامه في الجيش كلها انتصارات.

تُرى هل يفهم الناس حقيقة هذا الرجل كما حدثنا عنها الأستاذ حمدي؟!، وما هو موقفهم عندما يكتشفون أن حساب الحقل مغاير تماماً لحساب البيدر؟!.

سيرة ذاتية لحسني الزعيم [١٨٨٩ - ١٩٤٩ م] :

درس في الكلية الحربية في استنبول، وبلغ رتبة ملازم، وبعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها واحتل الفرنسيون سورية التحق بقطعات جيش الشرق الذي أسّسته فرنسا في سورية، وكان معظمه من أبناء الأقليات ولهذا سُمي الجيش المختلط.

رُقيّ الزعيم في سُلّم الرتب العسكرية حتى بلغ رتبة [كومندان] أي مقدّم، واشترك خلال خدمته في الجيش الفرنسي في جميع ما ارتكبه هذا الجيش من جرائم ضد الشعب السوري.

وعندما هزمت الجيوش البريطانية والفرنسية الديغولية قوات الفيشيين التابعين للحكومة المارشال بيتان كان حسني الزعيم في عداد القطعات الفرنسية المُعسكرة حول دمشق، وعهد إليه الفيشيون بتشكيل عصابات محلية، وزودوه بكميات كبيرة من الأسلحة ومبالغ ضخمة من المال، وكانت مهمته مناوشة القوات الزاحفة وتأخير تقدّمها بغية حماية القوات الزاحفة خلال انسحابها، ولكن ما أن أصبحت القوات المتقدمة عند قرية الكسوة حتى فرّ الزعيم حاملاً الأموال التي أخذها من الفرنسيين تاركاً أفراد عصابته يتشردمون وكان غالبيتهم من الأكراد والشركس.

تمكّن الفرنسيون الديغوليون بعد احتلال دمشق من إلقاء القبض على حسني الزعيم، وحاكموه أمام محكمة عسكرية فرنسية في بيروت، وانتهت المحاكمة بطرده من الجيش وبسجنه لمدة عشر سنين. وأودع في سجن الرمل في بيروت، وبعد توصلات نُقل من سجن الرمل في بيروت إلى سجن القلعة في دمشق.

وكان في سجن القلعة يعيش حياةً بائسةً، وينفق عليه بعض الميسورين السجناء، وبعد رحيل فرنسا نُقل إلى بيروت، وكان أحد السجناء الذين اكتفوا بإطلاق سراحهم بشرط الإقامة الجبرية وإثبات وجودهم كل صباح ومساءً في المخافر العائدة للسلطات الفرنسية، كان في بيروت يعيش في غرفة استأجرها وبقي مقيماً فيها حتى جلاء الفرنسيين من لبنان فأخلي سبيله وعاد إلى دمشق.

وفي دمشق أخذ يسعى ويوسّط كل من له شأن عند المسؤولين، يقول عديله نذير فنصة: " خلال زيارة لي إلى وزير الدفاع أحمد الشراباتي حدّثته في موضوع

حسني الزعيم، ولكن ما أن لفظت اسم حسني الزعيم حتى هبّ الوزير الشراباتي واقفاً وصارخاً: يا لطيف... لا تذكر هذا الإسم مرةً ثانيةً أمامي. هذا رجل مغامر والعياذ بالله منه".

وبمثل هذا قال مسؤولون آخرون، ومنهم رئيس الجمهورية شكري القوتلي. يقول نذير فنصة في موضع آخر: " كان الزعيم في شبابه مغامراً، فهو مرةً مثلاً، اختلف مع ضابط فرنسي بسبب مراقبة سيدة فاستنفر قطعاته العسكرية في اسكندرون واعتقل هذا الضابط، كان أحياناً مقامراً، ويُقال أنه كان يغش في اللعب [ويلغم] - بلغة أهل الميسر".

وتحدّث خالد العظم في مذكراته عن الأسلحة والذخائر الفاسدة وعن المواد التموينية المغشوشة، وعن اتصال حسني الزعيم بدولة عربية مجاورة وتلقيه أموالاً منها، وأن الحكومة عزمت على التحقيق في هذه المسائل كلها، وكان مما كتبه:

" وشعر حسني الزعيم بسوء العاقبة إذا استمرت الحكومة في التحقيق، وثبت لديه أن الأمر سائر إلى غير مصلحته، وأنه إذا لم يتداركه فسوف يقع في الفخ. وتراءت أمامه ذكريات الأيام العصيبة التي عاشها مُسرّحاً من الجيش، مُلاحقاً أمام المحاكم، فقيراً مُعدماً يلتجئ إلى لعب القمار ليكسب عيشه، فإذا ما خانته الحظ هدّد اللاعبين بسلاحه وتناول بيده ما على طاولة اللعب من أموال ووضعتها في جيبه وانصرف. وتمثّلت أمامه حياته السابقة، وسكناه في غرفة حقيرة بدار أحد أنسابه، وعادت إلى مخيلته ذكرى تشبثاته المستمرة لدى أصحاب الأمر مستجدياً

إعادته إلى الجيش الذي طُرد منه " .

ويؤكد خالد العظم بأنه توسّط له عند القوتلي، ولكن القوتلي قال له: " إنه رجل خطر، وغير مؤتمن، وذو أخلاق سيئة، فإذا أعيد إلى الجيش أفسده وأقدم على قلب الأمور " .

ويقول الضابط محمد معروف وهو من عمل معه في قطعات الجيش وعرف عنه الكثير:

" لم يكن لحسني الزعيم أي عقيدة سياسية أو هدف قومي من أي نوع خارج مصلحته الشخصية، ولم يكن يدين بأي قيم أخلاقية أو دينية. ضعيف وذليل أمام القوي، وقوي جداً بل متغطرس أمام الضعيف، وهذه نظرة الغالبية العظمى من الضباط الذين عرفوه عن قرب، لقد صبّ جام غضبه على فيصل العسلي، وعندما نعرف فضل العسلي عليه سنكتشف أي رجل هو هذا " .

تحدّث معروف عن قصة فيصل العسلي مع حسني الزعيم ومجزها مساعدة الأول للثاني ثم انقلاب الثاني على الأول ومقابلة الإحسان باللؤم، ويضرب مثلاً آخر عن تذله لشكري القوتلي فيقول:

" كان حسني الزعيم يتوجه بسيارته الرسمية صباح كل يوم عند تمام الثامنة إلى بيت رئيس الجمهورية في محلة الروضة، فيوقف سيارته عند الباب الخارجي للبيت خلف سيارة الرئاسة مباشرة، ويظل قابلاً فيها حتى ظهور الرئيس فيهرع راكضاً وينقُص على يد الرئيس بكلتا يديه ثم يفتح باب سيارة الرئاسة، ويغلقه بعد أن

يتربع الرئيس في المقعد الخلفي. وبهذا كان يأخذ مكان الضابط المرافق [وقد أكد لي هذه الرواية العقيد طالب داغستاني المرافق الدائم للرئيس شكري القوتلي قبل أن يُعيّن قائداً لقوى البادية]. ثم تتحرك السيارتان، سيارة الرئاسة وسيارة الزعيم باتجاه المهاجرين. وعند الوصول إلى الباب الخارجي لمقر الرئاسة يكون الزعيم أسرع النازلين من السيارة ليسيير خلف الرئيس حتى الباب الداخلي وهو يسأله البركة والرضى والدعوات، ثم يقفل راجعاً إلى مكتبه في مديرية الأمن العام. وكانت هذه العملية روتينيةً تتكرر في كل يوم صباحاً ومساءً".^(١)

(١) المصادر فيما كتبتة عن سيرة حسني الزعيم الذاتية:

- أيام عشتها. الانقلابات العسكرية وأسرارها في سورية. محمد معروف. رياض الرئيس.
- أوراق من دفتر الوطن. سامي جمعة. دار طلاس.
- أيام حسني الزعيم. ١٣٧ يوماً هزّت سورية. نذير فنصة. مؤسسة النوري.
- مذكرات خالد العظم. الدار المتحدة للنشر، بيروت.
- القاموس السياسي. أحمد عطية الله.
- صحافة وسياسة. مذكرات نصوح بابيل.

عفا الله عما مضى

أمران خطيران سارا بسورية نحو الهاوية في تاريخنا المعاصر:

أما الأول: فهو شعار " عفا الله عما مضى " الذي رفعه الرئيس شكري القوتلي بعد استقلال سورية، ولهذا الشعار قصة نوجزها فيما يلي:

الجيش السوري - كما يسمونه - صنعته فرنسا على عينها من الأقليات السورية كالنصارى، والنصيريين، والدروز، والإسماعيليين، والأكراد، والشركس، والأرمن، وقليل من ذراري أهل السنة العرب.

وهؤلاء [أعني الذين اختارتهم فرنسا دون سواها من أبناء الأقليات] شعوبيون، يكرهون العرب وتاريخ العرب ووحدة العرب، وإن زعموا غير ذلك، كما يكرهون العلماء والدعاة من أصحاب الاستقامة والتقوى والصلاح.

لقد استخدمتهم فرنسا في جميع جرائمها التي ارتكبتها ضد الشعب السوري منذ ١٩٢١م وحتى عام ١٩٤٦م ولم يترددوا في تنفيذ كل الأوامر التي كانت تأتيهم.

ولقد كانت فرنسا دائماً مثلهم الأعلى يفكِّرون بعقليتها، ويرطنون بلغتها، وأشربوا حبها، ويصطادون الفرصة المناسبة من أجل أن تعود سورية إلى الحضيرة الفرنسية.

تدارس المسؤولون أمر هذا الجيش بعد رحيل فرنسا، فمن قائل: نعمل على إصلاحه ونتخلص بالتدريج من كبار ضباطه، ومن قائل آخر: بل ننشيء جيشاً جديداً، وجاءت كلمة الفصل من شكري القوتلي: "عفا الله عما مضى!!".

إن عفو الله نتركه لله جلّ وعلا، فهو غفور رحيم، وشديد العقاب، ولا ندري ولا أحد من خلقه يدري متى يعفو ومتى يعاقب؟! لاسيما وأن كبار ضباط جيش الشرق غير وارد عندهم التوبة والتذلل لله سبحانه وتعالى.

وهذه أكبر غلطة ارتكبتها زعماء سورية وفي طليعتهم شكري القوتلي، فالقاصي والداني يعلم أن هذا الجيش ليس جيشنا ولا يحمل آمالنا وآلامنا، ومن أهم ما قاله علماؤنا في القديم والحديث: لا يحمي ثغور المسلمين إلا المجاهدون الأمناء الذين لا يعصون لله أمراً.

أما الأمر الثاني: فهو مسألة الضابط حسني الزعيم. ويجمع من يعرفه وكتب عنه أنه كان مغامراً، فاسداً، مراوغاً، غريب الأطوار، ذليلاً أمام القوي، قوياً متجبراً أمام الضعيف، لاعب قمار محترفاً.

ويقول الكثير من الناس الذين يعرفونه أنه كان شاذاً جنسياً، وهذا يعني صحة ما قاله لنا الأستاذ حمدي رحمه الله، ونشر أحد موظفي الشعبة الثانية [المخابرات] تقريراً عن شذوذه.

رجل هذا شأنه كيف أعاده شكري القوتلي إلى الجيش وأسند إليه مسؤولية خطيرة؟! أوليس شكري القوتلي هو الذي يقول لخالد العظم [كما جاء في

مذكراته [عندما جاءه الأخير يتوسّط للزعيم من أجل إعادته إلى الجيش " إذا أعيد إلى الجيش أفسده وأقدم على قلبه " .

إذا رحنا نلتمس العذر للقوتلي: هل يصح أن نقول: كان القوتلي يفكر بعقلية كبير العائلة وييدي من التسامح شيئاً لا حدود له أو أن من طبيعة الأنظمة الديمقراطية أن تحصل فيها مثل هذه التجاوزات.

ولكن مثل هذه الأعذار تتهاوى أمام ما هو معروف عن شخصية شكري القوتلي. إنه زعيم كبير يعرف ما يجري في سورية جيداً ولا يتسامح مع الذين يهدّدون زعامته، وما مسألة تعديل الدستور لإضافة مادة تُجيز انتخابه لرئاسة الجمهورية عنا ببعيد، ولا تزوير الانتخابات في دمشق عام ١٩٤٧ م عنا ببعيد أيضاً. لقد ضحّى القوتلي بأعزّ أصدقائه عندما شعر بتهديدهم لزعامته، وأعود مرةً ثانيةً وثالثةً إلى السؤال نفسه:

كيف أعاد حسني الزعيم إلى الجيش، ثم كيف اختاره بعد ذلك ليكون مديراً للشرطة والأمن العام، ثم لرئاسة الأركان؟! لاسيما وهو يعرف ما عمله في حكومة الفيشين الفرنسية وأحكام السجن التي صدرت بحقه، ثم هو يعرف ما أدهى من ذلك وأمرّ: يعرف بأنه لاعب قمار محترف، وإذا أعوز لاعب القمار لا يتورع عن فعل أي شيء مهما كان دنيئاً وخطيراً، وهذا ما حدث.

لقد قدّمت الشعبة الثانية تقريراً لشكري القوتلي قالت فيه: إن حسني الزعيم تلقى أربعين ألف ليرة سورية من دولة عربية مجاورة تتآمر على سورية وأن حسني

قد قامر بكل المبلغ وخسره خلال ثلاثة أيام وأن الذي كسبه منه كان المقدم طيب باخوس. وعلق خالد العظم على هذه المعلومات في مذكراته فقال: فقد علمت منه -أي من فيصل العسلي-، ومن قراءة الوثائق التي اطلعتُ عليها، وكانت محفوظة لدى رئيس الجمهورية.

وموجز ما جاء في هذه الوثائق أن القوتلي أرسل الضابط الرئيس توفيق شاتيلاً إلى الدولة العربية المجاورة متظاهراً أنه لاجيء سياسي، وقابل ملك هذه الدولة، الذي وثق به بعد تكرر هذه اللقاءات، وطلب منه أن يُصلح وضعه في سورية، ثم يعود إليها، ويتعاون مع الضابطين: حسني الزعيم وعبده الوهاب الحكم للقيام بانقلاب عسكري يتبعه ضمُّ سورية إلى هذه المملكة المجاورة، وانتهت الخدعة بعودة شاتيلاً إلى سورية. وتأكّد القوتلي من صحة تقرير الشعبة الثانية الذي كان قد وصله^(١).

أجل يعرف القوتلي هذا وذاك عن حسني الزعيم، ولكنه أعاده إلى الجيش وأسند إليه رئاسة الشرطة والأمن العام ثم رئاسة الأركان العامة لأنه يعلم بأن هذا الرجل لا يهدّد زعامته التي لا تُقاوم، ومن ثم فحسني الزعيم ليس الفاسد المفسد الوحيد الذي يحيط بالقوتلي ويُعدّ من بطانته، وإلى مثل هذا ذهب خالد العظم في قوله:

(١) انظر مذكرات خالد العظم، وقد نقلتُ ما قاله بإيجاز وبتصرف، ٢/١٨٩، وانظر أيضاً

أوراق من دفتر الوطن، سامي جمعة ١٩٤٦-١٩٦١م وفي ص ٣٨ صورة عن تقرير الشعبة الثانية.

" وقد فهمتُ أن سبب اطمئنان القوتلي إليه [حسني الزعيم] وتعيينه في هذين المنصبين الكبيرين، أن المرحوم محسن البرازي أخذه على عاتقه، وجعله يقسم بالقرآن أمام القوتلي أنه سيكون له وفيّاً مخلصاً مادام حياً. وقد كشفت الأيام كيف صدق في يمينه، وماذا صنع فيما بعد. على أنني أشك في أن القوتلي اطمأن كل الاطمئنان إلى شخص معروف بحمقه وتطرفه وعدم إخلاصه. لكنني أظن أن الرئيس قصد من تعيينه إلى الإفادة من قوة شخصيته، وذلك لكي يهدّد به جميل مردم، إذا شدّ هذا الأخير عن سياسة القوتلي نفسه. وكان في طبع الرئيس أن يبذر بذور التنافس والبغضاء بين الزعماء السياسيين حتى لا يتفوقوا ضده، فيبقى دائماً مسيطراً على الموقف وحده" (١).

انقلاب حسني الزعيم:

يقول عديله نذير فنصة: " مرةً جاءني الزعيم إلى منزلي باكراً، ودخل، ولكنه لم يمكث طويلاً، قال لي: الليلة سنسهر عندك، فجهّز لنا بعض المأكولات والمشروبات. سألته: تحكي بالجمع؟ من أنتم الذين ستحضرون الليلة؟ فقال: بضعة من ضباط تعرفهم ويعرفونك. قلت له: وما مناسبة هذه السهرة؟ خير إن شاء الله؟ فقال الزعيم: [سنعملها]. ثم نهض وخرج، كان هذا في ٢٤ / ٣ / ١٩٤٩ م. اكتمل الشمل بحضور الزعيم حسني الزعيم. وأذكر من الضباط الذين حضروا هذا الاجتماع في منزلي في عين الكرش بدمشق: سامي

(١) مذكرات خالد العظم: ٢ / ١٨٥.

الحناوي، إحسان شردم، إبراهيم الحسيني، محمد ناصر، عبدالله رسلان، والعقيد محمود بنيان - أبو رفعت -، مدير سلاح العشائر وسواهم.

بدأ الجميع بالشراب، حتى حسني الزعيم الذي لا يشرب لإصابته بداء السكري، شرب في تلك الليلة".^(١)

استعرضوا الأوضاع العامة وبالأخص الهجوم المستمر على الجيش... ثم طلب مني الزعيم أن أحضر القرآن الكريم، فتوالى الضباط واحداً إثر الآخر للقسم على الكتاب الكريم بأنه سيحفظ السر: سرّ هذا الاجتماع، وسرّ القرار بالانقلاب الذي موّعه في: ٢٩ / ٣ / ١٩٤٩ م.

وفي ساعة متأخرة من ليل الثلاثين من آذار سنة ١٩٤٩ م نُفِّذ الانقلاب. وعند الصباح قامت إحدى الطائرات العسكرية بإلقاء منشورات، ثم أذاعت إذاعة دمشق في الصباح الباكر نصّ البلاغ رقم واحد.

كانت جميع البلاغات من بنات أفكار أكرم الحوراني الذي اتخذ مكتباً له بالقرب من مكتب حسني الزعيم وكان مستشاره الأول. ويضيف الضابط محمد معروف:

"ولم تُبتَلَّ سورية طوال حياتها السياسية بزعيم كان وبالاً على الشعب وسبباً لتمزيقه كما ابتليت بأكرم الحوراني الذي أرسى طريق الفرقة والتباعد، وكان يرى في كل من يقف في وجه مصالحه خائناً ومارقاً وكانت فاعليته وسمومه

(١) أيام حسني الزعيم، نذير فنصة: ١٨، ٢١.

مركزاً بصورة خاصة في صفوف الضباط وأنا واحد منهم.

وقد صدق المرحوم كامل مروة حين قال فيه في جريدة الحياة: [إن أكرم الحوراني في كل انقلاب ومع كل انقلاب وضد كل انقلاب].

لقد كان الحوراني في انقلاب حسني الزعيم ومعه ثم وقف ضده، وكان في انقلاب سامي الحناوي، وعيّن وزيراً، ثم نجح نائباً بالتزوير - وأنا مع الأسف هو من قام بذلك الفعل -، ثم وقف ضده، وكان في انقلاب الشيشكلي ومعه ثم انقلب عليه؛ وكان من أنصار الوحدة وعبدالناصر ثم انقلب عليها معاً؛ ثم كان مع الانفصال ولو طال الزمن قليلاً لفكّر بالانقلاب عليه؛ وأخيراً مع صدّام حسين ولا أدري إذا كان قد أُبعد أم اختار الابتعاد؟. لقد كان هذا الرجل أحد أسباب الانقلابات في سورية.^(١)

وقال عديل الزعيم نذير فنصة:

" ذهبْتُ إلى قيادة الشرطة العسكرية، فوجدت الزعيم وقد وصل لتوّه، وكان معه أكرم الحوراني و خليل الكلاس، كان الزعيم يواصل إصدار أوامره وإرشاداته، سواء مواجهة مع ضباطه أو بواسطة الهاتف. وكان أكرم الحوراني منهمكاً في إعداد البلاغات والبيانات التي صدرت في ذلك اليوم لتذاع من الإذاعة السورية."^(٢)

(١) أيام عشتها. محمد معروف، ص: ٩٥.

(٢) أيام حسني الزعيم. نذير فنصة.

وقال نصوح بابيل:

" لقد رافقتُ نشاط الزعيم في المجال الإعلامي موجة من المراسيم والتعيينات، منها تعيين نذير فنصة عديل الزعيم سكرتيراً خاصاً له، وتعيين عبدالوهاب الحكيم مديراً للتجنيد العام في الجيش السوري، وتعيين أكرم الحوراني نائب حمة السابق مديراً لشؤون الصحافة والمراقبة في وزارة الدفاع، وتعيين عارف النكدي نائباً للحاكم العسكري في السويداء، وتعيينات كثيرة غيرها.

وأضاف بابيل:

" وصدرت مراسيم عديدة تقضي بتأليف لجنة خاصة للتحقيق في قضايا سوء استعمال السلطة واستغلال النفوذ والإثراء. وتألّفت اللجنة من خليل رفعت رئيساً، المقدم عزيز عبدالكريم، أكرم الحوراني، رزق الله أنطاكي أعضاء". (١)

ثم ألفتنا تكرر مشهد الانقلابات بين الحين والآخر، ويتم الإعداد لها على

الشكل التالي:

- يعقد عدد من الضباط اجتماعات سرية، ويشربون الخمر حتى الثمالة، وليس منهم من يتعفف عن شربه، ثم يأتون بالقرآن الكريم، ويُقسمون على حفظ السر، ونقرأ فيما بعد في مذكراتهم: وأقسمنا على كتاب الله فكيف نبوح بعد ذلك بسرنا؟،

(١) مذكرات نصوح بابيل، وهو رئيس نقابة الصحفيين السوريين، ورئيس مجلس إدارة

صحيفة الأيام الدمشقية المعروفة، وأحد العاملين في الحقل السياسي.

ولا أدري كيف يجمعون بين شربهم للخمر وتعظيمهم لكتاب الله الذي يحرم الخمر؟ أو نكثهم باليمين الذي كان قبل هذا اليمين؟.

- زملاؤهم الذين انقلبوا عليهم يعتقدون فيهم الوفاء والصدق والمحبة، ثم يُفاجأون بهم وهم يوجهون النيران إلى صدورهم، ولا عتاب بعد ذلك فإما القتل أو السجن حتى يموت في السجن. هل كان يفكر حسني الزعيم بأن سامي الحناوي سينقلب عليه؟! لقد رفض جميع التقارير التي وصلته، وقال مرة لضابط قريب منه وكان يحدثه عن نوايا الحناوي: إني أثق بالحناوي أكثر من ثقتي بك. وجاءه ذات مرة ضابط محب له وكلمه عن خطة بيئتها الحناوي فما كان من حسني الزعيم إلا إصدار أمره بحلق شوارب الضابط الكبيرة عقوبةً له، ثم يأتي ذلك اليوم الذي يعلم حسني فيه أن كل ما ورده من تقارير صحيح، وأن أعزّ أصدقائه [الحناوي] يتآمر عليه، وهو الذي أصدر الحكم بقتله.

ثم هل كان يفكر صلاح جديد أو يدور بخلده أن حافظ أسد يمكر به مكر الليل والنهار، وهو [صلاح] الذي وقف بوجه قرار طرده من الجيش في أعقاب هزيمة عام ١٩٦٧م الذي اتخذته القيادة القطرية لما يُسمّى حزب البعث العربي الاشتراكي.

أجل!! هذه هي الأخلاق التي تربّى عليها العسكريون في بلادنا: غدر، ومكر، وخداع ونفاق، وخمور، وأيمان مغلظة على كتاب الله الكريم.

- كان الحكم في سورية بيد أهل السنة، وأهل السنة يمثلون الأكثرية كانوا

يختارون الكتلة الوطنية [تحوّلت فيما بعد إلى حزبين: حزب الشعب، والحزب الوطني]، وشخصيات سنية مستقلة.. وهؤلاء جميعاً وبالأخص حزب الشعب ضد الانقلابات العسكرية، ولناخذ مثلاً انقلاب حسني، فالذين أيّدوا هذا الانقلاب: أكرم الحوراني، بهيج الكلاس، فارس الخوري، سلطان الأطرش ومعه الدرّوز في كل سورية ولبنان، وكان فيهم عدد كبير من الضباط ومن أبرزهم شوكت شقير، وأمين أبو عساف، والعقلاء النصيريون مثل: محمد الناصر، وعزيز عبدالكريم، وغسان جديد.

وهؤلاء جميعاً لن يكون لهم دور في الحكم إذا اعتمدوا على الانتخابات الحرّة، ولهذا فهم يستعينون بالعسكريين المشبوهين من جيش الشرق، وبالانقلابات الدموية الاستبدادية التي لا تحترم الرأي ولا الرأي المخالف.

وكان من أخطر هؤلاء أكرم الحوراني الذي كان - كما قال كامل مروّة - في كل انقلاب ومع كل انقلاب وضد كل انقلاب. ركب الحوراني موجة الطائفية راجياً أن تحمله إلى منصب رئاسة الجمهورية وليكون البديل المنتظر لشكري القوتلي، ولكن الطائفية استخدمته واستخدمت حزبه وتياره أبشع استخدام، وعندما صار أمر حكم سورية بيدها لفظته كورقة ممجوجة لم تعد صالحة للاستعمال.

السياسة الأمريكية الجديدة في الشرق الأوسط

الدور الأمريكي في انقلاب الزعيم:

لم تكن الأسباب التي ادّعاها حسني الزعيم في انقلابه مقنعةً لأولي الألباب الذين يعرفون حسني الزعيم، وعدد هؤلاء كان كبيراً وكبيراً جداً، فعدد سكان سورية كان قليلاً، وفضائح الزعيم تُزكم الأنوف، ومن ثم فالفساد المفسد لن يكون مصلحاً وإن زعم ذلك، ومن جهة أخرى فالإصلاح يرفع لواءه ويرسي بنيانه الصالحون المصلحون من أبناء هذه الأمة، ويستحيل أن يأتيها بلغة الحديد والنار.

رجل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند كشف لنا في كتابه " لعبة الأمم " دور المخابرات الأمريكية في انقلاب حسني الزعيم، وأنا لا أزعم أن كوبلاند عرض علينا الحقيقة كاملةً من غير زيادة أو نقصان، فهناك أمور سكت عنها لأن قوانين نشر الوثائق عندهم لا تسمح بنشر كل شيء، وهناك زيادات لها صلة بأسلوبه في الكتابة، ولهذا فقد اطلعتُ على ما نُشر حول هذا الموضوع من مذكرات الذين عاصروا الحدث وشاركوا بصنعه بطريقة أو بأخرى، كما اطلعت على ما تمّ ترجمته من الوثائق^(١) الأمريكية، وقارنتُ بين هذا كله وبين ما جاء في كتاب لعبة الأمم عن انقلاب حسني الزعيم، وأصبحتُ بعد هذا الجهد مطمئناً إلى ما سوف أنقله من كتاب لعبة الأمم.

(١) بذل ولدنا بشير جهداً في ترجمة هذه الوثائق، انظر كتابه: " الجيش والسياسة في سورية ".

بدأ الكاتب حديثه عن تنفيذ المخططات الأمريكية في سورية
[١٩٤٧ - ١٩٤٩ م] فقال:

" بعد ظهر أحد الأيام الباردة من شهر شباط [فبراير] ١٩٤٧ م اتصل
السكرتير الأول في السفارة البريطانية في واشنطن، وكان يومها [سيشل] بـ [لوى
هندرسن] مساعد وزير الخارجية لشؤون الشرق الأدنى وأفريقيا وطلب منه
مقابلته لسبب هام. وقد حدث هذا قبل سنة واحدة من تأسيس [مركز اللعب] في
واشنطن. وفي تلك المقابلة، قام سيشل بتسليم هندرسن رسالتين على جانب من
الأهمية صادرتين عن [القسم الأجنبي] في السفارة البريطانية.

وقد كانت الأعراف الدبلوماسية تقضي أن يقوم السفير البريطاني نفسه بتسليم
أمثال تلك الرسالتين إلى وزير الخارجية مباشرة، إلا أن جورج مارشال - وزير
الخارجية يومها - كان قد غادر مكتبه مبكراً لقضاء عطلة الأسبوع خارج واشنطن
ولهذا فقد اقترح سيشل أن يقوم بنفسه بتسليم هاتين الرسالتين خلال عطلة
الأسبوع، وتقديم لمحة عن مضمونها لوزير الخارجية قبل التقائه بالسفير البريطاني
صباح الاثنين.

" وصل سيشل إلى وزارة الخارجية والموظفون يستعدون للانصراف لقضاء
عطلة الأسبوع، واعتاد هندرسن أن يبقى لوحده في مكتبه حتى ساعة متأخرة من
المساء. وهكذا كان الهدوء المخيم على جو المكتب ملائماً تماماً لتسلم أمثال تلك
الرسالتين اللتين كانتا تتضمن أنباءً صاعقةً.

" وهذا ما حدث فعلاً فقد كانت أخبار الرسالتين تشير إلى عزم بريطانيا على إنهاء وصايتها [التي دامت ما لا يقل عن قرن من الزمن] على بعض أرجاء العالم، فحكومة جلالة الملك تواجه أزمة مالية، ولهذا فإنها لن تتمكن من تحمّل أعباء مقاومة المدّ الشيوعي في كل من تركيا واليونان والتي تقدّر مالياً بخمسين مليوناً من الدولارات.

وتخشى بريطانيا في الوقت نفسه أن يتمكن الشيوعيون من فرض سيطرتهم على اليونان عن طريق حرب العصابات، وعلى تركيا عن طريق هجوم عسكري مباشر. وكان على الولايات المتحدة الأمريكية أن تبادر إلى سدّ هذا الفراغ قبل أن يسبقها الاتحاد السوفياتي إليه، إلا أن هندرسن لم يكن ليحتاج إلى أيام عطلة الأسبوع حتى يدرك ما تعنيه أنباء هاتين الرسالتين وما يترتب عليه أن يفعله بعد ذلك. فالخطر الشيوعي لا يهدد بالزحف على اليونان وتركيا فقط بل وعلى أوروبا الجنوبية خارج الستار الحديدي وعلى شمال أفريقيا والشرق الأوسط.

ومع أن أخبار الرسالتين قد سبب بعض القلق لهندرسن - وقد اعتذر سيشل له على ذلك - إلا أنها قد أشعلت الضوء الأخضر أمام الحكومة الأمريكية لتصبح دولة ذات تأثير فعّال في شؤون العالم. كما أظهر الاتحاد السوفياتي على أنه سيكون مصدر تهديد متزايد للسياسة العالمية. وربما سيفوق ألمانيا النازية في هذا.

وتحدّث كوبلانند عن سوء الأوضاع الاقتصادية في كل من فرنسا وإيطاليا وبريطانيا، وسبب سوء الأحوال الجوية وتراكم الثلوج والنقص الفادح في موارد

الفحم سنة ١٩٤٧ م أصبح في بريطانيا وحدها عدد العاطلين عن العمل خمسة ملايين وشُغلتْ بأمورها الداخلية، ولم يكن بمقدورها أن تقدّم أكثر من إسداء النصح لرجالنا في السلك الدبلوماسي وفي مجموعة المخابرات المركزية.

وقال كوبلاندا:

" ومن عجيب المفارقات، أن وزير الخارجية جورج مارشال كان قد قصد برينستون ليُلقى أول خطبة أمام حشد من الشباب الأمريكي، موضحاً الدور الذي بات على الولايات المتحدة أن تلعبه في العالم بعد أن تغلغت في كل أركانه جغرافياً، ومالياً، وعسكرياً، وعملياً، ودعا الأمريكيين، حيال وضع كهذا، أن يرتفعوا إلى مستوى مسؤولياتهم لضمان أمن وسلامة العالم، وانتهى الوزير مارشال من إلقاء خطابه صباح ٢١ شباط [فبراير] ١٩٤٧ م وهو لا يدري شيئاً عن مضمون تلك المذكرتين الديبلوماسية اللتين أرسلتا إلى وزارته في اليوم السابق.

تدارس أركان وزارة الخارجية مضمون الرسالتين، ثم اتفقوا على تشكيل لجنة خاصة مهمتها وضع الخطط التي تتناسب والظروف الجديدة المفروضة عليهم... ولم تهتم وزارة الخارجية بإبلاغ أنباء الأزمة هذه إلى مجموعة أجهزة مخابرات أسلحة وزارة الدفاع [الجيش - البحرية - سلاح الجو] أي مجموعة المخابرات المركزية [التي انبثقت منها وكالة المخابرات المركزية فيما بعد] إلا بعد مضي ساعات طوال كانت كفيلاً بتسرب بعض أخبارها إلى الصحافة.

وكان هذا التأخير سبباً في احتدام الصراع ثانيةً بين مختلف أجهزة الدولة " ولا أزال أذكر جيداً المشاكل الإدارية التي كانت مثار خلاف في المعركة التي دارت رحاها في واشنطن، وفي شهر شباط [فبراير] بالذات. فقد كنت يومها عضواً في اللجنة الاستشارية للشؤون الإدارية التي أوكلت لها مهمة السيطرة على الفوضى السائدة آنئذ في سلك أجهزة المخابرات واقتراح الحلول لها، كما أنني أذكر تماماً ذلك التصريح شبه الرسمي الذي أدلى به أحد كبار المسؤولين العسكريين عن جهاز المخابرات العسكري التابع للجيش ويذكر فيه أن الضرورة المفاجئة لتدخل الولايات المتحدة في الحرب الباردة قد حققت من خطر ابتلاع وكالة المخابرات المركزية الجديدة للعاملين في أجهزة مخابرات الحكومة لما وراء البحار.

وعلى أية حال، فإن الأدميرال سيدني ساورز، مدير المخابرات المركزية، قد ربح المعركة في مجال التنظيم الإداري إلى حد أن الجهاز الجديد للمخابرات المركزية قد اضطلع بكافة المسؤوليات وحصل على كل الصلاحيات، بشكل أصبح معه يتمتع بقدرة جيدة على القيام بكل الأعباء التي توكل وزارة الخارجية له تنفيذها.

" ويمضي - كوبلاند - في حديثه عن هذا الخلاف في مرحلة الأربعينيات من القرن العشرين، ورعونة كل من كان طرفاً فيه، ولولا ضعف الولايات المتحدة في مؤتمر يالطا لكنا في غنى عن جميع مشاكل الحرب الباردة الحالية، ولكن المسؤولين آنذاك يقولون: لم يكن من المستطاع سلوك غير هذا الطريق.

" لقد كان هناك تناقض ضروري بين سياسة حكومتنا الظاهرة للرأي العام في القضايا الدولية، وبين وجهة نظر أولئك الذين يقبعون خلف جدران الخارجية والدفاع. ولقد أرسل جورج كينان نائب رئيس بعثتنا الدبلوماسية في موسكو رسالة إلى وزارة الخارجية في أوائل ١٩٤٦م لخصت بدقة فائقة معالم وحدود الحرب الباردة التي بدأت تستعر يومها. ولقد مُنحت تلك الرسالة كل اهتمام وتقدير، واعتُبرت تحليلاً دقيقاً لنيات السوفيات ولمواقفهم وسلوكهم المحتمل.

وفي خطاب ألقاه في فولتين بولاية ميسوري، عبّر ونستون تشرشل عن هذا الوضع بوضوح عندما استخدم عبارة [الستار الحديدي]. وكان حضور الرئيس ترومان لتلك المحاضرة إشارة إلى موافقة الحكومة الأمريكية على الموقف البريطاني. وبالرغم من هذه الهفوة فقد بقيت حكومتنا تتظاهر بسياستها الرسمية التي تسير على هدي [روح التفاهم التي سادت مؤتمر يلطا] وكانت ترى أن الأمم المتحدة تتمكن من حفظ الأمن في جميع أنحاء العالم بتعاون وتفاهم القوى العظمى المحبة للسلام. إلا أن كافة تقارير الحكومة الممهورة بخاتم [سري للغاية]، تشير إلى عكس ذلك تماماً.

وبدا للعيان أننا نتجه بخطى واسعة نحو حرب باردة مع السوفيات، وبدا ينعكس هذا على جميع نواحي حياتنا إلى الحد الذي اضطررنا معه أن نطلق أسماء مغايرة على الدوائر المختصة بشؤون الستار الحديدي إخفاءً لها وتمويهاً.

" كنا نعاني نقصاً فادحاً في عدد الأشخاص المؤهلين لخوض غمار حرب ليست كالحروب. واجهنا هذه العقبة عند محاولتنا الحلول محل المخابرات البريطانية في اليونان وتركيا، وبقي قسم الشرق الأدنى وأفريقيا في وزارة الخارجية ضعيفاً جداً. كان سدّ الفراغ الذي نتج عن انسحاب البريطانيين من اليونان وتركيا، والذي أوجد فراغاً في كل أرجاء الشرق الأوسط من ضمن أهدافنا الرئيسية. وقد اقتضى هذا أن نبدأ لعبتنا التي كانت حكومات دول المنطقة الشاغرة من النفوذ أطرافاً فيها، وسبب ذلك أن السوفيات لم يكونوا بعد قد اتخذوا مقاعدهم حول طاولة اللعب، وكانت هذه اللعبة لعبة تعاون من جهة ونزاع من جهة أخرى.

" أصبحت قراراتنا مرتبطةً بأهدافنا في المنطقة ومتأثرةً بمدى تعارض مخططاتنا مع تطلعات كل من تركيا واليونان وبقية دول الشرق الأوسط. وانتقل هذا التعارض والخلاف إلى داخل وزارة الخارجية واللجان المشرفة على التخطيط فيها، فلا أزال أذكر عندما خاطبني أحد المسؤولين عن التخطيط في وزارة الخارجية وهو في أوج غضبه قائلاً: "إننا لا نملك أية أهداف وإننا لا نواجه هناك سوى مشاكل"، فمن هذه المشاكل ما كان مصدره النوايا الصهيونية لخلق دولة إسرائيل وإصرار العرب على رفضها. ومنها ما مصدره الخلاف مع الحلفاء حول الدور الذي يجب أن تلعبه دول الشرق الأوسط في خطط الدفاع للمستقبل والدعم السياسي لشركات البترول الأمريكية التي كانت في نمو مستمر واتساع متزايد هناك ومهما كان فقد برزت أهدافنا أخيراً في شكل محدّد وكان منها ما يلي:

١- تجنب أي احتكاك مباشر بيننا وبين السوفيات نتيجة اشتباكات إقليمية في المنطقة.

٢- تقوية حكومات المنطقة عسكرياً وسياسياً إلى حدّ تتمكن معه من المساهمة الفعّالة في جهود العالم الحر للوقوف في وجه الشيوعية الدولية.

٣- خلق ظروف ملائمة تفسح المجال أمام التغلغل التجاري والتوظيف المالي للأمريكيين.

" كانت الظروف في منطقة الشرق الأوسط تبدو مناسبة جداً للاستثمارات المالية والتجارية الأمريكية. بدأ يساورنا القلق حيال احتمال رفض الحكومات العربية لتوجيهاتنا السياسية. ولهذا فإن تجاوب سكان المنطقة معنا كان عاملاً مهماً لإحراز أي تقدم في مجال تحقيق رغباتنا، وكان يجب أن تتوفر منذ زمن بعيد لولا وجود عجز في قيادات دول الشرق الأوسط.

" كانت مشكلتنا الرئيسية في دول الشرق الأوسط فقدان القيادات الذكية التي تتمتع بقسط وافر من الخبرة والحكمة في إدارة الأمور وتقدير مصالح بلدانها والتي هي على مستوى رفيع من النزاهة والشجاعة الكافيتين لتحقيق كل ذلك. وبهذه الطريقة دون غيرها يمكننا أن نحقق أهدافنا مهما كان لونها أو شكلها. ونتيجةً لذلك فقد بدأ تركيزنا على فسخ المجال أمام وصول [النوع الملائم] من القيادات إلى السلطة وتسلمها مقاليد الحكم في داخل أوطانها بينما نكون قد أنجزنا دراسة مخططاتنا وحددنا أهدافنا في المنطقة بكل دقة ووضوح.

" كانت قواعد [لعبة الأمم]، تملي علينا أن نبذل قصارى جهدنا لإحراز التقدم والنجاح ضد المناوئين ولكن لصالح الموالين لنا فإذا تعسّرت الخطوات وسُدّت المنافذ كان لا بد بعدها من تعديل اعتباراتنا لأسباب النجاح وطبيعته. فإذا لم تكف هذه الخطوة كان لا بد بعدها من اللجوء إلى تغيير اللاعبين الذين يُشكّلون حجر عثرة في طريقنا واستبدالهم بآخرين أكثر انسجاماً مع الظروف الراهنة. ومذكرات الحكومة الأمريكية عام ١٩٤٧ م أشارت بوضوح وتأكيد إلى أن أجهزة المخابرات والسلك الديبلوماسي كان على وشك القيام بتفجيرات في قيادات بعض دول الشرق الأوسط، والمؤرخون الذين يحاولون الوقوف على الدوافع التي كانت خلف مخططاتنا أثناء تلك الفترة من التاريخ كانوا يتغاضون عن الحقيقة التالية: أن التفكير المثالي ومحاولة الالتزام بالمبادئ لم تختف نهائياً ليحلّ محلها الأسلوب الواقعي للعمل الذي يتمثل في التجسس والاستفادة من التسهيلات التي يقدمها العمل السياسي السري وذلك لمجابهة الروس بنفس طريقتهم في العمل. إن أي تفحص لوثائق وزارة الخارجية ووزارة الدفاع ومجموعة المخابرات المركزية [التي أصبحت بعد ذلك وكالة المخابرات المركزية] تُظهر مثاليتنا في العلن وانتهازيتنا في السر، ولكن كل من شارك في [لعبة الأمم] يذكر أننا لم نكن فعلاً انتهازيين كما تصوّره تلك الوثائق. وأن عنصر المثالية كان لا يزال التفكير السائد والصبغة الطاغية وذلك في كلا نشاطينا السري^(١) والعلني.

(١) يتحدّث بعض الباحثين عن الفرق الباطنية كالرافضة والصوفية. وهناك باطنية سياسية،

ويُضيف كوبلاند:

" وبدأنا العمل بتجنيد العناصر المتبقية من مكتب الخدمات الاستراتيجية بعد الحرب العالمية الثانية، ثم ضممننا إليها أركان قيادة السلك الدبلوماسي إلى جانب احتياطيه من الرجال الذين كانوا في الخارج بمهات ثقافية وإعلامية. والتحق بنا بعض الدبلوماسيين المنتظمين رسمياً في وزارة الخارجية، ومعظم هذه العناصر التي هي من البعثات التبشيرية أو من أصحاب الفكر، وبعض الهواة كانت تعتقد أن تغيير القيادات في دول الشرق الأوسط عامةً والدول العربية خاصةً لا يستلزم أكثر من مجرد إزاحة بعض الدعائم والقوى التي أوصلت كثيراً من الزعماء إلى سدّة الحكم دون أن تتوفر لديهم أية كفاءات أو ميزات، وستستمر في مساندتهم طالما امتلكت القدرة على هذا.

" واشتدّ كوبلاند في نقد الانتخابات التي تأتي بمرشحي القوى الأجنبية ومرشحي الاقطاعيين الذين يلزمون الفلاحين والمستخدمين بانتخاب من يخدم إقطاعهم، ومن الرأسماليين الجشعين الذين يشترون أصوات الشعب لحساب أعوانهم بنفس سرقتهم المعتادة في الحصول على ما يريدونه عن طريق الخداع

وخير مثال على ذلك الولايات المتحدة الأمريكية في مسيرتها منذ نهاية الحرب العالمية الثانية وحتى يومنا هذا، فوزارة الخارجية والبيت الأبيض يتحدثان بلغة منمّقة جميلة، ويتبنيان الدفاع عن حق الشعوب في الحرية والكرامة وهذا هو الوجه العلني لهذه السياسة، أما الوجه السري فتتبناه المخابرات الأمريكية ولا تتورع عن ارتكاب أخطأ أنواع الجرائم والظلم والاستبداد والانتهازية.

واللصوئية.

" وفي ١٢ آذار [مارس] ١٩٤٧م، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل الدائم لموظفي وزارة الخارجية والبيت الأبيض. أعلن عن [مبدأ ترومان]^(١)، الذي كان يومها بمثابة جواب على المذكرة البريطانية المُرسلة إلى وزارة الخارجية في ٢١ شباط [فبراير] ١٩٤٧م. ولم يمض زمن طويل على إعلان مبدأ ترومان حتى أعلن عن مبدأ آخر وهو [مشروع مارشال]^(٢)، ومع أوائل تموز ١٩٤٧م بدأ سيل من التعليقات والافتتاحيات والمحاضرات في الجامعات الأمريكية، وكلها تتحدث بصراحة عن الحرب الباردة... إلا أنها لم تتطرق إلى الحملة التي قمنا بها سرياً بقصد سدّ الفراغ. وقد وصفتها وكالة المخابرات المركزية بأدق العبارات وقالت: [إنها حرب لا كالحروب] .

" كان قرارنا الأخير أن تكون أولى مغامراتنا محاولةً للتدخل في الشؤون الداخلية لدولة مستقلة، وأن تكون المحاولة متواضعةً محدودةً ولكنها مؤيدة بتبريرات كافية ودون مساعدة البريطانيين، بل ودون درايتهم بها.

(١) مبدأ ترومان: السياسة التي اتبعها الرئيس الأمريكي ترومان لمواجهة التوسع الشيوعي،

ومنها تقديم المساعدات المادية للدولة التي قد تتأثر بالدعوة الشيوعية.

(٢) مشروع مارشال اسم يُطلق على مشروع لإنعاش الدول الأوروبية الغربية لمكافحة الجوع

والفقر واليأس والفوضى. وهدف هذا المشروع وقف المدّ الشيوعي.

ثم راح كوبلاند يتساءل:

"ولكن من أين نبدأ؟! لا يمكننا أن نبدأ من تركيا أو اليونان، فالبلدان حليفان لنا ويريدان ما نريده نحن.. كما لا يمكننا أن نبدأ في إيران لأننا في انسجام وتفاهم مع قيادتها، وبالتالي فلم يبق أمامنا سوى العالم العربي الذي بدأت الأمور تتفاقم بيننا وبينه، وكان ثانياً أن سبب هذا وجود قيادات طائشة مضللة على رأس السلطة في تلك الأقطار. وأن استلام مقاليد الحكم من أشخاص ذوي ثقافة أوسع وإدراك أعمق سينقل هذه الأقطار العربية من صنف المناوأة إلى صنف الموالاتة لنا. كما أن حذر العرب البالغ من السوفيات سيجعل الحماية الأمريكية لهم موضع ترحيب. فشركات البترول الأمريكية ستجعل منهم أغنياء قريباً. كما أن التوصل إلى أية تسوية حول مشكلة فلسطين ستجعل منهم المستفيد الرئيس لكل ما يتأتى منها. إلا أن إصرار حكامها يومها على رفضهم النظر في الأمور من خلال المنظار الأمريكي كان قد أعتبر مبرراً كافياً للإطاحة بهم. وهكذا كان وضع القيادات العربية في عام ١٩٤٧ م مبرراً كافياً للتدخل بشؤون العالم العربي.

"كان المفروض أن يكون العراق أول أهدافنا، فحكومته بوليسية مكروهة.. إلا أن الفريق المكلف بالتنفيذ في العراق لم يستطع مباشرة ذلك دون علم البريطانيين وموافقتهم، ورفضت حكومة المملكة العربية السعودية كافة اقتراحاتنا لتغيير طريقة الحكم فيها... كما أسقطنا من حسابنا التدخل في شؤون لبنان والأردن

ومصر لاعتبارات^(١) شتى.. ولم يبق أمامنا إلا سورية. فقد كانت في وضع اقتصادي مريح، كما أن الحاكمين التركي والفرنسي لم يُفلحا في إذلال^(٢) شعبها وترويضه. ولهذا فقد كانت ظروف سورية ملائمة جداً لإجراء انتخابات ديمقراطية.. قمنا بمراقبة عامة غير رسمية على إجراء الاقتراع، وضبط الأسماء على اللوائح، وحاولنا أن نوفر ذلك عن طريق رجال الصحافة الأجنبية الذين وُجّهت لهم الدعوات بهذا القصد، وقام فريق من العملاء السريين بالمساعدة في هذا المجال، دون الظهور بمظهر المؤيدين للمرشحين الموالين لنا. وكان جُلّ دورهم حثّ الشعب على انتخاب الرجال المواطنين المخلصين.

وقد فوّتنا الفرصة على الحكام السوريين بخصوص توجيه انتقادات لتدخلنا هنا وهناك عن طريق قيام القائم بالأعمال الأمريكي بزيارة إلى وزارة الخارجية السورية... وقامت الشركات الأمريكية الخاصّة بالتعاون مع أفراد الجالية الأمريكية، وبعض الإرساليات التبشيرية هناك، بتوجيه تحذير لأولئك السياسيين الذين اعتادوا اللجوء إلى الضغط والإكراه لحمل المواطنين على الإدلاء بأصواتهم لصالحهم من مغبة مثل هذه الأعمال... وتمكّن رئيس إرساليات طائفة الكنيسة الإصلاحية أن ينتزع وعداً من أكبر اتحاد للمثقفين الأكراد بأنهم زملاءهم لن يقوموا باستغلال أصوات الأيمن الأكراد ويكتبوا لهم على أوراق الاقتراع أسماء

(١) ما هي هذه الاعتبارات؟!، لم يذكر شيئاً عنها.

(٢) لقد تركوا للعسكريين عملية إذلال هذا الشعب!.

مرشحي الاتحاد... وكانت تلك الانتخابات الحرة^(١) الأولى من نوعها في سورية التي كان يعتقد شعبها أن الحكومة ما هي سوى مطية يتخذها الأجنبي لتحقيق مآربه والوصول إلى أهدافه عن طريق الرشوة والفساد.

" لم يكن الأمريكيون بتلك السداجة وذاك الغباء حيال الانتخابات السورية عام ١٩٤٧م. ولكنهم كانوا حديثي عهد في هذا الحقل.. ونتيجة لهذا بدأت وزارة الخارجية الأمريكية بتعليم أحسن موظفيها اللغة العربية وقامت بإطلاعهم على ثقافات الشرق الأوسط، وعلى كل ما يمت لهذا الموضوع بصلة... واستدعي تشارلز فيركسون الخبير في التعليم السريع للغات، من جامعة هارفرد ليبدأ فصلاً دراسية في اللغة العربية لبعض الدبلوماسيين الشباب. وكانت نتيجة هذه الفصول أن قارب عدد الدبلوماسيين الأمريكيين المتكلمين باللغة العربية عدد المتكلمين بها من البريطانيين وأربعة أضعاف المتكلمين بها من الروس، وأصدرت وزارة الخارجية أمراً بتعيين أرثشيبالد روزفلت [حفيد الرئيس تيودور روزفلت] كمنسق لنشاطنا السياسي الخاص وأرسلته إلى بيروت، وكان روزفلت قد أمضى عدة أشهر مع قبائل عربية وكردية وفارسية وكان يتكلم اللغة العربية والكردية والأزبكية والروسية والفرنسية والأسبانية وبضع لغات أخرى.. وبحلول عام ١٩٥٢م كان رجالنا في السلك الدبلوماسي في الشرق الأوسط من خيرة ما

(١) ليس صحيحاً ما زعمه عن انتخابات ١٩٤٧م، فالتاريخ الحديث يؤكد أن هذه

الانتخابات كانت في دمشق وكثير من المناطق السورية مثلاً في التزوير المكشوف.

بمقدور حكومتنا تقديمه.

ويمضي كوبلاند في حديثه عن استعداد الولايات المتحدة [١٩٤٧ - ١٩٥٢ م] للعب دور كبير في الشرق الأوسط وبذل وزارة خارجيتها أقصى جهدها لإقناع الدول العربية بأنها ليست واقعةً تحت تأثير الضغط الصهيوني، وكانت وجهة نظرهم: [دعنا ننتظر حتى يتبين لنا ما يجب أن نفعله] ثم يستدرك فيقول: إلا أننا لم نلتزم بهذه القواعد في سورية، فقد خضنا المغامرات قبل أن نألف الوجوه التي حولنا وتألّفنا. ومن جهة أخرى فقد كانت العملية التي قمنا بتنفيذها في سورية غريبةً عن القواعد السابقة الذكر وجديرةً بدراسة خاصة. لقد أكسبتنا خبرةً فائقةً في هذا المضمار، وجنّبنا أخطاءً فادحةً، ثم يصل في استطراده إلى دوره في السفارة السورية، فيشير إلى رئيس البعثة في دمشق جيمز ميكائيل كييلي، وكان برتبة وزير مُفَوّض، وكان رجلاً يعتمد عليه في الملّمات ويتمتع بقدره عجيبة على اتخاذ القرارات دون الحاجة للرجوع إلى المراجع العليا في واشنطن، وأما رجل التنفيذ في السفارة فكان الميجر ستيفن ميد، أما المسؤول عن الدبلوماسية السرية فقد كان مايلز كوبلاند مؤلف هذا الكتاب.

ويقول عن نفسه:

" وصلتُ دمشق في أيلول عام ١٩٤٧ م حاملاً تعليمات تقضي أن أحقق اتصالات غير رسمية مع الرئيس القوتلي وغيره من الزعماء الرئيسيين في الحكومة السورية، وكان عليّ أن أبذل قصارى جهدي حتى أفلح في إقناعهم بمزيد من

الحريات السياسية، ومن تلقاء أنفسهم... لقد أفلحتُ في إقامة علاقات شخصية مع القوتلي ومع أصحاب الشأن حوله، لكنني عجزتُ عن إقناعهم بضرورة التغيير، فكتبت تقريراً للسفير كييلي أقنعه بالحقيقية المُرة وهو أن الوضع يتجه نحو انفجار سياسي بدأتُ معالمة تلوح في الأفق، وبعدها خاطبني كييلي: "إنه لم يبق أمامنا إلا طريقتين أحلاهما مُرٌّ"، وكان كييلي يعني بذلك أنه لا بد لتلك الأوضاع السياسية المتدهورة أن تنتهي إلى نتيجتين: إما ثورة مسلحة دموية يقودها بعض الانتهازيين بدعم سري من السوفييات أو إلى حركة يقوم بها الجيش السوري بدعم سري^(١) منا [أي الأمريكيين] يقصد الإطاحة بالنظام القائم والمحافظة على النظام والهدوء حتى يحين الوقت لقيام ثورة سلمية تتمكن من تسيير دفة الحكم واستلام مقاليد الأمور.

ثم يقول عن أول انقلاب عسكري في سورية:

"إن انقلاب حسني الزعيم من إعدادنا وتخطيطنا، فقد قام فريق العمل السياسي بإدارة الميجر ميد بإنشاء علاقات صداقة منظمّة مع حسني الزعيم الذي كان رئيساً لأركان الجيش السوري، ومن خلال هذه الصداقة أوحى^(٢) الميجر ميد لحسني الزعيم بفكرة القيام بانقلاب. اضطلعنا - نحن في السفارة - بمهمة وضع كامل خطته وإثبات كافة التفاصيل المعقّدة، إلا أن تحركاتنا هذه لم تشر أكثر من

(١) وهذا هو بيت القصيد، وليس صحيحاً زعمهم أنهم يريدون الخير لنا.

(٢) كيف أوحى؟ لا يريد الدخول بالأسرار والتفصيلات.

شكوك عند السياسيين السوريين فقد كانت كلها سريةً ومتقنةً الوضع والتخطيط. وأثارت هذه الشكوك^(١) - فيما بعد - فضول رجال الصحافة الغربيين وفئات من الطلبة فقاموا بإجراء مقابلات مع من كان لهم ضلع في العملية كما قاموا بفحص الوثائق التي لها صلة بالموضوع، وكانت نتيجة ذلك أن اعترفوا بصحة شكوك الساسة السوريين ودقتها. بيد أن الانقلاب حافظ على صبغة سورية مخضبة أمام أنظار العالم الخارجي إلى أن بدأت الروائح تفوح منه وأخذت الألسن تتناقل: [إن حسني الزعيم ليس أكثر من مجرد صبي من صبيان الأمريكان] .

وعن استعراض كوبلاند لشيء يسير من تفاصيل هذا الانقلاب يقول:

" أخبرتُ وزارة الخارجية الأمريكية بنية القيام بالانقلاب وأنه قد أوشك أن يقع إلا أنها استغنت عن طلب تفاصيل أخرى ولم تر ضرورة التدخل بها. بل تركتها لنا نتدبرها في دمشق... الزعيم من جهته أكد مراراً أنه لا ينوي العودة بالبلاد إلى الحكم البرلماني، كما أكد أنه سيتخذ بعض الإجراءات الإيجابية لإنهاء النزاع العربي الإسرائيلي، وكانت هذه الفكرة الأخيرة بمثابة المخدر الذي ثنى وزارة الخارجية الأمريكية عن عزمها على طلب إلغاء فكرة الانقلاب العسكري.

" أخطأ كييلي عندما ظن أن سلطتنا على حسني الزعيم ستبقى قويةً إلى الحد الذي ستلزمه بإعادة الحياة الديمقراطية إلى البلاد عند أول فرصة ممكنة. وظن أن ذلك أمر يسير لما نتمتع به من قوة إقناع.. ورأى أن قيام حكم ديكتاتوري لمدة

(١) سيأتي الحديث عن هذه الشكوك.

قصيرة.. سيساعدهم على إقامة نظامي ديمقراطي مستقل.. أما دين هنتون المسؤول السياسي في السفارة فقد رفض فكرة الانقلاب مما دعا البعثة إلى إبعاده عن اجتماعاتهم، ومن جملة ما قاله هنتون يوم علم بوقوع الانقلاب: [من أشدّ الأمور ^(١) غباءً وسوءاً ترتكبها بعثة ديبلوماسية مثل بعثتنا. لقد بدأنا سلسلة من هذه الانقلابات العسكرية التي لن تنتهي أبداً] وسجّل اعتراضاته في تقرير أرسله إلى وزارة الخارجية حيث يقبع هذا التقرير الآن في قسم الأرشيف الذي تتكدس فوقه طباقات كثيفة من الغبار.

وعن الزعيم قال كوبلاند:

" كان حسني الزعيم رجلاً لينا سهل الانقياد قبل الانقلاب ولم يخطر ببالنا أن هذه الصفات الشخصية قد تتغير بعد تغيير الأحوال والزمان. وحتى تاريخ صدور الاعتراف الرسمي الأمريكي بنظام الحكم الجديد في سورية لم يبدُ أي تغيير يُذكر على طبيعة سلوك حسني الزعيم. وفي اليوم الثاني للانقلاب أمضى الميجر ميد ساعات طويلة مع حسني الزعيم وهو يحدد له جملةً من الأمور التي يجب عليه أن يقوم بها.. وما أن أذيع الاعتراف الأمريكي بنظام الحكم الجديد حتى بدأ حسني الزعيم وكأنه رجل جديد لا يمتُّ إلى الماضي بصلة. فقد أبلغني الميجر في أحد الأيام فجأةً أن علينا أن نتمثّل له قياماً كلما دخل القاعة. وأنه من الضروري تبديل

(١) هنتون كان صغير السن - كما يقول كوبلاند - ولم يتلوّث بعد بجرائم السياسيين

الأمريكان وتناقضات مواقفهم ويعترف كوبلاند أن ما تنبأ به هنتون قد حدث فعلاً.

كلمة أنت بكلمة أنتم في سياق خطابنا له - وكان يتكلم الفرنسية - بل ويستحسن استبدالها بـ [صاحب الفخامة] . وباستثناء هذه الأمور الثانوية فقد بقيت علاقاتنا معه وديّة لآخر أيامه. إلا أننا قد أغفلنا أمراً ضرورياً جداً عند رسم خططنا وأن الوقت قد حان لبدء البحث عن رجل آخر يحل محل حسني الزعيم الذي لا محالة قد اقترب من نهايته ". انتهى ما أردنا نقله من كتاب مايلز كوبلاند [لعبة الأمم].

اتصالات الزعيم بالإسرائيليين

أستعيد ذكر ما قلته سابقاً:

إن المخادع المغامر الكذاب، الذي أدمن على لعب القمار لا يتورّع عن فعل أي شيء مهمل كان دنيئاً لاسيما إذا بلغ من الكبر عتياً، دون أن يؤوب إلى رشده ويتوب إلى ربه.

وهذا هو شأن حسني الزعيم الذي تجاوز الستين من سني عمره عندما قام بانقلابه العسكري، ونكثه بيمينه ووعوده، وفعل فعلته بالرجل الذي أحسن إليه -شكري القوتلي-، وكان يقبل يده صباح مساء.

ولقد رأينا فيما مضى دور الأمريكان في التخطيط لهذا الانقلاب وفي الإشراف عليه بعد نجاحه، وحسني الزعيم من أوائل الذين يعلمون بأن أمريكا لا ترضى على أمثاله إلا إذا رضيت عليهم إسرائيل، ولهذا فقد اتجه هذا الاتجاه، وهذه هي بعض القرائن، وما لم تكشفه الوثائق أكثر:

١- في ٢٠ تموز ١٩٤٩م تمّ عقد اتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل، وبموجب هذه الاتفاقية فقد تخلّى الجيش السوري عن مناطق كان يحتلّها، كما اتفق الطرفان على وجود منطقة منزوعة السلاح تحت إشراف الأمم المتحدة، وكانت الحكومة المدنية ترفض مثل هذه الاتفاقية التي لا تخدم إلا إسرائيل. والمعارضة التي كانت تقيم الدنيا ولا تقعدّها على شكري القوتلي صممت صموت الأموات على اتفاقية الخيانة ولم تحرك ساكناً.

٢- كامل حسين إقطاعي متنفّذ من أهالي الخالصة الفلسطينية ومن خريجي الجامعة الأمريكية، وكان زعيماً لعشيرته، وله وجود قوي في جنوبي لبنان، ويرأس شبكة تجسس تعمل لحساب إسرائيل، وكان من قبل يعمل لحساب الإنجليز خلال استعمارهم لفلسطين.

كامل حسين كان صديقاً لحسني الزعيم. متى بدأت هذه الصداقة؟، لا ندرى، ولكن عندما كان حسني الزعيم مديراً للشرطة والأمن العام كان كامل يتردد خلسةً على دمشق [لأنه ممنوع من دخولها]، وله سهرات صاخبة مع الزعيم يلعبان فيها القمار ويتعمّد الحسني أن يخسر مبالغ طائلةً لصالح الزعيم، وفي مثل هذه الأجواء الماجنة تختفي الأسرار ويُقال كل شيء، وكان المٌطلعون ينقلون مثل هذه الأخبار.

وبعد انقلاب الزعيم وتقلّده منصب رئيس الجمهورية أرسل أحد ضباطه ومعه جنديان وأطلقوا النار على كامل حسين فوق جثة هامدة، وألقت القوات اللبنانية القبض على الضابط وسجنته بحجة أن قتل الحسني كان داخل الأراضي اللبنانية.

توترت العلاقات بين البلدين وضغط الزعيم على لبنان فاضطرت للإفراج عن الضابط وترحيله إلى سورية، إلا أن هذه المسألة كشفت علاقة حسني الزعيم

بكامل حسين التي كان من الممكن أن تبقى محدودة.^(١)

٣- قال سامي جمعة ما خلاصته: أنه رأى وزير خارجية إسرائيل موسى شرتوك يدخل فندق بلودان وكان يرتدي لباساً عسكرياً سورياً ويحمل رتبة مقدم، وكان يرافقه المقدم إبراهيم الحسيني، وعندما نقل سامي جمعة هذا الخبر لرئيس الشعبة الثانية [المخابرات العسكرية] العقيد سعيد حبي أصرّ أن يرى هذا المشهد بنفسه، وكان له ذلك بعد أن تخفّى بصورة عامل في حديقة الفندق، وينقل جمعة عن حبي أنه قال له: " لقد كانت لدي معلومات عن اتصالات تجري بين الزعيم وإسرائيل لإبرام معاهدة للصلح وأن عدة اجتماعات قد عُقدت في الجاعونة على الحدود السورية الفلسطينية بين ممثلين للزعيم وممثلين إسرائيليين لبحث هذا الموضوع، ولكن لم أتصور أن تبلغ الوقاحة بالزعيم أن يأتي بموسى شرتوك إلى بلودان ".

قلت: والذي توصلتُ إليه أن هناك اتصالات كانت تجري بين الزعيم والإسرائيليين، وما نُشر من الوثائق: الأمريكية، والفرنسية والإسرائيلية تشير إلى حدوث مثل هذه الاتصالات التي لا تتفق مع آمال العرب وتطلعاتهم، أما أن

(١) اعتمدت على ما سمعته من ثقات من أهل فلسطين يعرفون كامل الحسين وقصته مع الزعيم كما يعرفون تجسس الحسين لحساب إسرائيل، وبعض هؤلاء ما زالوا أحياء، وانظر إن شئت هذه المسألة في كتاب أوراق من دفتر الوطن لسامي جمعة ومذكرات أكرم الحوراني، ومذكرات الأمير عادل أرسلان.

تكون هذه الاتصالات قد جرت في بلودان وأن وزير الخارجية الأمير عادل أرسلان - كما يقول سامي جمعة - كان مشاركاً فيها، فهذا - في حدود ما اطلّعت عليه - مما انفرد به سامي جمعة وهو عندي ولأسباب كثيرة مطعون بأمانته، وبالأخص في زعمه أن الأمير عادل أرسلان شارك في اجتماعات الزعيم مع وزير الخارجية الإسرائيلية موسى شرتوك في بلودان. فلعادل أرسلان تاريخ مشهود في العمل الوطني، فهو من أوائل الذين حملوا السلاح ضد فرنسا، ثم أصبح شريداً يعيش في خيمة لا تقيه حرّاً ولا برداً، فهل من المعقول أن يضحّي بهذا التاريخ ويلتقي مع شرتوك؟!.

وفي اجتماع لمجلس الوزراء عرض عليه الزعيم اللقاء مع شرتوك في القنيطرة، فكان جوابه: لن أعترف بدولة إسرائيل، ولن أقابل وزير خارجيتها. هذا ما جاء في مذكراته، ولما لم يرد عليه أحد من الوزراء، وبالأخص الذين كتبوا مذكراتهم رغم اتهامه لبعضهم بتبني مبادرة الزعيم والدفاع عنها فهذا يعني أنه لم يجدوا ما يدينونه به.

عادل أرسلان قوي الشخصية، معتر بتاريخ أسرته، وهو الوحيد الذي كان لا يخشى الزعيم، ويقول وزير العدل أسعد الكوراني أن الزعيم رفع يده مهدداً فأمسك أرسلان يده بقوة وردّ عليه بلهجة شديدة فسكت الزعيم وظهر ضعفه أمام أرسلان.

وكتب عادل أرسلان في مذكراته:

" كنت أقول للمستر كيلى: لماذا تريدون مني أن أقبل بمقابلة شرتوك وأنتم تعلمون أنني لم أنخدع قط ببلف اليهود وأني أبعد العرب عن التساهل معهم، فأجاب: سؤالك هذا يوجب عليّ إعطاءك جواباً صريحاً ولا يجوز لي أن أبوح بالسرّ الذي أحفظه في هذا الموضوع لكنني أعلم أنك رجل شريف، فأنا أسألك أن تكتم هذا السرّ، فقلت: سأكتمه. قال: إن الزعيم هو الذي طلب أن يجتمع إلى بن غوريون... لكن هذا رفض، فرأينا أن يكون الاجتماع بين وزير خارجية سورية ووزير خارجية إسرائيل. وهذا هو رأي شرتوك، لذلك تقدّم بالاقترح الذي رفضته أنت. شعرتُ بشغاف قلبي يتمزّق بينا الأمريكي يتكلم وأنا أساند رأسي على يدي... الخ " الاثنين ٦ حزيران ١٩٤٩ م.

لو كان كلام أرسلان غير صحيح لردّ عليه خصومه لاسيما وأن كثيراً من الأسرار قد كُشفت، وأرسلان شديد في الهجوم على خصومه، وهذه فرصتهم لو وجدوا ممسكاً يدينه.

رسالة علق للزعيم:

سارع حزب البعث إلى تأييد انقلاب حسني الزعيم وكلهم أمل أنه سيكون لهم سهم من هذه الغنيمة، لكن رياح الزعيم جرت في غير الاتجاه الذي يريده الحزب، وأرادوا أن يُحرّكوا مياهم الراكدة فأصدروا بياناً ينتقدون فيه ما آل إليه أمر الانقلاب الجديد. كانت لغة البيان هادئةً ولكن الزعيم ليس شكري القوتلي أو

خالدًا العظم.

ألقت قوات الأمن القبض على ميشيل عفلق وشركائه في قيادة البعث وزجّت بهم في سجن المزة، وعفلق ضعيف البنية، مرهف الإحساس، لا يقوى على حياة السجون، ولا يستطيع الانقطاع عن شرب الدخان ولا التنظير، وأين هذا وذاك في زنازة منفردة في سجن المزة؟! أضف إلى كل ذلك ضغط السجّانين النفسي: الزعيم يفكّر بإعدامك وإعدام آخرين من قيادة الحزب، ورغم أن عفلق لم يتعرّض للتعذيب الجسدي فقد كتب الرسالة الآتية وأرسلها إلى حسني الزعيم:

" سيدي دولة الزعيم:

إن هذه التجربة الأخيرة القاسية قد علمتني أشياء ونبّهتني إلى أخطاء كثيرة، لقد انتهيتُ إلى أننا - بحكم العادة - بقينا نستعمل أسلوباً لم يعد يصلح في عهد الإنشاء والعمل الإيجابي. والحق أننا في قلوبنا وعقولنا أردنا هذا الانقلاب منذ الساعة الأولى ولا نزال نريده ونعتبر أن واجبنا هو في خدمته وتأييده، ولكن الأسلوب الذي اعتدناه طيلة سنين عديدة من المعارضة للانتداب والعهد السابق هو الذي بقيت آثاره في كتاباتنا وبعض تصرّفاتنا وهو الذي أخفى عنكم يا دولة الزعيم حقيقتنا وأظهرنا بمظهر المعارض لعهد وضعنا فيه كل آمالنا وصمّمنا على خدمته بتفان وإخلاص.

سيدي دولة الزعيم:

إنني قانع كل القناعة بأن هذا العهد الذي ترعونه وتنشئونه يمثل أعظم الآمال وإمكانيات التقدّم والمجد لبلادنا، فإذا شئتم فسنكون في عداد الجنود البنائين. وإذا رغبتكم في أن نلزم حدود الصمت فنحن مستعدّون لذلك.

إن هذه المجموعة من الشباب التي يضمّها البعث العربي قد عملت كثيراً في الماضي لتكون قدوةً في النزاهة والوطنية الصادقة وإن ماضيها ليشفع لها عندكم يا سيدي لكي تُقدّروا ما ظهر منها من تسرع بريء. وإن وراء مظهرها النّزق نفوساً صافيةً ومؤهلات ثمينة للخدمة العامة ما أجدر عهدكم أن يفسح لها مجال النصح والإنتاج. أما أنا يا سيدي الزعيم فقد اخترت أن أنسحب نهائياً من كل عمل سياسي بعد أن انتبهتُ بمناسبة سجنني إلى أخطاء تُورّثني إياها سنوات طويلة من النضال القومي ضد الاستعمار والعهد السابق. وأعتقد أن مهمتي قد انتهت، وأن أسلوبني لم يعد يصلح لعهد جديد، وأن بلادي لن تجد من عملي السياسي أي نفع بعد اليوم.

سيدي دولة الزعيم:

أنتم اليوم بكمكان الأب لأبناء البلد، ولا يمكن أن تحملوا حقداً لأبنائكم. ولقد كان لنا في هذه التجربة تنبيه كاف ومفيد، فتركوا لنا المجال كي نصصح خطأنا ونقدّم لكم البراهين على ولائنا.

ميشيل عفلق "

وفي يوم: ١٣/٦/١٩٤٩م نشرت الصحف السورية صورة رسالة عفلق بالزنكوغراف بخط يده.

تعليق:

بعد صدور هذا البيان تم الإفراج عن ميشيل عفلق وتلاه الإفراج عن البعثيين المعتقلين، لكن البيان كان موضع استنكار بين شباب حزب البعث وتداعوا لاجتماعات ومؤتمرات ومناقشات حامية، وأراد بعضهم فصله، ولكن هذا الرأي أبعد وبقي عفلق فيلسوفاً ومنظراً وقائداً للحزب، وقال نفر من كبارهم لا بعث بلا عفلق، وهذا هو شأننا نحن العرب سواء كنا حكاماً أو زعماء أحزاب أو شيوخ عشائر.

قد نلتمس العذر لسجين عندما يقدم تنازلات ويتراجع عن معتقدات كان يراها إذا عذب تعذيباً وحشياً ونفسياً وهُدّد بانتهاك عرضه، لكن شيئاً من هذا لم يحدث لميشيل عفلق. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهو رمز، والرمز يجب أن يصبر صبراً يتناسب مع مكانته ومن أجل أن يكون قدوة لأعضاء حزبه ولم يكن عفلق كذلك.

وأخيراً فإن عفلق وعد في رسالته أن يعتزل السياسة ولم يف بوعده بل أصبح وزيراً للمعارف في أول حكومة تشكلت بعد الانقلاب الذي أطاح بالزعيم. يقول الأمير عادل أرسلان ما موجهه:

"تخبّط الوزارة ظاهر لأن وزير المعارف - ميشيل عفلق - يعمل برأي أعضاء

حزبه لا برأي خبراء الوزارة، ويحاول إقصاء هؤلاء عنها ليضع في مكانهم شباباً من حزبه تنقصهم التجربة والمعرفة". ويضيف: "ما كنت أعلم قبل اليوم أن الدكتور عبد الرحمن الكيالي هو الذي طرد السيد ميشيل عفلق من وظيفة أستاذ في التجهيز لمجاهرته بالشيوعية". ١٤ / ١٠ / ١٩٤٩ م.

هذا هو عفلق وهذه هي انتهازيته وحزبه على شاكلته بل هو القدوة والأب الروحي فيه.

نهاية الطاغية:

ارتكب حسني الزعيم أخطاءً فادحةً. لقد تضاعف غروره، فكان يضع [المونوكل] أي زجاجة واحدة على عينه على الطريقة الإنجليزية وبیده عصا صغيرة يحملها عادةً كبار الضباط وبیده اليسرى كفوف بيضاء، وهذا لا يتناسب مع مستواه المتواضع ولا مع عادات وطباع العرب.

فقد جعل من سورية التي قهرت الاستعمار الفرنسي أداةً طيعةً بيد كل من أمريكا وأساتذته الفرنسيين. إلا أن أهم أخطاء الزعيم تسليمه مؤسس وزعيم الحزب القومي السوري للحكومة اللبنانية التي سارعت إلى محاكمته وإعدامه. لقد جنّ جنون الضباط القوميين السوريين وأصرّوا على الانتقام لسعادة من الزعيم ووطنه، وهذا مما عجّل في الانقلاب عليه.

اللافت للنظر أن أعزّ أصدقاء الزعيم وأقرب الناس إليه ولعله الوحيد الذي يأمن جانبه هو من قاد هذا الانقلاب العسكري. يا سبحان الله كان شكري القوتلي

يعتقد أن الزعيم أضعف من أن يقود انقلاباً عسكرياً ضد رمز الاستقلال شكري القوتلي .. ثم جاء الزعيم الذي كان يرى أن سامي الحناوي من المستحيل أن يدبر ويقود انقلاباً ضده بسبب ضعفه وتفانيه في حب الزعيم .. ثم كان هو الذي قاد الانقلاب، ولم يضع الزعيم في سجن المستشفى العسكري كما حدث مع القوتلي بل بالإعدام الفوري ومواراة جثته بالمقبرة الفرنسية، وقديماً قالت العرب: " بمثل ما تدين تُدان " وقالت: " من مأمّنه يُؤتى الحذر " .

كان من أبرز الذين دبروا ونفذوا هذا الانقلاب:

سامي الحناوي الذي أصبح رئيساً للأركان، بهيج الكلاس، علم الدين القواص، أمين أبو عساف، فضل الله أبو منصور، عصام مريود، محمد معروف.

أما من وراء هؤلاء الضباط؟! فهم: الحزب القومي السوري، وأكرم الحوراني، واستفاد حزب الشعب فيما بعد من رجل معتدل حيادي مثل سامي الحناوي. ومما جاء في مذكرات أكرم الحوراني أن عصام مريود قرع منزل أكرم الحوراني ليلة الانقلاب، وعندما فتح الحوراني الباب قال له: هل تريد أن آتيك بمحسن البرازي ليقبّل حذاءك وكان مريود قد أسرف في الشراب. وفي ساحة الإعدام بكى محسن هلعاً فقال له فضل الله أبو منصور: ولكن أنطون سعادة لم يبك عندما أعدموه، وجدير بالذكر أن الانقلاب جرى يوم: ١٤/٨/١٩٤٩ م.

ويقول عادل أرسلان في مذكراته التي كتبها يوم ٢١/٨/١٩٤٩ م:

" فلما أيقن - حسني الزعيم - أنه مقتول وقف وصدّره بارز وأخذ سلام

الموت فتولى الضابط فضل الله أبو منصور إطلاق الرصاص عليه " .

قلت: لقد كان شجاعاً حقاً عندما دنت منيَّته، ولكن لا أدري ما هو هذا سلام الموت هل هو تقليد غربي فيقلده هذا الذي حرمه الله نعمة الإيمان في آخر لحظات حياته؟!، ولماذا لم يصل ركعتين؟! أو لماذا لا يختم حياته بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؟! هكذا عاش حسني الزعيم وهكذا مات، مع أنه ابن شيخ فاضل من شيوخ حلب، وكان أخوه كذلك شيخاً فاضلاً!!.

اعتدأه على حرمان الله:

آمن العثمانيون بالإسلام ديناً ودولةً ونظام حياة، ولهذا فلقد كان عهدهم امتداداً للعهدين الأموي والعباسي، وفي الثلث الأخير من القرن التاسع عشر قنن علماءهم أحكام الشريعة الإسلامية فيما أسموه مجلة الأحكام العدلية، ورغم الأعاصير والمنعطفات التي مرّت بها سورية فقد بقيت مجلة الأحكام العدلية هي المطبّقة، وكانت نية علماء الأمة إعادة النظر في المجلة لتصاغ أحكامها من جميع اجتهادات العلماء وليس من الاجتهاد الحنفي وحده. يقول أستاذنا الشيخ مصطفى الزرقا رحمه الله:

" غير أننا ونحن في هذا الطريق، وأبصارنا معلقة بنهايته، ووزارة العدل السورية تكلف الأخصائيين بوضع قانون مدني مستمد من الفقه الإسلامي وواف بالحاجات الزمنية الجديدة. فوجئنا بإصدار القانون المدني السوري في عهد الانقلاب العسكري الأول الذي حدث لدينا ٣٠ آذار ١٩٤٩م، وكان صدور هذا

القانون بمساعي السيد أسعد الكوراني الذي ولاه الزعيم وزارة العدل السورية. فقد اهتبل السيد الكوراني فرصة ذلك العهد الانقلابي والحكم الإرهابي، وأقنع زعيم الانقلاب الذي تولى السلطتين التشريعية والتنفيذية بأن إقامة قانون مدني أجنبي بدلاً من التشريع الإسلامي وفقهه في هذه البلاد هو خير وسيلة لخلود الذكر وعظيم المكانة في نظر الأجانب، وأوهمه أن هذا العمل يجعله كنبليون الذي كان القانون المدني الفرنسي أكبر تخليداً له من فتوحاته!!^(١).

عندما أنجز أسعد الكوراني كتابة القانون المدني أراد رئيس الوزراء حسني الزعيم من الوزراء الموافقة عليه دون تلاوة، فرفض نائب رئيس الوزراء عادل أرسلان ورفض أيضاً وزير المعارف خليل مردم فأمهلهما مجلس الوزراء حتى الجلسة القادمة ويقول عادل أرسلان في هذا الصدد:

" البلاد تحتاج إلى قانون مدني لكنني لا أعتقد أن الفقه الإسلامي يضيق عن حاجات دولة عصرية تريد التجرد، فإن وجدت في القانون ما ينافي مبادئنا في جوهرها فسأرفض توقيعه ". الاثنين ١٦ أيار ١٩٤٩ م.

عادل أرسلان درزي وعلماني لكنه في هذا الموضوع يُقدّر سوء ما فعله الزعيم ويراعي مشاعر الأمة المسلمة. ويقول بعد قراءته للقانون:

(١) المدخل الفقهي العام. الفقه الإسلامي في ثوبه الجديد. المجلد الأول. ص: ٤. مصطفى

".. فلما بلغنا الصفحة الثانية حتى ظهرت لنا الحقيقة فهو قانون يعطل أعمال المحاكم السورية ويشل المحاماة ولا يستطيع الحكم بموجبه إلا القضاة الذين درسوا الحقوق في فرنسا لأنه يضطرهم إلى مراجعة قوانينها فضلاً عن قوانين كثيرة غيره، وهو ركيك العبارة سقيم الترجمة، فحرنا في أمرنا. ألقى في روع الزعيم حسني أن هذا القانون يكون كبرى مفاخر العهد الجديد في سورية فيا ليته كذلك". الثلاثاء ١٧ أيار ١٩٤٩م.

أما وزير العدل أسعد كوراني فاستبدال أحكام الشريعة الإسلامية بقانون فرنسي هدف قديم عنده، وأعلن عن شيء من هذا في مؤتمر المحامين السوريين الذي انعقد في بلودان صيف ١٩٤٢م، ويرى أن الفقه الإسلامي لا يتصل بالعقيدة الدينية التي جاء بها هذا الدين الحنيف، ويقول:

"ورأيي على ما صرحتُ به يومئذ كان وما زال وجوب فصل الدين عن الحكم، وأن كل نص على دين الدولة في الدستور ليس إلا زخرفاً كلامياً لا مفعول له فيما يصدر من تشريع".

وقال أيضاً:

"ولما كان الرئيس القوتلي يعمل على تعديل الدستور لإعادة انتخابه رئيساً للجمهورية سألني محسن البرازي في إحدى السهرات عن رأيي في التعديل، فأجبتُه بأنني أرى أن يقتصر التعديل على حذف تحديد دين الرئيس بالإسلام حتى يُنتخب

فارس الخوري للرئاسة الأولى تكريماً لخدماته الوطنية" (١).

وامتدّت يد الانقلابيين الأثيمة إلى الأوقاف الذرية فألغتها، وإلى الأوقاف الأخرى فغيّرت وبدّلت من شروطها، يقول عادل أرسلان:

"واتفقنا على إلغاء أوقاف الذرية وعلى مقابلة التابلاين بعد أن أكّد رئيس الوزراء أن ملك مصر والملك السعودي طلبا الإسراع في قبولها، وبعد أن رأينا حالة البلاد المالية توجب قبولها، أوقاف الذرية علّة في جسم الأمة ينتفع بها المحامون لما تسببه من دعاوى لا تنتهي. وقد أنقذنا الناس منها وجعلنا عشرة بالمئة من إيراد الأوقاف الخيرية للجيش السوري". مذكرات أرسلان، الاثنين ١٦ أيار ١٩٤٩ م.

الأوقاف أحكام شرعية، وإذا كانت هذه الأحكام تحتاج إلى إعادة نظر، فهذا اجتهاد يُعرض على مجمع فقهي أعضاؤه علماء مسلمون من أهل الاجتهاد ومشهود لهم بالصلاح، ولا يجوز أن يُعرض على حكومة أعضاؤها من الدروز والنصارى والعلمانيين، ومثل هذا الأمر قرّره فرنسا في عهد وزارة جميل مردم سنة ١٩٣٨ م، ولكن جمعية العلماء وقفت بوجه هذا القرار فألغته فرنسا واستقالت وزارة مردم، ثم جاء حسني الزعيم بانقلابه العسكري فحقق ما عجزت عن تحقيقه فرنسا.

وبعد: هذه المنكرات التي ارتكبتها حسني الزعيم خلال ثلاثة شهور ونصف الشهر، ولو طال به العهد لفعل بسورية ما فعله أتاتورك بالدولة العثمانية.

(١) ذكريات وخواطر. أسعد الكوراني.

يقول من كان أقرب الناس إليه:

" كان مهتماً بمظهره وبمظهر المواطن السوري .. أسوة بما في تركيا عهد مصطفى كمال - أتاتورك - . كان يرفض اعتياد الطربوش خلافاً للتقليد المتبع لدى رئيس الجمهورية السابق شكري القوتلي وكبار سياسي سورية آنذاك. وكان الزعيم عازماً على توحيد اللباس في سورية وإلغاء الطربوش نهائياً.

قلتُ للزعيم مرّةٍ إنني عازم على الاستقالة لأنني كصحافي، كنت أربح خمسة آلاف ليرة سورية، وكسكرتير خاص له في رئاسة الجمهورية كان راتبي ثمانمائة ليرة فقط، فقال لي الزعيم: سأجعلك مليونيراً بالحلال. استغربت فتابع الزعيم قائلاً لي أن أذهب إلى بيروت وأوصي لدى بعض تجارها استيراد مليوني برنيطة يريد أن يُجبر السوريين على اعتيادها بدلاً من الطربوش. ولو ربحت نصف ليرة من ثمن كل برنيطة كعمولة، أصبحت مليونيراً، شخصياً ضحكْتُ كثيراً، ولكنه كان جاداً".^(١)

(١) أيام حسني الزعيم. نذري فنصة.

الخلاصة:

- ١- انقلاب حسني الزعيم كان أول انقلاب في تاريخ سورية المعاصر، كما كان بداية تحول في تاريخ سورية المستقلة وربطها باستعمار من نوع جديد.
- ٢- توسّعتُ فيما نقلته عن كتاب لعبة الأمم لمؤلفه رجل المخابرات الأمريكية مايلز كوبلاند، لأن هذا الذي نقلته يوضّح لنا السياسة التي انتهجتها الولايات المتحدة الأمريكية في سورية بالذات ثم في البلاد العربية من بعد الحرب العالمية الثانية وحتى يومنا هذا، وهي بمثابة لاعب ولعبة ومتى يُبدّل اللاعب ومتى تُعدّل اللعبة، ولا بد أن يكون الشريك في سورية عسكرياً، وأخطر شريك في هذه اللعبة كان حافظ الأسد ثم ابنه المعتوه - بشار - من بعده.
- ٣- كثر حديث المؤلفين عن اعتماد حسني الزعيم على الأكراد، فأخواله أكراد ورئيس وزرائه محسن البرازي كردي، وقالوا: وإلى جانب الأكراد كان يعتمد أيضاً على الشركس واليوغسلاف ومنهم حرسه. ليست مشكلة الأمة مع هذه الأقليات فهم إخواننا، ولكن مشكلتها مع المستعمر الدخيل الذي اتبع سياسة [فرّق تَسُد] ، فقرّب إليه طوائف وأبعد طوائف أخرى، وعلى هذه الخطى سار الانقلابيون، وجعل كل منهم من طائفته حزباً يتستر به ويستخدمه في صراعه ضد خصومه.
- ٤- اطلّعتُ على بيان صادر عن الإخوان المسلمين في تأييد انقلاب حسني الزعيم، وفي نفسي شيء من هذا البيان، فالعقلية التي يفكر بها قائد مسيرة الإخوان أستاذنا مصطفى السباعي بعيدة عن مثل هذا التأييد.

٥- كان حسني الزعيم مفتوناً بشخصية مصطفى كمال، وكان يريد أن يفعل في سورية ما فعله أتاتورك في الدولة العثمانية، ولكن الله سبحانه وتعالى أخذه أخذ عزيز مقتدر وجعله عبرة لمن يعتبر. أخذه كما أخذ أتاتورك من قبله، وكما أخذ أديب الشيشكلي وجمال عبد الناصر، وحافظ الأسد، ومعمّر القذافي من بعده. قال تعالى:

﴿ كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾ ﴾ المجادلة: ٢١.

الفهرس

٩ المقدمة
١٩ هذه المذكرات
٤١ الاسم والنسب
٤٥ وقفات
٦١ دارنا من الداخل
٧٩ الاحتلال الفرنسي لسورية وثورة حوران
٨٧ هبة حوران الأولى ومقتل الدروبي
٨٩ هبة حوران
١٠٤ معاهدة الشيخ مسكين
١١٥ وقفات متنوعة مع ثورة حوران
١٢٣ الراية تتبع الإنجيل
١٢٥ الشاعر القروي وثورة حوران
١٢٩ الراية تتبعا لانجيل
١٣٣ معلومات متفرقة
١٣٥ الاستقلال
١٤٢ مارأيتو ماسمعت

- ١٤٨ جيل الاستقلال.....
- ١٥٦ احتفال تسييل بالاستقلال.....
- ١٥٧ نظرات في تاريخ دروز جبل حوران المعاصر
- ١٦٠ الدروز وجبل حوران
- ١٦٦ العلاقات البريطانية الدرزية
- ١٧٠ موقف سلطان الأطرش من الإنجليز
- ١٧٢ وقفاتمعرسالةسلطانالجوايبة
- ١٧٤ شبهات بعضها فوق بعض
- ١٧٧ العلاقات الفرنسية الدرزية
- ١٧٩ الدروز بعد احتلال الفرنسيين للجيل - نابليون بونابرت والدروز
- ١٨١ يجي الأطرش والفرنسيون
- ١٨٧ دولة جبل الدروز
- ١٩٢ سارت مشرقة وسرت مغربا
- ١٩٥ ثورة سلطان الأطرش
- ٢٠٠ وقفات
- ٢٠٣ ثورة سورية الكبرى سنة ١٩٢٥ م
- ٢٠٨ جولة الشيخ الحسني في مذكرات الحوراني
- ٢١٢ دور الدروز في ثورة سورية الكبرى

- ٢١٣ تسلسل الأحداث
- ٢١٦ القائد العام للثورة السورية
- ٢٢١ أهل حوران وثورة ١٩٢٥ م
- ٢٢٩ موقعة المسيفرة
- ٢٣٢ الدروز بعد فشل الثورة السورية الكبرى
- ٢٣٢ سلطان بعد فشل الثورة
- ٢٣٤ تقويمنا لموقف سلطان الأخير
- ٢٤١ أيام القرية
- ٢٤٥ الحرائة
- ٢٥٢ فصل الربيع
- ٢٥٤ العزية
- ٢٥٧ تسيل وبدو الجوار
- ٢٦٤ فصل الصيف
- ٢٧٣ أنا والأرض
- ٢٧٧ الظلم الذي لحق بالفلاح
- ٢٨١ الريف في شعر محمود غنيم
- ٢٨٦ من بدع وخرافات القرية
- ٢٩٧ رحلة طلب العلم - البدايات

٢٩٩ نبذة عن التعليم في حوران
٣٠٣ رحلة طلب العلم بالبدايات
٣١٢ الجديد في عام ١٩٤٩ م
٣٢١ الانقلاب العسكري الأول
٣٢٦ سيرة ذاتية لحسني الزعيم [١٨٨٩ - ١٩٤٩ م]
٣٣١ عفا الله عما مضى
٣٣٥ انقلاب حسني الزعيم
٣٤١ السياسة الأمريكية الجديدة في الشرق الأوسط
٣٤١ الدور الأمريكي في انقلاب الزعيم
٣٦٠ اتصال الزعيم بالإسرائيليين
٣٦٤ رسالة عفلق للزعيم
٣٦٨ نهاية الطاغية
٣٧٠ اعتداؤه على حرمان الله
٣٧٥ الخلاصة
٣٧٧ الفهرس